الهــرم الدفيــن

ألفه بالإنجليزية

محمد زكريا غنيم

ترجمة

زكي سوشن

مراجعة

د. محمد جمال الدين مختار

الكتاب: الهرم الدفيـن

ألفه بالإنجليزية: محمد زكريا غنيم

ترجمـة : زكي سوشن

مراجعـة : د. محمد جمال الدين مختار

الطبعة: **2018**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميـع الحقـوق محفوظـة: لا يسمح بإعـادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

غنيم ، محمد زكريا

الهرم الدفيـن / محمد زكريا غنيم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

259 ص، **18** سم.

الترقيم الدولى: **978 -977- 446 – 686 – 3**

أ – العنوان رقم الإيداع : **4618 / 2018**

الهــرم الدفيــن



هذه ترجمة كتاب :

The Buried Pyramid

تصدير

أخذت الآثار المصرية تندثر بعد أن دخلت المسيحية ثم الإسلام أرض مصر، وتوارت اللغة المصرية القديمة منذ القرن الثالث الميلادي ، وانزوت مصر الفرعونية قرابة خمسة عشر قرنا في زوايا الإهمال .

ثم استطاع العلماء في القرن التاسع عشر قراءة الكتابة الهيروغليفية، وعلى أثر ذلك ترعرعت دراسة الآثار الفرعونية، وسلطت على مصر القديمة أشعة المناهج العلمية الحديثة، وتوالت الكشوف وكثرت البحوث، حتى غصت المتاحف بالآثار وامتلأت المكتبات بالمؤلفات، وأصبح تاريخ مصر القديمة وحضارتها الخالدة واضحين بحيث سجلا لها في سفر الخلود أروع الصفحات.

* * *

وقد أثارت بعض الآثار التي كشف عنها نتيجة لأعمال الحفر والتنقيب إعجاب العالم ودهشته، نذكر منها مجموعه الملك توت عنخ آمون من الأسرة الثامنة عشر التي عثر عليها العالم الإنجليزي كارتر سنه 1922 في جبانة طيبة، وأثاث الملكة حتب حرس من الأسرة الرابعة الذي كشفت عنه بعثه العالم الأمريكي رايزنر سنه 1925 في جبانة الجزيرة، ثم الهرم المدفون الذي كشف عنه المرحوم الأستاذ زكريا غنيم سنه 1952 –

سنة **1954** في جبانة سقارة.

والكشف عن هرم جديد حادث مثير، فلكلمه (هرم) دوي كبير ورنين خاص، إذ لم يبلغ أي بناء في العالم: قديمه وحديثه، من الشهرة وبعد الصيت ما بلغته أهرام مصر. وقد آثار هذا الهرم الجديد اهتمام العالم بأجمعه رغم أنه لم يكمل إطلاقا، لأسباب متعددة؛ فهو هرم جديد لم يكن معروفا من قبل، ولم تمتد إليه أيدي اللصوص وناهبي القبور طوال تلك الأجيال الطويلة وهو ينتسب إلى ملك غير معروف، وهو الملك سخم خت، أحد ملوك الأسرة الثالثة، التي لا يزال تاريخها غامضا مبهما. وينتمي الهرم الجديد إلى نفس الطراز الذي ينتمي إليه هرم زوسر، فهو يمثل حلقة من حلقات تطور الأهرام، بل هو يفوق هرم زوسر ضخامة ويضارعه في كثرة الأبنية المتصلة به، ووفرة المخازن التي تكتنفه، وطول الأسوار التي تحيط به. وأخيرا فهو بناء غير تام، أتاح للمرحوم زكريا غنيم فرصة الكشف عن كثير من أسرار الأهرام والحصول على معلومات عن طريق المصريين ووسائلهم في البناء، كان من المتعذر الحصول عليها من بناء تام.

ومؤلف هذا الكتاب، المرحوم الأستاذ زكريا غنيم (**1905 – 1959**)، هو أحد أفراد الرعيل الجديد من المصريين الذين شاركوا العلماء الأجانب شرف التنقيب في أرض مصر، وأفنوا حياتهم في الكشف عن الآثار ودراستها. وقد تقلد الكثير من المناصب في مصلحة الآثار وتدرج في وظائفها حتى صار كبيرا لمفتشي الآثار في الأقصر ثم سقارة. وكان آخر منصب تقلده قبل وفاته هو أمين بمتحف القاهرة.

وقد تميز المرحوم الأستاذ زكريا غنيم كأثري بمميزات كثيرة، منها: إلمامه بموضوعه نتيجة لتقلده مناصب مهمة بمصلحة الآثار، تحمل في أثناء قيامه بمهامها مسئوليات جساما، واكتسب تجارب وخبرات متنوعة. كذلك اتصف بحبه للآثار حبا عاما طاغيا، وبرغبته المستمرة في الحياة في المناطق الأثرية، وبإيمانه إيماناً عميقاً مطلقاً بمصر القديمة وحضارتها الرفيعة.

ويعرض علينا المرحوم الأستاذ زكريا غنيم في هذا الكتاب الشيق تفاصيل جذابة عن كشفه وعن أعمال الحفائر يوما بعد يوم، ويقص علينا قصة البحث، وهي قصة جهاد وكفاح ثلاث سنوات طوال، طريقته في اختيار الموقع، وأسلوبه في التنظيف وعمل المجسات، ومشكلاته عندما كشف عن الجزء الأعلى من البناء ثم الأسفل وعندما دخل حجرة الدفن وعندما فتح التابوت، ثم يمدنا بفكرة واضحة عن عملية التنقيب في أرض مصر ويبين لنا كيف أن المنقب يضع نفسه موضع البنائين القدامى ويحاول أن ينفذ إلى عقولهم، وكيف يعتمد على أوهى دليل مستخدما ذكاءه وتجربته وذاكرته وعلمه وقوة ملاحظته للوصول إلى نتائج تفتح له طريق البحث والعمل، وكيف يعكف على دراسة ما صعب عليه في صبر وأناة وتدقيق، وأخيرا كيف لعب الحظ دورا رئيسيا في الموضوع بأكمله.

وسوف يعيش القارئ مع هؤلاء المكافحين في الرمال مدة من الزمن، ماراً معهم بفترات يأس وقنوط ولحظات نصر ومجد، مكافحا معهم ما يصادف من عقبات وما يعترضهم من حوادث تعطل العمل وما يحيط بهم من شائعات وأراجيف وسوف ينفعل معهم، ويحس ما يستبدهم من

أحاسيس، ويشعر بما ينتابهم من مشاعر: الخوف من المجهول، والرهبة مما هو قادم، والقلق من الإخفاق، والحيرة فيما يستعصي فهمه، والقنوط لما يصادف من عقبات، ثم الأمل في الوصول ، وحب الاستطلاع للجديد، والابتهاج بكشف جديد سواء أكان ماديا ملموسا أو معنويا قد يضيف شيئا لمعرفتنا بتاريخ الإنسان.

وخلال ذلك يعرض المؤلف عرضا ممتازا خصائص من البناء المصري القديم، ويكشف عن الكثير من أسرار الأهرام، ويوضح بعض معالم حضارة المصريين القدماء، ويقص جانبا من تاريخهم، مما ييسر فهم الكتاب للقارئ العادي ويمده بالأفكار والآراء والنظريات المتعلقة بما تناوله الكتاب من موضوعات.

د. محمد جمال الدين مختار

مقدمـــة

عندما يحاول أحد الهاوين للآثار وضع كتاب في هذا الموضوع، فليس من غير المألوف أن يطلب المؤلف إلى أخصائي أن يكتب مقدمة لكتابة.

ولكن الأمر يختلف عندما يدعو عالم آثار هاوياً لأن يضع مثل هذه المقدمة. وعندما تفضل السيد غنيم وطلب مني ذلك، لبيت على شريطة ألا يتوقع مني تقويم دقة الكتاب من الناحية الصنعية – لأن هذا خارج عن اختصاصي – وإنما أقتصر على تقدير الرجل وعمله. كذلك قد يوجد ما يبرر مثل هذه المقدمة، بما أنه تقع على عاتقه مسئولية شخصية يسيرة في ظهور هذا الكتاب.

إن السيد غنيم عالم، مهنته علم الآثار المصرية، وسينتشر في الوقت المناسب نتائج حفائره تحت رعاية مصلحة الآثار المصرية، وسينشر في الوقت المناسب نتائج حفائره تحت رعاية مصلحة الآثار المصرية في أسلوب علمي وافي التفاصيل يلائم العلماء الآخرين، ولكن ذلك سيتطلب بعض الزمن.. وفي هذه الآونة، أعتقد أنه يوجد خارج غرفة الدرس وغرفة المحاضرة قراء كثيرون يتطلعون إلى كتاب عن كشف الهرم (الجديد)، يكتب أصلا – مع توخي الدقة والصبغة العلمية – لجمهرة القارئين.

وكان السيد غنيم يراوده التفكير في هذا الأمر عندما تقدمت

بالاقتراح إليه وإني أعتقد أن لديه ما لا يتوافر دائما عند الإخصائيين: عاصفة مستعرة نحو موضعه المختار، وقدرة على الصياغة في التعبيرات بسيطة ولذا وقد شملتني غبطة عندما وافق على وضع كتاب كهذا، وها هي ذي نتيجة أول مؤلفات كثيرة.

من بين جميع آثار مصر القديمة، ربما تحتل الأهرام مكان الفخار في عقول معظم الناس، وينهض دليلا على هذا الكتب الوفيرة التي صنفت في هذا الموضوع، والاهتمام العالمي الذي أثير عندما كشف السيد غنيم في سقارة هرما لم يكن معروفا حتى ذلك الوقت، يرجع تاريخه إلى الأسرة الثالثة المصرية (حوالي **2780** ق. م).

وإذا كانت عملية التنقيب لا تزال في بدايتها، فلا بد للوصول إلى النتائج النهائية من مرور وقت طويل قد يقرب من عشر سنوات أو يزيد وقد يكون هذا موضع دهشة الناس الذين يذهب تصورهم إلى أن التنقيب الأثري يتم معظمه بحفر نقرة عظيمة في الأرض. إن الأثر الذي كشف عنه السيد غنيم تبلغ أبعاده عند التقريب **120** مترا في **120** مترا ، وعلاوة على هذا أحيط به أبنية فرعية يكتنفها سور تبلغ أبعاده **540** مترا في **195** مترا، وإذا حكمنا – قياسا على البناء السفلي في هرم زوسر الذي أقيم على التقريب في الحقبة ذاتها – فإن الصخر الذي يقع أسفله سيحوي بما يقرب أن يكون محققا، الكثير من الدهاليز السفلية الطوال التي تؤدي إلى مخازن وربما إلى غرف دفن الملك وأسرته. وقد يكشف عن بقايا أبنية أخرى داخل الوصيد الخارجي، الذي قد يوجد أسفله مزيد من دهاليز

وغرف دفن. وعظم المهمة التي تواجه السيد غنيم ومعاونيه خلال الأعوام المقبلة واضح جلي. وفي الحق، إنه لأحد الكشوف الأثرية المثيرة التي حدثت في مصر بعد الكشف عن مقبرة توت عنخ آمون في سنة 1922.

وعلينا الآن أن نتحدث عن كاشف ذلك الهرم:

وينتمي محمد زكريا غنيم إلى الجيل الجديد من علماء الآثار المصريين فخلال الشطر الثاني من القرن الماضي كان علماء الآثار المصرية العظام أوروبيين أو أمريكيين. وإن المرء ليتذكر على سبيل المثال الأسماء اللامعة: ماسبيرو **Maspero** (فرنسي) وبورخارد **Borchardt** (ألماني) ورايزنر **Reisner** وونلوك **Winlock** ونلسون **Nelson** (أمريكيون) وبتري **Petrie** وكارتر **Carter** وبيت **Peet** وبرتنون **Brunton** (إنجليز) ونافي **Naville** وجاكيه **Lequier** (سويسريان).

وإلى عهد قريب كانت العادة أن يتولى بعض الأوروبيين المناصب الرئيسية في مصلحة الآثار نفسها، ولم يبرز من بين المصريين علماء متخصصون في علم الآثار [1].

ولكن خلال السنوات الثلاثين الماضية توفر عدد عظيم من المصريين على دراسة علم الآثار المصرية، معظمهم في جامعة القاهرة، على أساتذة أوروبيين، واليوم يضطلع بكل المناصب الرئيسية في مصلحة الآثار

([1]) ظهر بعض الأثريين المصريين ي النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين نذكر منهم على سبيل المثال المرحوم أحمد (باشا) كمال. المترجم

مصريون، والسيد غنيم واحد منهم.

لقد درس علم الآثار المصرية في جامعة القاهرة على أساتذة أمثال برسي نيوبري **Percy Newbarry** وهو مان يونكر **Herman Junker**. وكان أول منصب له في مصلحة الآثار مساعد أثري في سقارة، المكان الذي عاد إليه حديثا كأمين المنطقة الأثرية وكبير مفتشين وخلال الفترة التي مرت بين تقلده المنصبين عمل على الولاء: مفتشا للآثار في أسوان وفي سوهاج ثم في إدفو، وبعد ذلك عين أمينا لجبانة طيبة في الأقصر. ومن هذه الوظيفة رقي إلى منصب كبير مفتشي آثار الوجه القبلي، وقام بحفائر مهمة في الأقصر وفي معابد طيبة وفي سنة **1951** تولى منصب أمين جبانة سقارة وكبير المفتشين لهذه المنطقة المهمة التي كان – سياقا للحديث قبل بدء حياته العملية فيها كعالم آثار منذ سبع عشرة سنة خلت.

وقد قابلت زكريا غنيم أول ما قابلته في سنة **1947** عندما كان كبير مفتشي مصر العليا، ومقره الأقصر. وفي ذلك الوقت كانت معرفتي بمصر القديمة سطحية للغاية ولو أن الموضوع استمالني منذ حداثتي ومن أول مقابلة بيننا، رأيت في غنيم رجلا لا يلم فقط بموضوعه، ولكنه يحبه أيضا حباً عارماً. وعلى الرغم من مهامه الكثيرة فإنه كان يجد متسعاً من الوقت ليصحبني شخصياً إلى منطقة آثار طيبة بما فيها وادي الملوك، ويجيب في أناة عن أسئلتي الكثيرة ويعيد إنقاذ كامن اهتمامي، حتى أنه منذ تلك اللحظة خصصت نفسي لمصر القديمة. وفي الحق، يرجع أصل مؤلفاتي

المختلفة عن هذا الموضوع وما يشبهه من موضوعات إلى تلك الأحاديث مع زكريا غنيم في بيته في الأقصر منذ سبع سنوات.

ولقد تكشف لي أن استعداده الرضي الصابر للشرح كان من خصال غنيم الشخصية وكان يدمه في يسر إلى أي فرد يهتم اهتماما صادقا بمصر القديمة. وكان من السهل دائما الاتصال به كما كان على الدوام رفيقا. ومنذ ذلك الحين قابلت زائرين لمصر يدينون بأول معرفتهم بعلم الآثار المصرية لكبير مفتشي الآثار الشاب، في الأقصر. وقد قال لي زكريا مرة: "إني أقسم البشر إلى فريقين: أولئك الذين يعنون بالآثار، وأولئك الذين لا يعنون بها. وهذا التقسيم ينسحب على جميع الأجناس والأمم والطبقة الاجتماعية. ويوجد من يضمرون حبا للمنطقة الأثرية، وقد يكونون من رقيقي الحال الذين لم يصيبوا تعليماً، وقد لا يواتيهم الإفصاح عن ذوات أنفسهم، ولكنهم راغبون في التعلم. ويوجد غيرهم من الرجال الممتازين تماماً، وبعضهم أشخاص على قسط من الظرف. ولكنهم في الواقع لا يعيرون الآثار اهتماماً..."

إن تلك الملاحظة هي طابع الرجل.

وغنيم في مظهره أسمر اللون قصير القامة يميل إلى البدانة، وله جبهة عالية مقوسة. وهو يضع في معظم الأوقات عوينات قائمة للوقاية من ضوء شمس مصر الشديد الذي يعمل عادة فيه. وعندما ينزعها تبرق عيناه بالدعابة والمرح. وفي الحق أنه على نقيض ما جرى الناس عليه في تصورهم عالم الآثار. فهو ليس بالعالم المنفقه المتجهم، ولكنه رجل يحب الحياة

والناس وفي رأيه، كما قال لي مرة "إنَّ قدامى المصريين ليسوا أمواتاً بل أحياء" وهو لا يهتم بعظام الموتى قدر اهتمامه بأن يكسوها مرة أخرى لحماً ينبض بالحياة. وكثيراً ما كان يحدث خلال نقاش علمي في موضوع دقيق أنه ينفجر في ضحك هادئ عميق وهو يعيد إلى ذاكرته حادثة مسلية تتصل بعمله أو يروي قصة كثيرا ما تكون ضده ويستطيع المرء بإبدال كلمة واحدة أن يطبق على زكريا غنيم الملاحظة التي أبداها مرة محام في محكمة القضاء الأعلى، للدكتور صموئيل جونسون **Samuel Johnson**:

"وأنا أيضا أردت أن أكون عالم آثار [2] ولكن أسباب المرح تدأب على الظهور".

ومع هذا فإن غنيم عالم آثار قدير، وإن القصة التي يرويها هنا على صفحات هذا الكتاب هي قصة بحث وجهد بذلك فيها عناية وجلد، وليس بها نظريات جامعة أو معنى إلى إثارة المشاعر، وأولئك الذين يقتفون خطواته يمكنهم أن يكونوا على يقين من أنهم على الدوام، يقفون على أرض صلبة.

وسيأخذ العلماء العجب من المهارة والاقتصاد اللذين أدى بهما العمل. وفي سلسلة من تقديرات وضعت في جسارة وقدرة قام غنيم بعمل من أعظم أعمال الحفر التي رسمت بدقة ونفذت بطريقة فيها توفير المال. وقد وثب صبره ومثابرته ونفاذ بصيرته هوة كبيرة المدى.

([2]) في النص الأصلي "فيلسوفاً"

وسيجد القارئ العادي متعة أخرى. إنه وهو يتتبع الكاشف في بحثه عن الهرم، ويقف إلى جواره عندما يتوغل في دهليز المدخل العظيم، ويسهم في ثورة مشاعره وهو ينفذ من خلال الحائط الواصد المختوم الذي يؤدي إلى غرفة الناووس(3)، سيجد ثغرات نفذت فيها إنسانية وخيال وحماسة الكاشف من خلال غشاء العلم الصلد، وسيلم به الفزع والعجب وهو يجوس، لأول مرة، خلال الردهات والغرف التي لم تطأها قدم إنسان منذ سنة 2700 ق.م – ذلك العهد الذي لم تكن قد كتبت فيه بعد، تسعة أعشار تاريخ البشرية.

هاجيت لندن Highgate London فبراير 1955.

ليونارد كوترل Leonard Cottrell

(3) الناووس – يراجع تطور الفكر والدين في مصر القديمة لبرستد الذي نقله المترجم للعربية. الناووس لفظ عربي أطلقه العلماء على ما يسمى بالإنجليزية **Sarcophagus** تمييزاً له من التابوت **Coffin**. وقد أطلقه الإنجليز أيضا على المقدس في المعبد والهيكل الذي يضمه، في هذا المعنى أيضا.

تمهيــد

هذه قصة كشفي في سقارة بالقرب من القاهرة عن هرم لم يكن معروفا حتى الآن، يرجع إلى الأسرة الثالثة المصرية (2780 – 2720 ق.م.).

إنها ليست القصة الكاملة التي تلزم لكتابتها أعوام كثيرة، لأن المنطقة التي يجب إجراء الحفر فيها، على اتساع عظيم، حتى ليستغرق العمل عشرة أعوام قوادم. ولا أزعم أنه كتاب في الحفائر اتخذ صوغه النهائي الحاسم في شكل يلائم إخواني الأثريين، ولو أن الأمل يحدوني بأنهم أيضا سيجدون فيه بعض النفع. ومثل هذا العمل – بتصميمات ورسوم ووصف مفصل لجميع ما وجد حتى آخر قطعة لخاف (رقائق الحجر) – ستنشره في النهاية مصلحة الآثار التي يستكمل العمل تحت رعايتها.

ومع هذا فقد اهتمت بهذا الكشف صحافة العالم وهيئات الإذاعة، اهتمامًا شجعني على وضع هذا المؤلف الموجز لجمهرة القارئين. إن الحقائق التي أوردتها دقيقة للدرجة التي أرجوها لها. ولا يغيب عن البال أن الكتاب قد وضع في غضون الشهور القلائل التي تلت تنظيف غرفة الناووس، أو كما أفضل أن أدعوها "المثوى الصوري"، تلك التي تقع تحت الهرم الذي لم يكمل. وفي الوقت نفسه يجب ألا يغرب عن البال أنه في عمل من هذا النوع قد تستدعي الكشوف الجديدة إعادة النظر في النظريات السابقة.

بل لست أشك في أن آرائي التي أقدمها اليوم سيصيبها التغيير والتبديل في المستقبل القريب، وذلك على ضوء ما سوف يكشف عنه معول المنقب.

ويحوي هذا الكتاب أيضا قدرًا وفيرًا من المعلومات التي تتصل ببناء هرم، وهي معلومات مألوفة للأثريين ذوي الدربة. ولست بنادم على إشماله عليها فقد جهدت في أن أجعل الكتاب مفهوما للملايين الكثيرة الذين يقدمون على دراسة الآثار دون سابق علم بها، إن إلماماً أساسياً – مهما كان موجزا – بالتاريخ المصري الباكر وبالعادات المصرية القديمة وبمناهج البناء إلخ. ولا مندوحة عنه لفهم هذا الكشف الجديد فهما واعياً.

وقد حاولت أيضاً – على أفضل ما أستطيع – أن أشرك القارئ فيما كان يجري وراء ستار حتى أتيح له أن يسهم في أعمال الحفر من يوم لآخر، وما فيها من محاولات وما يقابلها من صعاب وما تتطلبه من عمل مجسات للأرض، وما تتضمنه من لحظات قنوط أو مجد.

وفي معاونتي على تصوير هذه الصورة أجد لزاما عليَّ أن أقدم الشكر خاصة للسيد ليونارد كوترل. الذي يشاركني الاهتمام بعمل الآثار المصرية والذي كان لكتبه وإذاعاته الفضل العظيم في إثارة الاهتمام بالموضوع بين غير الأخصائيين، ولقد نعمت بصداقة السيد كوترل أعواما كبيرة، كما حضر إلى سقارة في مناسبات عدة، وعندما اقترح وضع هذا الكتاب تفضل بالموافقة على تقديم العون في تحضير النص.

وإني أتقدم بخالص الحمد إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر لما حباني به من عطف وتشجيع وحبا بهما غيري من علماء الآثار المصريين، وكذلك أقدم شكري لمصلحة الآثار التي يسرت لي العمل في سقارة والتي أمدتني بالمال اللازم للحفر، وأقدم شكري الخاص إلى وزير التربية والتعليم السيد كمال الدين حسين، وإلى مدير مصلحة الآثار (سابقا) الأستاذ مصطفى عامر، وهم الذين ما كان يمكن الاستمرار في العمل لولا تشجيعهم ومؤازرتهم.

ومن بين الكثيرين من العلماء الأعلام الذين قدموا العون لي، يطيب لي أن اذكر: دكتور وليم هيز **Dr. William C.Hayes** أمين القسم المصري بمتحف متروبوليتان للفن بنيويورك، والأستاذ ولتر. ب. إمري **Prof. Walter B.Emery** الأستاذ بجامعة لندن، وعمله في مقابر الأسرتين الأولى والثانية في سقارة معروف تمام المعرفة.

والسيد ج . ي . س . إدواردز **Mr.J.E.S. Edwards** بالمتحف البريطاني (الذي تعطف بقراءة مسودة الكتاب)، وعالم الآثار المصرية المبرز الأستاذ هرمان كيز **Prof. Hermann Kees** ، ومدام ك. دسروش نوبلكور **Madame C. H. Desroche Noblecourt** بمتحف اللوفر، وكذلك الدكتور هانس شتوك **Dr. Hans Stock** من جامعة ميونخ، والسكيد جان فيليب لوير **Monsiuer Jean Phillippe Lauer** المهندس المعماري بمصلحة الآثار المصرية في سقارة، الذي أنفق سنوات حياته في دراسة

وترميم هرم زوسر المدرج المشهور، وهو الهرم الذي وجد على مقربة منه الأثر الذي كشف عنه حديثا.

م. زكريا غنيم

سبتمبر 1955

الفصل الأول

أبو الأهرام

إنني أفترض في كثير من قراء هذا الكتاب عدم الإلمام بدقائق مصر القديمة، وعلى هذا آمل أن أولئك الذين لديهم مثل هذا الإلمام يفتقرون عرض مقدمه وجيزة للأسرات المصرية الباكرة حتى يتاح للكثيرين ممن تتيسر لهم هذه المعرفة أن يضعوا الكشوف الحديثة في موضعها المناسب.

يعتبر وادي النيل الآن على وجه عام موطن أول حضارة على هذا الكوكب السيار؛ فعندما انتهى عصر الجليد في أوربا وتناقصت الأمطار سارت شعوب البدو في شمال إفريقيا صوب وادي النيل، وقد اجتذبتهم المياه الوفيرة الدائمة. وفي أوائل أزمنه العصر الحجري الحديث، وربما يرجع ذلك سنه 6000 – 5000 ق. م بدأ هؤلاء الناس الذين كانوا سلالات شتى يدمجون عناصر من الغرب والشرق وكذلك من الجنوب والذين كانوا، في الأصل، صائدين بدو يستقرون في الوادي. وهناك أمدهم فياض النيل السنوي – الذي يحمل هبة الطمي الخصيب الجالب للحياة – بالوسائل للعيش الدائم في مكان مستقر . وخلال حقبة طويلة من الزمان عرف المصريون البدائيون التحكم في نهرهم أو على الأقل التنبؤ بمسلكه المرجح. وقد تعلموا الاحتفاظ بسجلات تبين مستوى المياه في فصول معينة خلال

مدة مستطيلة من الزمن. كانت قدرتهم أن يتنبئوا في دقة بدرجة الفيضان. وكان لزاما عليهم أن يحتفظوا بسجلات، وقد يكون هذا أحد الأسباب الأساسية لاختراع الكتابة. ولكن في كل سنة، كان الكثير من معالم الأرض يمحى، ونجم عن هذا قيام نظام دقيق للمساحة توافر فيه الكمال حتى يمكن تقسيم الأرض في ضبط وأحكام وربما كان هذا بدوره، هو الذي أدى إلى نشوء نظريات الهندسة التي طبقت بعد ذلك في إقامة المباني.

وهكذا ترعرعت المدينة، ولو أنه خلال فتره جد طويلة، لم يكن المصريون شعبا موحدا، ولكنهم كانوا يعيشون في مجموعات منعزلة مبعثرة على طول النهر العظيم المتعرج، ويحكم كلا منها رئيسها المحلي. وفي غضون هذه المدة، كانت القبائل المستقلة تتحارب، الواحدة مع الأخرى. ويحدث أحيانا أن سيدا قويا يخضع عددا من جيرانه، أو أن عددا من الممالك الصغيرة يكون اتحادا للعدوان أو الدفاع. وعلى هذا أخذت بعض الحكومات توسع حدودها إلى أن جاء زمن أضحت فيه مصر تنقسم إلى مملكتين: إحداهما مملكة مصر العليا، والأخرى مملكة مصر السفلى. وأخيرا غزا ملك مصر العليا الشمال وأسس مملكة موحدة[4]، وهو الملك نرمر الذي يسمى أيضا مينا، مؤسس ما يسميه المؤرخون الأسره الأولى، التي بدأت سنة **3200** ق . م [5].

([4]) ومع هذا فإن هذه الذكرى العتيقة لتقسيم مصر إلى مملكتين الوجه القبلي والوجه البحري ظلت أمدا طويلا بعد أن أصبحت المملكة بأجمعها موحدة، وكان أحد ألقاب الفراعنة "ملك مصر الدنيا ومصر السفلى" .

([5]) وأخبار ذلك الغزو مسجلة بالرسم والرمز على لوح من الإردواز لملك يدعى"نارمر" وجد بين خرائب مدينة الكاب، ومحفوظ الآن بمتحف القاهرة. والباحثون في تاريخ الفراعنة مازالوا يحتفلون في تحديد الصلة بين نرمر هذا وبين

ويجدر بنا أن نذكر أن هذه الأسرات، كما نسميها، لم تكن دقيقة دقة محققة، وقد وضع تقسيمها لأول مرة، مؤرخ مصري يدعى مانيثون، وهو الذي كتب تاريخا لمصر باللغة اليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد. وقد قسم مانيثون أسماء الفراعنة التي وصل إليها من السجلات القديمة إلى ثلاثين بيتا مالكا، ولكن ليس كل تقسيمه صوابا، ومؤرخو العصر الحديث لا يزالون يستخدمون قائمة مانيثون توفيرا للعناء، وقد أوردنا قائمه بالأسرات في آخر هذا الكتاب .

إن الحقبة التي وصفتها – حقبة الحروب الصغيرة التي سبقت توحيد مصر – كانت طويلة الأمد، ويرجع تاريخها إلى ألف سنة ونيف قبل مصر التاريخية التي نعرفها من السجلات المكتوبة؛ فعلى سبيل المثال: كان مينا يبعد عن الفرعون "توت عنخ آمون" الذي يرجع حكمه إلى قرابة أربعه عشر قرنا قبل المسيح، بعد نيرون عنا، ومع هذا فإننا نعلم من قبور هذا العهد السحيق الذي ترادفت عليه ستة آلاف سنة أن المدينة المصرية كانت قد تهيأت لها أسباب التقديم فكان التقويم الزمني معروفا ومقررا، وكانت الكتابة معروفة، ووصل فن الخزف والحلي وصناعة الذهب وعمل الأسلحة إلخ، إلى مستو رفيع راق. ونسمي هذا العصر الذي سبق بواكير التاريخ المكتوب بعصر ما قبل الأسرات، والفترة من الأزمان التي أعقبته والتي قامت فيها الأسرتان الأولى والثانية يسميها المؤرخون العصر العتيق (**3200 – 2780** ق.م.)

الفرعون مينا الذي أجمعت المصادر التاريخية على أنه موحد القطرين، وأنه كان المنقذ الأكبر، وأن نرمر هو مينا (المترجم) .

وكان زمن توطيد دعائم المملكة المتحدة والسير بها في مدرجة الرقي وباعتلاء زوسر (جسر) أول ملوك الأسرة الثالثة (**2780** ق.م) العرش تستهل الدولة القديمة عهد بناة الأهرام الذي يعالجه هذا الكتاب بصفة أساسية.

وكانت عاصمة "مينا" أو "نرمر" الأصلية "طيبة"، وتقع في مصر العليا، ولكنه في حملاته التي شنها على مصر السفلى استخدم قاعدة له، مدينة منف، التي كانت تقع على مسيرة 22 كيلومترا تقريباً إلى الجنوب من القاهرة الحالية. وبعد قيام الأسرة الثالثة، حكم خلفاؤه مملكة مصر الموحدة من منف التي ظلت حتى نهاية الدولة القديمة (**2780 – 2258** ق.م) حاضرة البلاد، وكانت موطنا للملوك أولي الصولة أمثال "خوفو" الذي بنى الهرم الأكبر، و"خفرع" خلفه باني الهرم الثاني، و"منكارع" وكثير غيرهم. وكانت المدينة نفسها تقع على مقربة من النهر حيث لا تزال تقوم أطلال قليلة، وكانت تقع أهم جبانة أو مقر دفن الملوك وأشرافهم على الهضبة الصحراوية إلى الغرب وهي التي تدعى سقارة [6].

سيشمل الفصل الثاني الحديث عن ملوك الأسرة الثالثة ويخال أن أحدهم – سخم خت (قوى البدن) هو الذي بنى الهرم الذي كشفت عنه أخيراً. ولكنني في هذا الفصل أعتزم فقط رسم صورة عامة لجبانة سقارة نفسها حتى يتاح للقائلين أن يفهموا، في يسر ، المواقع الجغرافي للكشف، وأن أصف الهرم المدرج للملك "تترى – إر – خت" المعروف أيضا باسم

([6]) ربما كان أصل التسمية يرجع إلى الإله بتاح – سفر – أوزيريس رب هذه الجبانة.

"زوسر" مؤسس الأسرة الثالثة:

إن "سقارة" على اليقين في اعتبار أي فرد تصطرع في نفسه مشاعر نحو الماضي السحيق كأحد الأماكن التي تتميز بروعة بالغة، ومما يدعو إلى الأسف أن الكثير من آلاف الزائرين الذين يزورون كل سنة أهرام الجيزة لا يواصلون الرحلة الإضافية التي تبلغ بضعة كيلومترات صوب الجنوب ليروا جبانة ملوك منف التي تفوقها عظمة. وعلى ذلك، فلتتخيل أنك بعد أن أعجبت بهرم "خوفو" الأكبر وما يجاوره من أهرام انحرفت عن الطريق الأصلي وسلكت الطريق الأضيق إلى سقارة في محاذاة الهضبة الصحراوية العالية التي تصاحبك عن يمينك.

وعندما تأخذ سيارتك طريقها صاعدة هابطة في هذا الطريق الضيق فإنك تمر بجماعات من الناس يعملون في الحقول. فهنا رجل يقود محراثا خلف ثورين في عنقهما نير [7]. وهناك آخر مشتملا برداء طويل ويضع فوق رأسه عمامة بيضاء، ينحني على مضخة بدائية تستخدم لرفع المياه من قناة إلى أخرى. إنك ترى أشياء يكاد لم يعتبرها تغيير على الإطلاق منذ أزمنة بناة الأهرام. وفي الواقع أنك لا تزال تستطيع أن تشاهد في قبو تلك الحقبة رسوما بارزة وصوراً تمثل مناظر مماثلة. ويمتد وادي النيل المطمئن [8] ناظر الخضرة بعيدا إلى يسارك، تتناثر فيه غيضات النخيل بخضرتها الأكثر دكنة. وفي الأفق البعيد ترتفع حافة الصحراء على الشاطئ الشرقي وهي

([7]) النير: الخشبة المعترضة في منفي الثورين بأداتها (المترجم)

([8]) المطمئن – منخفض مع استواء (المترجم).

التي استخرج منها قدامى البنائين الحجر لتكسية الأهرام.

والآن حول بصرك إلى الاتجاه الآخر صوب الهضبة الصحراوية على قيد مئات قليلة من الأمتار عن يمينك وسرعان ما تتجلى للعيان مجموعة أهرام هي مجموعة أبوصير شيدها أربعة ملوك من الأسرة الخامسة: "ساحورع" و"ني أوسر رع" "ونفراير كارع". وقبل أن تتوارى إلى الخلف منك، فإنك ترى هرم زوسر المدرج يرتفع في روعة فوق حافة الهضبة على بعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب.

إنه في سقارة، وإذا حددت النظر فإنك تلمح نقطه بيضاء صغيرة فوق حافظة الهضبة عينها، حيث يقوم منزلي الذي فيه أعيش وأعمل.

وعندما تنحرف السيارة إلى اليمين لتجتاز الوادي يكون هرم زوسر المدرج أمامك رأسا، ولكن إلى اليسار يظهر مزيد من أهرام تنهض كأنها مردة من خلال الضباط. إنها آثار "سنفور" العظيمة في دهشور، ويكاد يبلغ حجم أحدهم حجم هرم "خوفو" نفسه. وفجأة تكون قد عبرت الأرض المزروعة وتدور عجلات السيارة في الرمل الناعم، وعندما تصعد في الطريق الملتوي فإنك ترى نقرا عميقة وتلالا مرتفعة من اللخاف المكسور وهي أنقاض قرن من الحفر، لأن جبانة سقارة هي واحدة من المناطق التي أجري فيها أعظم تنقيب في مصر بأجمعها. وتخرج من السيارة وتصطدم قدماك في الركام (القطع الحجرية الصغيرة التي تكسو الأرض) وتهب ريح باردة عبر مساحات من رمل ذهبي اللون يتماوج، ويلي هذا، إلى الغرب، الصحراء الغربية، وتبدو بقاعًا خاوية، كما كانت أيام الفراعنة. ولكن

أمامك مباشرة ينهض هرم زوسر المدرج، هائل الهرم، هو أول ملك في الأسرة الثالثة (2800 ق.م) وأقدم وأكبر بناء شيدته يد البشرية من الحجر.

ومع أن هرم زوسر له المكانة البارزة في سقارة، فإنه توجد فيها قبور ملكية أخرى وافرة العدد، تسبق زمنه. وأقدمها المصاطب العظيمة التي ترجع إلى الأسرة الأولى والتي كشف عنها منذ زمن قريب الأستاذ ولتر إمري إلى الشمال من سقارة، وهي أبنية ضخمة مستطيلة الشكل شيدت من اللبن، ويتوسط كل منها غرفة دفن يحيط بها عدد من الغرف أقل حجما، كان الغرض منها أن تحوي المؤن للحياة الأخرى، ويظهر أن قدماء المصريين في هذه الحقبة كانوا يعتقدون أن الحياة بعد الموت ستقوم في القبر أو على كثب منه، ومن أجل ذلك أقيم على نمط قصر الملك. ويخال أنه حتى خدم دار الملك المتوفى كانوا يصحبونه إلى الموت إذ وجد إمري حول بعض القبور عددا عظيماً من الحفر الصغيرة يحوي كل منها عظاماً آدمية، ويظهر أن هذه العادة الهمجية وهي إحدى مخلفات الأزمنة التي سبقت تحضر المصريين أقلع عنها بعد هذه الحقبة بزمن وجيز، وقد روعي أن يحتل مكان الخدم دمى صغيرة يطلق عليها (شوابتي) ومعناها "المحاربون" تضيق عليها، عن طريق سحر التجاوب الشعوري لقدرة الخدم الحقيقيين.

وإلى الآن، كشف في مقابره عن قيود ترجع إلى الأسرة الأولى وتحمل أسماء الملوك: حر – عها، وجر، وواجى، وأدى – مو، وقاعا. ومنذ أعوام كشف فلندرز بتري قيودا تحمل أسماء هؤلاء الملوك، في "أبيدوس" في مصر

العليا. ولا يعلم إلى الآن عما إذا كان الملوك قد دفنوا فعلا في أبيدوس أو في سقارة، ومع هذا فقد جرت العادة في ذلك الوقت أن يكون للملك قبران، قبر في الشمال، وآخر في الجنوب يمثلانه في صفته المزدوجة كحاكم على مصر العليا ومصر السفلى، ويعتقد الأستاذ "إمري" أن ملوك الأسرة الأولى قد دفنوا فعلا في مقابره، وما مقابر أبيدوس إلا مقابر رمزية لهؤلاء الملوك، لا غير.

ولقد نهبت هذه القبور في العصور القديمة أسوة بمعظم القبور المصرية غيرها، ولو أنه عثر بها على جرار من الحجر وغير ذلك من الآثار الجنازية، وكذلك شذرات من رقائق الذهب ربما كانت تغشى جدران الغرفة الوسطى. ولقد تبينت من حيطان اللبن أدلة على أنها تعرضت لحرارة شديدة مما يوحي بأنه في زمن ما أشعلت النار في محتوياتها. وفعل ذلك إما أعداء الملك المتوفى وإما من يكونون قد اقتحموها في زمن متأخر ورغبوا في طرد أرواح الموتى ليستخدموا القبور كمدافن لهم، ولقد كانت هذه عاده جرى عليها القوم في مصر القديمة.

ويلي هذا في الترتيب التاريخي مقابر الأسرة الثانية التي تقع إلى الجنوب الغربي من وصيد [9] هرم "زوسر"، ولم يسبق منها سوى الأبنية السفلية، أما الأجزاء العليا فقد دمرت وربما كان هذا من عمل الملك أو ناس عندما شيد معبده الجنازي. وتحمل الأختام الطينية التي وجدت في الدهاليز الواقعة تحت الأرض اسمي ملكين من الأسرة الثانية هما: "تي –

([9]) الوصيد: فناء الدار والبيت (المترجم)

نثر" و"رع – نب"، ولكن لم يبق شيء من جسديهما أو أثاثهما الجنازي، وعوضاً عن هذا ملئت الدهاليز في تاريخ جد متأخر بمئات المومياوات، ولا تزال تدعو الحال إلى نقل معظمهما. وخلال ثلاثة آلاف سنة كانت فيها الجبانة تستخدم استخداماً دائماً، كان يغلب أن يستخدم المقتحمون المتأخرون مقابر الملوك التي انتهبت.

وحتى بداية الأسرة الثالثة كان قدماء المصريين يبنون باللبن ولو أنه أحيانا كانت الغرفة الوسطى تكسى بالحجر مثل غرفة "خع سخموي" في أبيدوس. ثم نجم أحد تلك التغيرات النورية التي تحدث بين حين وآخر في تاريخ تقدم الإنسان، وهي قفزات تبيح له في مدى سنوات قليلة قصار أن يحول بيئته ويزيد كثيرا من قوته. ومن هذه القفزات الحضارية، على سبيل المثال، اختراع المجلة وآلة البخار. وفي حالتنا كان اختراع البناء بالحجر.

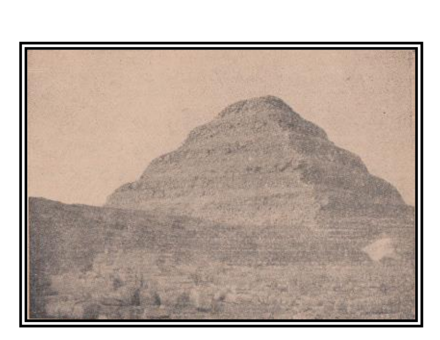
وتذهب التقاليد إلى أن الرجل المسئول عن هذه الخطوة التقدمية العظيمة كان "إيمحوتب" كبير المهندسين المعماريين للملك "زوسر" الذي يعتبر بوجه عام أول ملك في الأسرة الثالثة(10). وفي هذا الوقت أصبح اندماج مملكتي مصر العليا ومصر السفلى تحت حكم موحد تام. وكان الملوك يحكمون من ممفيس. وكانت أجيال المصريين في الأزمنة اللاحقة يمجدون "أيمحوتب" كإله، واعتاد الكتاب أن يسكبوا الماء كتقدمه له قبل البدء في عملهم. وكثير من الأقوال التي تنسب إليه كانت تحفظ عن ظهر قلب وعندما قدم الإغريق إلى مصر تمثلوا في "إيمحوتب" إسكيولابيوس

(10) ولو أنه لا يوجد دليل قاطع على هذا فإن بردية وستكار **Wastcar** تذكر نب كا كأول ملك.

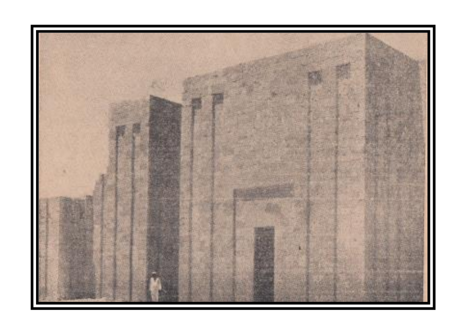
Aesculapius إله الطب عندهم.

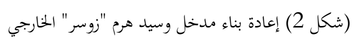
وعلى اليقين، لا بد أنه كان رجلا ذا عبقرية جبارة وهرمه المدرج وهو أول أثر عظيم في العالم صنع من حجر، يثير الخيال الحساس أعظم من إثارة هرمي "خوفو" و"خفرع" المتأخرين عنه والأبعدين صيتا "هنا يمكنك أن ترى بداية الفن المعماري، وأول محاولة قام بها الإنسان لبناء أثر عظيم بالحجر. وحتى اليوم، بعد أن انتزعت أجيال من الناهبين تكسيته البديعة من الحجر الجيري وعبثت بحواف درجة الحادة الرقيقة، فإن أثر زوسر العظيم لا يزال يخلب اللب، ليس لهرمه فحسب، بل كذلك لتلك المجموعة الرائعة من الأفنية والأبنية التي كانت تحيط به في وقت ما [11].

([11]) ليوناردو كوترل الفراعنة المفقودون، **The Lost Pharaohs**، لندن **1950**.



(شكل 1) هرم "زوسر" المدرج





(شكل 2) إعادة بناء مدخل وسيد هرم "زوسر" الخارجي



(شكل 3) هرم "زوسر" المدرج — وفيه يظهر الوصيد
الخارجي وحائط الوصيد الجنوبي



(شكل 4) تمثال الملك "زوسر" من الجرداب



(شكل 5) نصب يبين الملك



(شكل 6) أواني من المرمر



(شكل 7) أوانى من الديوريت

ولأن الهرم الجديد الذي كشفت عنه ينتمي إلى نفس الطراز الذي ينتمي إليه هرم زوسر، وغالبا قد يكون واحدا من أسرة ذلك الملك هو الذي ابتناه، فإني سأخصص بقية هذا الفصل لشرح كيف اخترع هذا الطراز من الآثار والمرمى الذي كان يهدف إليه.

منذ الأزمنة الأولى، وجه القدماء المصريين عناية عظيمة لصلاح حال موتاهم في الحياة الآخرة. ولقد سمعنا كلنا عن عادة التحنيط المصري، ولكن قبل أن يعرفوا فن تحنيط موتهم بزمن كانت أجساد العظماء تدفن في عناية قصوى. وكانت تحاط بالأثاث وأدوات الزينات والأسلحة والطعام وغير ذلك من الأشياء التي كان يذهب اعتقادهم إلى أن الحاجة ستمس إليها في الحياة التي تلي الرمس.

وعلى هذا، لم يكن الدين المصري للأحياء فحسب، ولكن للأموات أيضا. كان يعتقد أن الإنسان يعيش بعد الموت بنفس الطريقة التي يحيا بها على الأرض.. ولضمان هذا كان من الجوهري أن يحفظ الجسم من البلى. وكذلك كان يجب على الميت أن يكون عليما بالشعائر التي يلزم مراعاتها عندما يخاطب الآلهة والأرواح في العالم السفلي. وهذه الاتجاهات، هي التي أدت إلى قيام الفن المعماري الجنازي: أبنية تضمن صيانة الجسد ومعداته الجنازية، مما يحدثه الطقس من تحليل، ومن سرقة. وعلى هذا كانت غرفة الدفن تحفر تحت الأرض ويوغلون في تعميقها وافتنوا أفانين ماكرة لوصد مدخلها ومجازاتها. وكذلك حتى يتيسر لذوي القربى والكهنة الجنازيين القيام بالعبادة الجنازية، خصص مكان للقرابين يستدنى على قدر الإمكان من

اللوح أو الباب الوهمي الذي يتيح لكا أو قرين الميت أن يأخذ نصيبه من هذه القرابين.

ولقد ذكرت قبور ملوك الأسرة الأولى العظيمة المشيدة باللبن التي كانت تضم غرفة وسطى فسيحة تحيط بها عرف أصغر حجما، وبعد ذلك أخلى هذا الطراز من القبر المكان لطراز آخر، أصبحت فيه غرفة الدفن وما جوارها من غرف، تنحت في الصخر وتؤدي إليها بئر عميقة، وكان ذلك القسم من القبر الذي يقع فوق الأرض يتكون من بناء مستطيل شيد باللبن في العادة، وفيما بعد بالحجر، ويحوي غرفة صغيرة تكتنفها الحيطان تسمى السرداب، تضم تمثالا للميت يطلق عليه تمثال الكا. ويخال أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن كل الميت وقد تعرفت تمثاله الذي كان شبيها بالميت عندما كان حيا، تستطيع أن تسكنه، وأن تتقبل قرابين الطعام التي كانت تقدم خارج القبر أو في غرفة مجاورة، وقد هييء "باب وهمي" يمكن تجتازه الروح لتتناول القرابين.

إننا نطلق على هذه القبور لفظ (مصاطب) وهي كلمة عامية معناها الدكة [12] لأنه تشبه الدكك من الطين المجفف التي يشاهدها المرء كثيرا خارج بيوت الفلاحين المصريين.

ولقد استهل هرم زوسر المدرج حياته كمصطبة بسيطة من الحجر، وتوجد خمس مراحل لنموه. شيد مهندس الملك المعماري في البداية، مصطبة عظيمة، لا تفترق عن قبر شبيه لها ابتناه زوسر في بيت خلاف في

([12]) الدكة بالفتح والدكان الذي يقعد عليه وناس يجعلون النون أصلية. (مختار الصحاح)

مصر العليا، ولكن بينما كان هذا مستطيل الشكل ومبنياً باللبن فإن مصطبة سقارة كانت مربعة ومشيدة بكتل الحجر. وخلال حكم الملك امتد البناء في جوانبه الأربعة، ولكن لما كان الامتداد على مستوى أوطأ فقد تكون درج [13].

ومرة أخرى أبدل المهندس المعماري التصميم وجعله مستطيلا، ولكن ومع هذا كان لا يزال هو أو سيده غير راض. وللمرة الرابعة وسع رقعة البناء، ثم فعل شيئا لم يأت بمثله أي بناء قبر من قبل، فقد أقام على قمة المصطبة، المسطحة العظيمة الأصلية سلسلة من ثلاث أخريات كل منها أصغر حجماً من تلك التي تقع أسفلها. وبهذا تم خلق أول هرم مدرج، أبو أهرام مصر كلها. وقد اغتبط الملك بهذا، فيما يظهر، فاجتمع رأيه على أن يمعن في تكبير جرمه وزاد القاعدة توسيعاً، إلى أن بلغت أبعادها حوالي **123** في **115** متراً. وعلى ذروة هذه ابتني الطبقة الأخيرة، فأصبح الأثر مكوناً من مدرجات ستة بعضها فوق بعض كساها الحجر الجيري الأملس الذي جلب من محاجر تلال طرة والمعصرة الواقعة على الجانب المقابل من النهر. وهذا الأثر دون تكسية الحجر الجيري التي زالت في أزمنة متأخرة، هو البناء الذي نراه اليوم. ويجب ألا يغيب عن البال أن تصميم البناء مستطيل، وليس مربعا كما كانت حال الأهرام التي جاءت بعد ذلك.

ولكن الهرم كان فقط الوحدة الرئيسية في مركب ضخم من الأبنية

([13]) إنه لأمر مهم أن نذكر أن هذه المقابر بنيت في غضون حياة أصحابها وليس بعدها.

الحجرية. في الأزمنة السالفة كان يحيط بقبور الملوك في المعتاد سور تقدم داخله القرابين لروح الملك المتوفى. ولكن (إيمحوتب) سار أبعد تقدم داخله القرابين لروح الملك المتوفى. ولكن (إيمحوتب) سار أبعد كثيرا من هذا. لقد أحاط هرمه المدرج بسور هائل يكتنف رقعة تبلغ مساحتها **15** هكتاراً (**544** في **277** متراً)، تزيد مائة ضعف على مساحة قبر نقادة العظيم المبني باللبن، وهو الذي ينسب إلى مينا منذ عهد بعيد. وفي داخل هذا السور ابتنى عددا من الأبنية الحجرية غشاها أيضاً بتكسية من الحجر الجيري الأملس – لا يعرف لها ضريب في أي مكان آخر في مصر. ويظهر أن بعضها كان يرتبط بما يسمى عيد السد، الذي يرجع إلى زمن عتيق جداً. في الأزمنة الأولى ربما كان الملوك الأقدمون يجري عليهم حكم الموت بعد أن يكونوا قد أمضوا في الحكم عددا من السنين، محدودا. وهذا يوافق عادات مماثلة لا تزال قائمة بين القبائل البدائية. فعلى نشاط الملك كان يتوقف خصب الأرض ورخاء مصر والشعب الذي يتولى زمام حكمه. وعندما تسير القراءة بمضي السنين، كان الملك يقتل في احتفال رسمي ويحتل ملك جديد مكانه. وربما كان يقع هذا، بعد أن يكون الملك قد اعتلى العرش ثلاثين عاماً.

وبازدهار المدنية، أقلع عن هذه العادة، وفضلوا عليها احتفالا هو مزيج من الدين والسحر، فيه كانت تتجدد الملكية بنوع من الشعائر. ولا يعرف إلا اليسير عن تفاصيل هذا الاحتفال، ولكن يخال أن شطراً منه كان يتألف من قربان يقدم لآلهة مملكتي الشمال والجنوب، يعقبه إعادة تتويج الملك. ويوجد أيضا نقش طريف على حيطان أحد الدهاليز الواقعة تحت

الأرض، أسفل وصيد الهرم يتجلى فيه الملك زوسر، يعتقد على رأسه التاج المزدوج، وهو يجري. وقد ذهبوا إلى أن شطراً من الاحتفال ربما كان يشتمل على جرية سريعة فرضية يؤديها الملك ليبلوا حيويته.

والمظهر المسوق للأبنية التي تحيط بوصيد الهرم المدرج هو أنها كانت فيما يرجع أبنية صورية، يستخدمها الملك فيما يتصل بصالح أمره في الحياة الآخرة. وعلى هذا فمن الجائز أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن هذه الضرورة لإعادة التجديد وإعادة الشعائر في أزمنة موقوفة ستحدث حتى بعد أن يكون الملك قد وافاه الأجل – دورات لا نهاية لها من الموت والبعث من جديد.

وعلى كل حال، فمن أن نظريات كثيرة قد عرضت لشرح الغرض من هذه الاحتفال اليوبيلي، فإن الحقائق التي لدينا نزر يسير، وينسحب هذا على عادات المصريين الجنازية في هذه الفترة السحيقة في القدم، وهي فجر تاريخ الأسرات المصرية، فمثلا تقوم الحقيقة العجيبة وهي أن ملوكا كثيرين في هذه الحقبة الباكرة ابتنوا أكثر من قبر، فقد بنى زوسر بالإضافة إلى معرفة المدرج مصطبة عظيمة أخرى تحمل اسمه في سقارة. ولقد أتم سنفرو أول ملك في الأسرة الرابعة هرما في ميدوم ربما بدا سلفه موتى، ولكن يوجد هرمان عظيمان في دهشور يحملان اسمه أيضا، ويمكن أن نستغرق أمثلة أخرى. وفي الواقع يزخر كل التاريخ هذه الحقبة البعيدة بغوامض لم يرفع عنها الحجاب ولا يعرف عنه إلا أقل القليل بالموازنة مثلا بالأسرة الثامنة عشرة وزمن توت عنخ آمون. وهذا أحد الأسباب التي

اجتذبتني إليه وهو السبب في أن كشفاً لهرم جديد يرجع إلى هذه الحقبة استرعى الكثير من اهتمام علماء الآثار المصرية.

ولنعد إلى هرم زوسر المدرج: إن غرفة دفن الملك لم تكن بالفعل تقع في صميم بناء الهرم نفسه ولكنها نحتت في الصخر أسفله. وقد حفر إيمحوتب حفرة مربعة مساحتها متران مربعان تقريبا وعمقها حوالي سبعة وعشرين مترا، وفي قرارها بنيت غرفة دفن من كتل من حجر جرانيت أسوان (من مصر العليا)، وفي سقف هذه الغرفة صنع طبقا لإدخال المومياء. وبعد ذلك أحكم وصاد هذا الطاق بسداد من الجرانيت عظيم الحجم يزن ثلاثة أطنان ونصف طن. وكان مدخل هذه الحفرة بقع على مسافة بعيدة إلى الشمال وراء الحدود الخارجية للهرم نفسه، وهو يبدأ في خندق قليل الغور ثم يغوص تحت الأرض ليبرز في الحفرة، وبعد ذلك ملئ بالركام كما ملئت الحفة ذاتها. فوق السقف الجرانيتي لغرفة الدفن. ولكن ما الحفرة الوسطى العظيمة إلا نواة تيه من دهاليز تحت الأرض تتشعب منها إلى الشرق والجنوب والغرب. وكان يغطي جدران بعض هذه الدهاليز بلاط من القاحان الأزرق يحاكي حصرا من القلب ربما كانت، على ما يرجح ، تستخدم كحيطان فاصلة في قصر الملك وهذه الدهاليز بما فيها من التواءات وتفرعات تبعث على الحيرة، تصنع أخاديد في الصخر كأنها جحور أرانب وهي تؤدي إلى مخازن كثيرة عثر فيها على آلاف الجرار والأطباق المصنوعة من الحجر وبعضها من المرمر والكثير منها من حجر السماق الإمبراطوري (البورفير)، على قدر عظيم من حسن الصنعة. ويحمل بعضها اسم زوسر والبعض أسماء أسلافه. ولم تكن الثروة في مصر

القديمة تقوم بالنقود لأن النقد لم يكن معروفا ولكن بصنوف السلع – بالحنطة والزيت وغيرها من المؤن إلى جانب الذهب والأحجار شبه الكريمة ولقد توارت هذه إذ نهبنا لصوص المقابر منذ آلاف السنين ولكن هذه المجموعة الهائلة من الأواني الحجرية تنطق بأفصح عبارة شاهدة بما كان عليه الملك من صولة، وهو الذي كان يهيمن على موارد مصر الموحدة.

وفي محاذاة الجانب الشرقي للمصطبة الأولى التي بناها إيمحوتب حفر عددا من الآبار يبلغ عمقها ثلاثين متراً ونيفا ينتهي كل بئر منها بدهليز أفقي طويل يسير من الشرق إلى الغرب. ومن الواضح، كان الغرض منها أن تكون لمقابر الملكة وغيرها من أفراد الأسرة الملكية ومستودعاً للأثاث الجنازي. ولقد عثر داخل بعضها، المنقبات فرث (**Firth**) وكوبيل (**Quibell**) على توابيت من المرمر وقواعد كان يستقر عليها بعضها. ولكن هذه كلها كانت قد سرقت.

وسرعان ما وجد لزاما أن تدمج هذه الدهاليز الشرقية تحت بناء الهرم الأصلي، ويظهر أن هذا كان السبب في مد المصطبة، صوب الشرقي وحتى هذا الوقت لم يكن البناء الذي كان منخفضا نسبياً ليرى وراء السور الخارجي، الذي كان يبلغ ارتفاعه حوالي عشرة أمتار وكان حينذاك، على ما يظهر، أن عبقرية خيال إيمحوتب حفزته على رفع البناء في سلسلة من الدرج أو المدرجات، تختلف الواحد عن الأخرى، وإذا نظرت من بعيد ترى مشرفة على المنظر البري كما كان زوسر، يشرف على مملكته في الحياة.

وعند هذه المرحلة، يكون من المجدي أن نمعن النظر في بعض النظريات التي قدمت لتبيان سبب الشكل الهرمي لهذه القبور الضخام. ولماذا وقع الاختيار على مثل هذه الشكل؟ هل حدث مصادفة خلال خطوات التطور من (مصطبة) إلى هرم مدرج؟ أو هل كان هناك ثم مغزى ديني في الشكل الهرمي؟

لقد ذكرت طائفة من الآراء التي تنم على فطانة. وعلى سبيل المثال ذلك العالم الأمريكي العظيم الأستاذ ج. هـ. برستد الذي ذكر:

" كان لشكل قبر الملك الهرمي مغزى مقدس له أكبر شأن. إن الملك كان يثوي تحت رمز إله الشمس نفسه الذي كان يقوم في قدس أقداس معبد الشمس في هليوبوليس (عين شمس)، وهو رمز تجلى، منذ اليوم الذي خلق فيه الآلهة، في شكل طائر العنقاء (فينكس)، وعندما ارتفع الهرم – في مقاييس أقرب للجبال – فوق قبر الملك مشرفا على المدينة الملكية وما والاها من الوادي لكيلومترات كثيرة، فإنه كان أعلى شيء في البلاد يرسل التحية إلى غلة الشمس، وكانت أشعة الصبح تلتمع في ذروته المضيئة زمنا طويلا قبل أن تبدد الظلال التي تخيم على مساكن الآدميين، الأقل رتبة أسفله [14] ".

إنه لتصور خيالي رفيع، ولكن هل هو حق؟

إذا كان الهرم كما يذهب إليه برستيد مثالا انتسخ من رمز ديني لإله

([14]) ج. هـ. يرسد **J.H. Breasted** تطور الدين والفكر في مصر القديمة صفحة 73 **The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt**

الشمس محفوظ في المعبد فيستتبع هذا أن ذلك الرمز كان له أيضا شكل هرمي.

إن السيد ج. أ. س إدواردز في كتابة الممتاز (أهرام مصر) يضيف خاطراً شيقاً:

إن مشهدًا رائعًا يمكن أحيانًا أن يرى في أصيل يوم من أيام الشتاء، غائم، في الجيزة. فعندما يقف المرء على الطريق إلى سقارة ويشخص صوب الغرب نحو هضبة الأهرام، يستطيع أن يرى أشعة الشمس تنفذ هبوطا من خلال ثغرة في السحاب في زاوية تعدل على التقريب الزاوية التي يضعها انحدار سفح الهرم الأكبر. وإن الأثر الذي يتركه المشهد في العقل هو أن الأصل غير المادي وصنوه المادي قد نسقا هنا جنبًا إلى جنب [15] ".

ويشير إدواردز أيضًا إلى فقرات جاءت في نصوص الأهرام، التي وجدت مكتوبة في دهاليز وغرف أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة توحي بأن الهرم ربما كان يعتبر سلمًا إلى السماء، فعلى سبيل المثال، تقول التعويذة 508 ما يأتي.

"لقد وطأت أشعتك تلك كمخدر تحت قدمي، أرقى فيه إلى أمي، تلك الأفعى المقدسة [16] الحية، على جبين رع".

وتوجد تعويذة أخرى رقم 523 تقول:

([15]) ج . أ. س . إدواردز أهرام مصر لندن 1954 ص 234

J. E. S. Edwards, ' The Pyramids of Egypt, London 1954 P.234

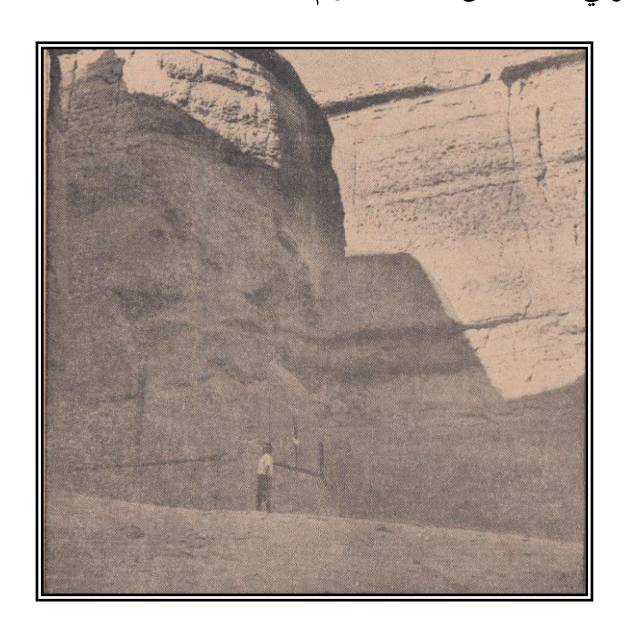
([16]) رمز الثعبان معناه بسط على مصر السفلي.

"لقد قوت السماء أشعة الشمس لأجلك، حتى يمكن أن ترفع نفسك إلى السماء كعين رع".

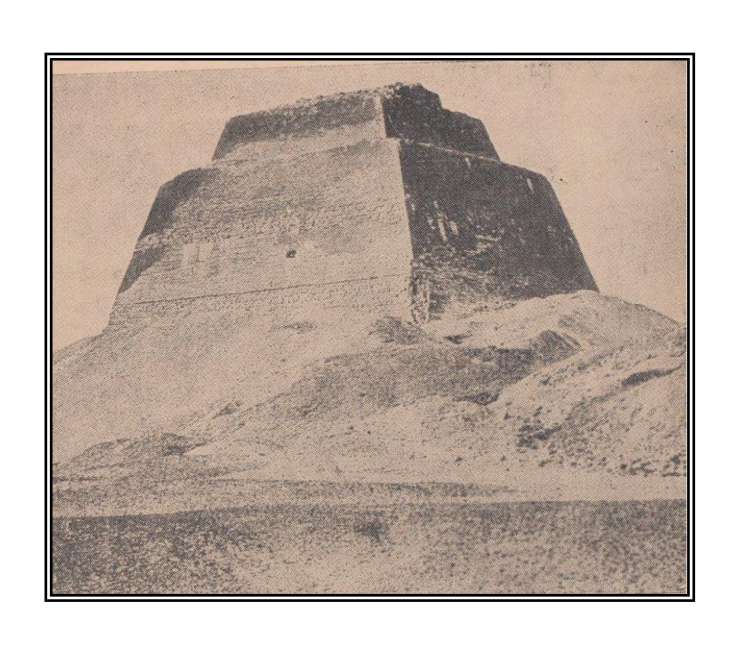
ولكن هل تعني هذه النصوص في الواقع أن الهرم كان يعتبر سلما ماديا إلى السماء؟ لا أرى هذا الرأي، ويدور في خلدي أن نصوص الأهرام تشير إلى سلم غير مادي وصحب مثل سحائب البحر والغبار إلخ. وربما كان يرمي زوسر من بناء هرمه المدرج، فقط إلى إقامة أثر يكون أعلى من تلك الآثار التي أقامها أسلافه، يرمز إلى "التل الأول"، ذلك المرتفع الذي برز فوق المياه الأزلية في بداية الخليقة. وعلى أية حال، كما سترى فيما بعد، كان الهرم المدرج شكلاً عارضاً فقط حسب، ومع الزمن أحلى مكانه للهرم الحقيقي الذي ظل النموذج المحتذى طوال الزمن الذي كانت تقام فيه أبناء من هذا الطراز في مصر.

وبعد ألفي سنة من بناء الهرم المدرج، كان الفراعنة يحكمون من سايس في الدلتا. ويظهر أنه قامت نهضة من نوع ما؛ أيقظت فيها آثار الدولة القديمة – التي أهملت ونهبت طوال قرون – اهتمامًا جديداً. وقد أظهر بعضها ورمم، واستنسخ الفن القديم وحوكي في دقة. وكان في غصون هذه الحقبة، أن الصاويين حولوا اهتمامهم إلى هرم زوسر. ولما لم تواتهم القدرة على اجتياز المدخل الأصلي الذي يقع إلى الشمال، أو لأنهم كانوا صادقين عن ذلك، فقد أنشأوا دهليزا جديداً تحت البناء من الجنوب. وأخيراً عثروا على الحفرة العظيمة وأفرغوها حتى مستوى سقف غرفة الدفن ومن هذا الدهليز الحديث نسبياً – إذ مرت عليه 2700 سنة فقط – يلج الزائر في زمننا الحاضر الهرم ليشاهد الحفرة وسقف الغرفة.

وتنقل خطاك هبوطا في هذا الدهليز الطويل المنحدر المعتم إلى أن تصل إلى منتهاه فجأة، وهناك إلى غور بعيد أسفلك، تفغر الحفرة الوسطى العظيمة فوهتها. وفوق الشقف القائم، مأوى الخفافيش، يستقر جرم الهرم العظيم. (ونحتك)، في قرار الحفرة يطالعك الثقب في سقف غرفة الدفن الجرانيتي يضيئه من أسفل مصباح مستخف. وإلى جانبه يستقر السداد الجرانيتي. ولكن الغرفة خاوية، ويكاد يكون أمراً محققاً أنها سرقت عندما عثر عليها الصاوريون منذ ثلاثة آلاف سنة خلت. ولقد وجد فرث، عندما دخل الغرفة، عظم ساق آدمي فقط، ربما كان كل ما تبقى من الملك العظيم. وكتب سير توماس براون: **Sir Thomas Browne** "البقاء الهرمي خدعة من حيث الدوام".



(شكل 8) الحفرة المنحوتة في الصخر في زاوية العريان



(شكل 9) هرم سنفرو في ميدوم

وفي الخارج، في الجانب الشمالي من الهرم، توجد الغرفة التي تكتنفها الجدران – السرداب – حيث وجد فرث التمثال الجالس لزوسر، الموجود الآن في متحف آثار القاهرة. وقد وضع مكانه نموذج منه، ولا تزال العينان الحجريتان متطلعتان من خلال ثقبين ضيقين وكأنهما تنتظران القرابين التي كان يحضرها الكهنة منذ ما يقرب من خمسة آلاف سنة. وكذلك توجد داخل الوصيد الذي يكتنفه السور بقايا أبنية أعيد إقامة بعضها جزئيا، كان الفرض منها أن يستخدمها "كا" الملك في حياة ما وراء القبر. ويظهر أنه في احتفال عيد السد كانت تتألف شخصية الملك بشخصية أوزوريس إله الموتى الآدمي قبض ثم أعيد إلى الحياة ليعيش للأبد، وبالطريقة عينها، كان الملك المؤله يتوقع أن حياته ستتجدد على الدوام. وأثره المقام بالحجر

الجيري اللامع وهو يرتفع عاليا فوق السور يكون على الدوام مذكراً لشعبة أن ملكهم وهو الآن إله، يحكم إلى الأبد.

ولقد وصفت هرم زوسر في شيء من الاستقامة لأنه إذا ما ألم القارئون بتاريخه وبنائه فإنهم سيكونون في مجال أفضل لتقدير مغزى الهرم الذي كشف عنه حديثا والذي ابتناه واحد من خلف الملك العظيم. وتوجد ثمة مظاهر معمارية حقيقة بأن تقصها الذاكرة لأن لها ارتباطاً مباشراً بالقصة التي ستجيئ.

أولا: يوجد ما يطلق عليه قبر زوسر الجنوبي الذي بعث الحيرة عند كثير من علماء الآثار المصرية ولا يزال يعتبر شيئاً غامضاً. فتحت حائط الوصيد الجنوبي، توجد بئر عميقة تنحدر هابطة في الصخر وتؤدي إلى قبر ثان لا يختلف عن القبر الواقع أسفل الهرم نفسه. ويتكون من حفرة عظيمة مسطحها حوالي مترين مربعين وعمقها قرابة سبعة وعشرين مترا أي نفس اتساع وعمق القبر الذي يقع تحت الهرم. وكذلك على غرار قبر الهرم توجد غرفة من الجرانيت في قراره ولكنها أصغر من غرفة الهرم، ومن الصغر بحيث لا يتأتى أنها كانت تحوي جثمانا. ومعه هذا فإن اسم الملك يظهر على جدران الدهاليز وكذلك بعض النقوش البارزة التي نحتت دقيقا تصوره يشترك في احتفالات عيد السد. وفي هذه الدهاليز، كما في مثيلاتها التي تقع أسفل الهرم تكسو أجزاء من الجدران رقائق القشاني الأزرق التي تحاكي حصر الغاب.

لماذا ابتني القبر الثاني، إذا كان في الواقع قبراً؟ لقد رأى بعض علماء

الآثار أن القصد منه ربما كان أن يحوي الأواني الكانوبية، وهي الأواني المقدسة الأربعة التي تودع فيها أحشاء الملك، بعد نزعها في أثناء عملية التحنيط. ولكن لم يعثر على مثل هذه الأواني، وعلى ذلك فلا يقوم دليل لإثبات أو نفي هذه النظرية. ولكن يوجد احتمال آخر أوحت به إلى كشوف في الهرم الجديد وسأشرحه في فصل قادم.

ثم توجد مجموعة الأبنية الرائعة داخل السور الخارجي، وهي أبنية تساعدنا على أن نرى البداية الأولى عينها لفن البناء الحجري. هناك توجد ساحة لعيد السد التي سبق أن نوهت عنها، وهي فناء مستطيل يقع إلى الجنوب الشرقي للهرم وفيه بقايا مصلات، لكل مصلى، باب رمزي مفتوح يؤدي إلى غرفة قرابين صغيرة، وفي الجانب الجنوبي من ساحة عيد السد درجان يؤديان إلى منصة كبيرة من الحجر، ربما قصد منها أنها تكون دعامة لما يمثل عرشي مصر العليا ومصر السفلى.

ويوجد إلى الجنوب من هذه الساحة بهو الدخول ذو الأعمدة ويؤدي إليه مدخل برجي يبرز من السور الخارجي. وبهو العمد هذا طويل ضيق يحفه صفان من الأعمدة القنوية [17] الملتحمة التي رممت أجزاؤها العليا مع السقف في السنوات الأخيرة، والأعمدة تتخذ شكل حزمة حوكى فيه، على ما يظهر، العمد الخشبية وهي بدورها ربما كانت قد استنسخت من دعامة صنعت من سوق الغاب أحكم حزمة، وهنا أيضا،

---

(17) قنوية: منسوبة إلى القنو، وهو يطابق اللفظ **Cannoluro** وإطلاق لفظ مضلعة على الأساطيل (الدورية **Doric**) ليس بشيء (المترجم).

نجد في كل من طرفي بهو العمد أبوابها وهمية من الحجر تحاكي في صناعتها الأبواب من الخشب. وقد نقلوا إلى الحجر في محاكاتهم كل التفصيلات في أمانة، حتى إنهم أبرزا نهايات العوارض التي كانت تثبت فيها الألواح الخشبية. وهنا ينهض دليل، إذا لم يكن قد قام دليل إلى الآن، على أن هذه أول محاولة للإنسان للبناء بالحجر في وقت لم تكن نواميس البناء بالحجر قد فرضت نفسها بعد، وعلى ذلك حوكيت الأشكال السابقة في شيء يشبه العبودية.

ويوجد الكثير من الأبنية غير هذه، داخل السور لا أنتوي وصفها هنا، حيث إن القارئين الذين يحدوهم اهتمام في مكنتهم أن يجدوا التفاصيل الوافية في كل مؤلفات فرث وكوبيل ولوير وغيرهم من الثقاة [18] وإني أذكر هذه الأمثلة لمجرد أن لها اتصالا مباشرا بالكشوف الحديثة. وبالإضافة يوجد مظهران آخران لزوسر أرغب في توجيه النظر إليهما:

أولا: يوجد السور العظيم الذي كان ارتفاعه في الأصل تسعة أمتار ونيف، وتزينه دعامات وله أجزاء بارزة وغائرة يحاكي في ذلك البناء من اللبن فيما سبق من الزمان. وكانت النواة من الركام ولكنها غلقت بكتل أحكم اقتطاعها، من الحجر الجيري الأبيض الأملس، على شاكلة الهرم نفسه. وكثيرا ما يعجب الناس بدقة فواصل السطح الخارجي لهذه الأحجار، ولكن في الواقع لا يكون هذا إلا في السطح. وإنها لتختلف عن

[18] انظر س . م. فرث **C.M.Furth** ، ج. ل. كوبيل **J.E. Quibell** الهرم المدرج القاهرة **1935 The Step Pyramid**.

كتل الأحجار التي تفوقها كثيراً في الحجم والتي استخدمت في تكسية الأهرام التي أقيمت بعد ذلك، إذ أن الفواصل لم تهذب سطوحها في دقة بطول عمقها. وربما كان هذا السور العظيم الذي كان له منظر رائع وهو في ارتفاعه التام، يحاكي جدران ممفيس البيض، التي جاء ذكرها في النصوص القديمة. ويتناثر على غير انتظام بين الدعامات ما هو محاكاة لأربع عشرة بوابة مزدوجة.

والصفة الثانية التي تميزت بها الهندسة المعمارية والتي يجب أن تعيها الذاكرة هي البناء الداخلي للهرم المدرج نفسه. لقد شيد من أغطية من البناء مستقلة، تميل إلى الداخل في زاوية يبلغ مقدارها **74** درجة وترتكز على نواة وسطى من الركام. وقد فعلوا ذلك لتتحقق للبناء المتانة. وفي الواقع أقيمت كل الأهرام حتى الأهرام الحقيقية كهرم (خوفو) وهرم (خفرع) وغيرهما من الملوك اللاحقين لهما، على هذا النسق. ومع هذا يوجد فارق بين الأغطية أو الطبقات في الأهرام المدرجة الأولى، ونظيراتها فيما بعد.. وفي هرم مدرج تبنى طبقات الحجر بحيث تصنع زاوية قائمة مع خطوط الواجهة أي من زاوية الميل التي ترتكز فيها الطبقات من الأبنية على النواة الوسطى، ولأن الأهرام اللاحقة التي ندعوها أهراما حقيقية كانت تهيأ بها جوانب مستقيمة، فإن الطبقات كانت تبنى في وضع أفقي.

والأهرام المدرجة من خواص الأسرة الثالثة، وتوجد أبنية مماثلة، ولو أن ما أصابها من دمار يربو كثيراً على ما لحق منه بهرم زوسر في زاوية العريان بين الجيزة وسقارة، وفي ميدوم حيث شرع أحد الملوك، وربما كان

حوتي، في إقامة بناء مدرج اسمه بعد ذلك سنفرو كهرم حقيقي، وفي سيلا في الفيوم، وفي زاوية الميتين في مصر الوسطى وفي نبط وفي كولا وكلاهما في مصر العليا.

الفصل الثاني

ملوك الأسرة الثالثة

في التاسع من شهر مارس عام **1951** نقلت من الأقصر – وكنت أضطلع فيها بوظيفة كبير مفتشي آثار الوجه القبلي وأمين جبانة طيبة – إلى سقارة التي بدأت فيها حياتي العملية في الآثار سنة **1937**.

وفي ذلك الوقت، كنت مساعد أثري وعملت ردحا من الزمن في الطريق الصاعد لهرم أوناس وهو أحد ملوك الأسرة الخامسة، ويقوم هرمه غير بعيد من هرم زوسر، أما في هذه المرة فقد تقلدت وظيفة كبير مفتشي الآثار في سقارة. المسئول عن حفظ كل آثار المنطقة وصيانتها، وكنت مغتبطاً بنقلي إلى سقارة لسبب خاص.

لقد استبدت بي مدة طويلة حيرة، مرجعها إلى الحقيقة الواقعة، وهي أن الأسرة الثالثة ولو أنها كانت إحدى الأسرات المهمة في تاريخ مصر في الوقت الذي أصبحت فيه مصر مملكة موحدة تحكم من ممفيس – إلا أنه لم يعرف إلا اليسير عن ملوك الأسرة الثالثة فيما عدا زوسر. ونذكر عرضاً أن هذا كان صيغة متأخرة لاسمه، ولم تستعمل إلا بعد أن قضي، وليس قبل الأسرة الثانية عشرة (**1990 – 1777** ق.م) ويشار إليه على الآثار

المعاصرة باسم حو (حوريس) – نثري – إر – خت [19] وربما كان ابن وخلف خاسخموي، آخر ملوك الأسرة الثانية. ولقد وصل التقدم في غضون حكمه حدا يقسر فيه أن يعالج المرء ريبا في أن ارتقاءه العرش ميز بداية عد جديد في تاريخ مصر، وكان، لسبب معقول، أن عده مانيثون مؤسس أسرة جديدة – الأسرة الثالثة.

وكان له قبر أقدم – أو ربما قبر رمزي – على شكل "مصطبة" من اللبن في بيت خلاف، ولكن من المحقق، على ما يخال، أنه دفن أسفل هرمه المدرج في سقارة. وبمعاونة عدد من الرجال المبرزين، الذين كان أبعدهم ذكراً مهندسه المعماري إيمحتب، الذي لم يستطع توثيق عرى المملكة المتحدة الناشئة فحسب، بل نفث فيها قوة جديدة محركة أتاحت للمدينة المصرية الازدهار من جديد. وتبين آثار حكمه التي وصلت إلينا، تغيرات أساسية في الفنون، كان لا يمكن تحقيقها إلا بجلائل الأعمال المستحدثة في العلم. وأهم مثال، بطبيعة الحال، هو مجموعة الآثار العظيمة في سقارة التي يخال للمرء أنها هبت على حين غرة إلى الوجود بفن معماري بلغ شأوا عظيما من الرقي وليس له شبيه سابق في أي صقيع في العالم. ومع هذا كان يوجد ملوك من الأسرة الثالثة آخرون بعد زوسر فماذا كانت أعمالهم الجليلة وأين كانت آثارهم؟

وبهذه الأفكار تدور في خاطري، كنت أجد السعي في صباح يوم مشمس من شهر سبتمبر سنة 1951 من ساحة إلى ساحة في وصيد هرم

([19]) يقرأه بعض العلماء حث – لنرى، ومعناه الجسم الإلهي (المترجم).

زوسر المدرج، وكان الهرم يطل من فوقي، عندما استدرت إلى الجانب الغربي من البناء وجلست مستغرقاً في التفكير وأنا أتفيأ ظلاله. وجال في حدسي هل يمكن أن ذكرى هذا الملك العظيم قد حجبت ذكرى خلفه بنفس الطريقة التي حجب بها هرمه الآثار الأخرى، الأقل مأمنا في المنطقة؟ ونقل من المرجح أن يكون ملوك آخرون غيره، من تلك الأسرة قد دفنوا أيضا ولكن قبورهم ليست منذ أمد بعيد؟

واستذكرت أسماء خلفاء زوسر. إن المتعارف عليه هو أن أربعة ملوك خلفوه[20] ولو أن قائمة مانيثون ليست بالضرورة كاملة، وهؤلاء الملوك وهم ليسوا أكثر من أسماء، وهم:

(**1**) زا – نخت (نب –كا)

(**2**) خع – با (ثيتي أ)

(**3**) نفر –كا (نب –كا – رع)

(**4**) حو (حوني)

ومن بين هؤلاء الملوك المعروفين، يظهر اسم سا – نخت في مصطبة من اللبن في بيت خلاف. وقد يكون خع – با هو الذي بنى ما يطلق عليه الهرم الطبقي في زاوية العريان، بين سقارة والجيزة. وربما كان نفر كا هو الذي حفر البناء السفلي غير التام في نفس المنطقة. وحوني هو الذي بدأ إقامة الهرم العظيم في ميدوم الذي كثيراً ما ينسب إلى سنفرو والذي أتمه.

([20]) مه بورخارد **Borchardt** سبعة **"Konigsnamen"** وأمضى جوتيه **"Gouthior"** تسعة ملوك في الأسرة الثالثة – **"Lo Livro Roio "** المترجم

ووجود "ربما" و"قد يكون" يدل على غموض علمنا بهذه الفترة وإنه ليختلف اختلافا بيناً عن علمنا بالدولة الحديثة التي يمكننا فيها أن ننسب في ثقة قيوداً أو آثاراً من أمثال أمنوفيس الثالث ورمسيس الثاني والثالث ومر نفتاح وهكذا. ويرجع سبب هذا الغموض بصفة جزئية، إلى أن الأهرام الباكرة جدا – غير ما كنت عليه الحال في آثار الحقب التالية – لم يكن ينقش عليها في الغالب، أسماء أصحابها. وحيث توجد مثل هذه الأسماء، فإنها تكون مكتوبة بالطلاء دون عناية، على كتل الأبنية. وكذلك اعتاد هؤلاء الملوك إقامة آثار كثيرة في مختلف أنحاء مصر، ويزيد الأمور تعقيداً أن المصاطب التي تحمل أسماء ملوك قد تكون في الواقع مجرد قبور للعلية من الموظفين الذي كانوا يؤدون مهامهم تحت إمرة أولئك الملوك. وعلى سبيل المثال، يذهب بعض الثقاة إلى أن ما يطلق عليه مصطبة زوسر في بيت خلاف هي في الواقع مقبرة موظف من هذا الطراز. ومع هذا تبقى حقيقة واحدة مؤكدة: وهي أن الأهرام بنيت للملوك، وللملوك دون سواهم.

لنفحص أولا في إيجاز تلك الآثار التي يمكن أن ننسبها بصفة قاطعة إلى ملوك الأسرة الثالثة والتي يتبين منها نفس مناهج البناء التي تتجلي في هرم زوسر.

في زاوية العريان التي تقع على مسيرة كيلومترات قليلة من سقارة في اتجاه الجيزة بقايا عبثت بها عوامل البلى عبثاً شديداً، لهرم مدرج، ويوجد على مقربة منها المنحدر وبئر عميقة في الصخر وقصد منها فيما يظهر أن

تكون لهرم آخر لم يبين على الإطلاق، والأثر الأول الذي ينسب إلى خع با، له نواة من الحجر الجيري ترتكز عليها أربعة عشرة طبقة أو قشرة، من البناء من نفس المادة. وتقترب مساحته من 27 متراً مربعاً، ويبلغ ارتفاعه، في الوقت الحاضر 18 متراً. وقد نحتت غرفة التابوت في الصخر أسفل البناء. والوصول إليها بدرج وممر من مدخل على الجانب الشمال الشرقي. وفي خارج الهرم، في جوانبه الشمالي والشمالي الشرقي والشمال الغربي، كان يوجد دهليز منحوت في الصخر طويل فيه اثنتان وثلاثون فجوة أو مخزنا.

والأثر غير التام، في الشمال، يتكون فقط من ممر هابط طويل يزيد طوله على 90 متراً بدرج مزدوج منحوت في الصخر. وهو يبدأ بانحدار خفيف ثم يصير مستوياً وفي منتهاه يغور هابطا في زاوية تنحدر في شدة إلى أن تنفرج في بئر عظيمة لا تختلف عن تلك التي تقع أسفل هرم زوسر. وفي قرارها، كانت النية – دون شك – معقودة على بناء غرفة دفن من الجرانيت ولا تزال الكتل تستقر هناك ويحمل بعضها اسم نب كار، أو نفر كا مكتوبا بالطلاء بشكل مجمل. ويوجد أيضا تابوت بديع من الجرانيت الأحمر، يستقر حيث ترك منذ قرابة خمسة آلاف سنة خلت، ولكن البئر الكبيرة والمنحدر الواصل إليها مكشوفا إلى السماء، والهرم الذي كان يغطيهما لم يكمل أبدا [21].

([21]) من عهد قريب (1954) رفعت شركة ال أم أمريكية آلاف الأطنان من الرمل الذي كان يملأ البئر لتصوير مناظر بناء هرم، وبذلك أصبح ميسوراً رؤى كتل الجرانيت والتابوت وقتيا لأول مرة منذ أعوام كثيرة.

ويتبقى الهرم الجنوبي في ميدوم الذي استهل إنشاءه حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة[22] ويشرف هرم ميدوم على المنظر البري على مدى عدة كيلومترات حوله، وفي الواقع توجد قلة من الآثار في مصر بأجمعها أكثر تأثيراً في الروعة من هذا البناء شبيه البرج شديد الانحدار، والذي تنحرف جوانبه عن الوضع العمودي بدرجات قليلة، وهو ينهض وسط تل عال من الرمال كأنه البرج الحصين في قلعة من العصور الوسطى، ولكن ما نراه هو مجرد نواة البناء فقط، الذي كان، عندما أكمل، هرماً حقيقياً يبلغ ارتفاعه **90** متراً على التقريب وتبلغ مساحته **40** متراً مربعا بزاوية ميل مقدارها **51** درجة و**52** دقيقة. ولقد انتزعت كل التكسية الخارجية منذ قرون مضت، وكذلك معظم الجزء العلوي من طبقات التغطية الخارجية، وتركت الطبقات الداخلية فقط ظاهرة للعيان. أما البقية فيغطيها الرمل والركام. ولكن هذا التلف كان له نفع واحد، هو أن البناء، دون سواه، يوضح في أجلي بيان بنية الهرم الداخلية.

وأقام المهندس المعماري طبقات من البناء ترتكز على نواة وسطى من الركام، وكل منها تميل للداخل في زاوية تبلغ من **73 – 75** درجة وأقصى هذه الطبقة للداخل كانت أعلاها والتي أوطأ منها والتالية لهذه أوطأ منها وهكذا. وعلى هذا اتخذ البناء شكل درج يتألف من سبع أو ثماني درجات عظام ولكن بعد ذلك يخال أن الملك أو مهندس المعماري، لم يرتح لهذا، ولذا ملئت المسافات الواقعة بين الدرجات ثم كسيت بالحجر

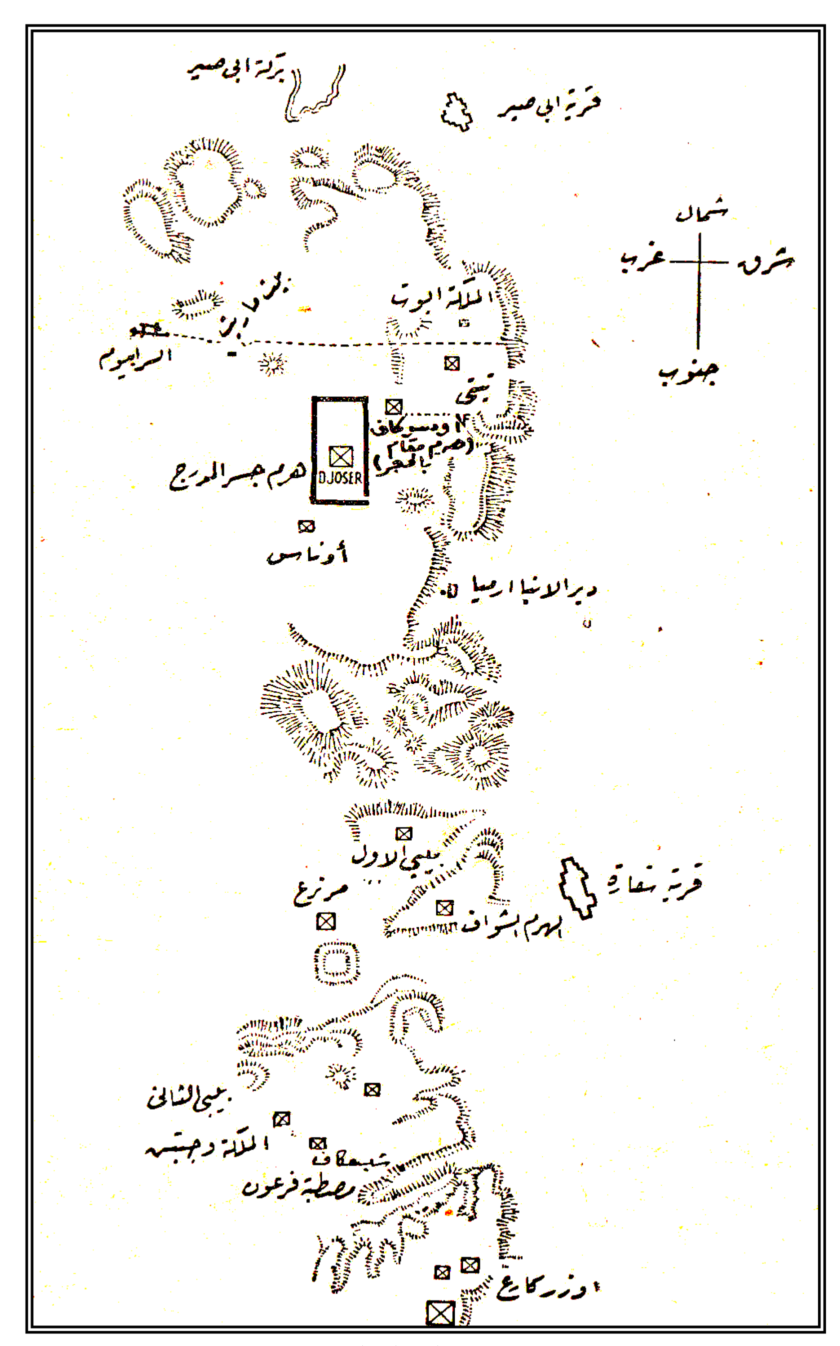
---

(22) كان يعتقد فيما غبر من الزمان أن سنفرو هو بانيه. ولكنه الآن ينسب إلى خوني وربما سنفرو أنفارهيز **The Scopro of Egypt** (**Haycs**) نيويوك **1954**.

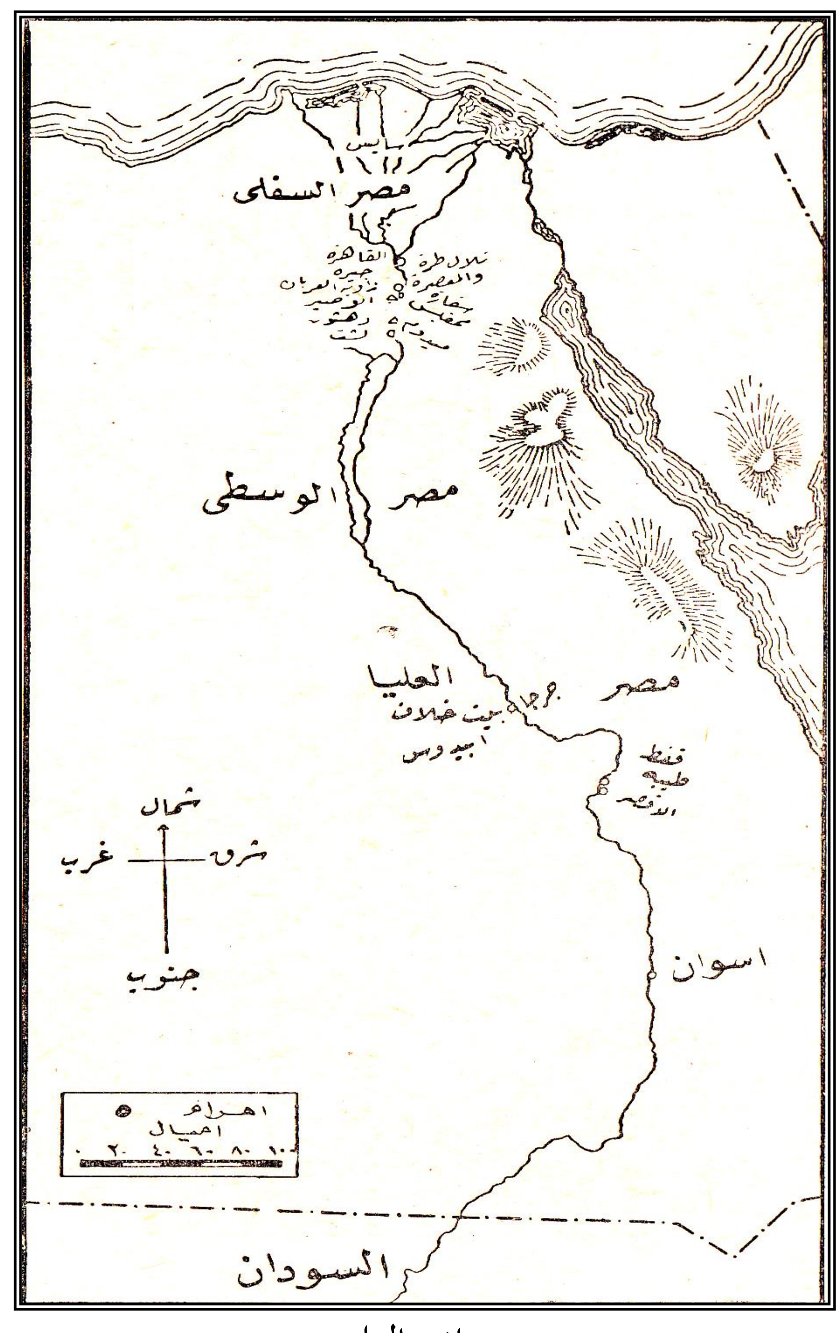
الجيري الناعم. وعلى هذا نرى في هرم ميدوم أثر آخر ملك في الأسرة الثالثة، مرحلتين في تطور الهرم وهما: (1) الهرم المدرج، و (2) الهرم الحقيقي.

ولنعد الآن إلى سقارة. ولقد بدا إلي غريباً في هذه الجبانة، وهي أعظم جبانة في ممفيس أهمية، أنه لا يوجد سوى أثر وحيد يمكن أن ينسب بصفة قاطعة إلى ملك من الأسرة الثالثة؛ أين هرم سانخت مثلا؟ وعلى كل ما وصل إلى عالمنا، قد يمكن أن يكون هناك في الأسرة الثالثة ملوك آخرون لم يأت ذكرهم في القوائم، فأجمعت رأيي على القيام بفحص دقيق للجبانة من شمال إلى جنوب ومن شرق إلى غرب.

لقد أوردنا رسما توضيحيا للجبانة على صفحة 11 وإذا حاول القارئون أن تعلق بأذهانهم معالم المنطقة الرئيسية يعاونهم هذا على فهم نسق التفكير الذي أوصلني إلى الحفر في موضع بعينه. تمتد الجبانة حول الصحراء الواقعة إلى الغرب من ممفيس قرابة ثمانية كيلومترات من الشمال إلى الجنوب، ويبلغ أعظم اتساع من الشرق إلى الغرب نحوا من كيلومترين، إنها هضبة صخرية يقرب ارتفاعها من 36 متراً وتغطيها الرمال واستخدمت للدفن منذ أوائل عهد الأسرات حتى زمن الغزو العربي في القرن السابع بعد الميلاد أي خلال أكثر من أربعة آلاف سنة، وبعد الغزو هجرت ممفيس تدريجيا عندما أسست مدينة الفسطاط الجديدة، على الجانب الآخر من النهر، على مقربة من موقع القاهرة الحالية. وقد نقلت أحجار العاصمة القديمة عبر النهر وأعيد استخدامها في بناء المدينة الجديدة.


بركة ابي صير
قرية ابي صير
شمال
غرب
شرق
جنوب
الملكة ابوت
السرابيوم
تيتي
DJOSER
هرم جسر المدرج
أوناس
دير الانبا ارميا
بيبي الاول
مرنرع
قرية سقارة
الهرم الشواف
بيبي الثاني
الملكة دجيتيه
شبسكاف
مصطبة فرعون
اوزركاف

جبانة سقارة


مصر السفلى
القاهرة
جيزة
تلال طرة والمعصرة
ميدوم
مصر الوسطى
مصر العليا
بيت خلاف
ابيدوس
قفط
طيبة
الاقصر
اسوان
شمال
شرق
غرب
جنوب
اهرام
السودان

وادي النيل

وإذا بدأنا ارتيادنا من أقصى الشمال، فإنا نجد أول ما نجد القبور العظيمة التي ترجع للأسرتين الأولى والثانية ومصطبة من اللبن ترجع إلى الأسرة الثالثة. وكذلك توجد مصاطب من اللبن ومن الحجر ترجع إلى الأسرتين الرابعة والخامسة تمتد من الشرق إلى الغرب في الشق الشمالي من الجبانة.

وعندما نسير صوب الجنوب، فإننا نصل إلى طريق تماثيل أبي الهول الذي أقامه الملك نقطانبو من الأسرة الثلاثين (**378** – **332** ق.م) والذي يسير من حافة المزارع إل السرابيوم حيث كانت تدفن عجول أبيس المقدسة طوال الزمن الذي يمتد من الأسرة الثامنة عشرة (**1555** – **1350** ق.م) حتى نهاية عهد البطالمة، وكانت توجد خارج السرابيوم نصف دائرة من تماثيل لشعراء وفلاسفة الإغريق كشف عنها عالم الآثار الفرنسي ماريبت **Maritte** في القرن الماضي. وعن كثب من هذا المكان توجد مصطبة تي العظيمة وقبور أخرى ضخمة تبعث الروعة في النفوس، لأشراف وكهنة وموظفين من الدولة القديمة.

ونحن في السير صوب الجنوب فنجد هرمي تيتي (الأسرة السادسة) وأوسركاف (الأسرة الخامسة) وكلاهما في حالة من الدمار تبعث الأسى. ثم هرم زوسر المدرج بما يتبعه من أبنية يحيط بها سور، وغير بعيد إلى الجنوب مجموعة أبنية هرم أوناس، أحد ملوك الأسرة الخامسة. وإلى الجنوب من هذه على مسافة يوجد هرم بيبي الأول (الأسرة السادسة) وجد كارع (الهرم الشواف) ومن هذا الموضع يمكنك أن ترى على بعد كيلومترات إلى

الجنوب عداً من الأهرام تحدد نجوم جبانة سقارة الجنوبية. وإنها آثار بيبي الثاني (الأسرة السادسة) وملكاته، وأهرام صغيرة أخرى. وعلى مقربة من هرم بيبي الثاني يوجد أثر غير عادي يطلق عليه اسم مصطبة فرعون. وهي ولو أنها مستطيلة الشكل، فإنها تضم في بنائها السفلي الكثير من خواص الهرم. ويعتقد بعض العلماء أن شكلها يقلد شكل تابوت هائل. لقد كانت قبر شبسكاف، آخر ملك في الأسرة الرابعة.

هذه الآثار العظيمة الباقية على الزمن، وهي ترى قاصية، عبر الصحراء، في ضوء الهاجرة الوهاج، أو من سطح منزلي عند انتصاف الليل ينتظمها الخفاء في ضوء القمر، هن رفيقي كل يوم في عملي. ولي علم بهن جميعا وهن أشبه بالقدامى من الصحب بالنسبة إلي وحتى أسماؤهن جميلة: "طاهر هو شبسكاف"باقية على الزمن أمكنة تيتي" "جميلة، أمكنة أوناس"، "سنفرو يتجلي". وإني لأرجو ألا أتهم بالخيال عندما أقول إنهن كن وحيا لي في عملي. ولقد قام بالتنقيب عنها في وقت ما، أو في غيره، العظام من علماء الآثار في الماضي أمثال ماسبيرو وفرث وجاكيه. وقد وجدت كلها مسروقة تماماً أو جزئياً في أزمنة بعيدة القديم. وكان سارق القبور في مصر القديمة رجلا ذا حمية ودهاء، والقليل من القبور قد نجا من شره.

ومع هذا، لا يستطيع المرء أن يكون عالم آثار وهو خلو من الإيمان والرجاء، وعندما كنت أتجول في نطاق منطقتي خلال تلك الشهور القلائل الأولى بعد تعييني، كنت أعود إلى موضوع الآثار غير المعروفة التي تخلفت عن ملوك الأسرة الثالثة.

كان حقاً أن سقارة نقب فيها مرات كثيرة جداً. وقد بدأ الحفر منذ أكثر من قرن، ماريت، وبعد ذلك نهض أثري فرنسي آخر هو جاك دي مورجان **Jacques de Morgan** بأعمال مرييت في منهج أصح علميا. ولكن لم يبدأ عمل في مذهب منسق حقا إلا في القرن الحالي عندما شرعت مصلحة الآثار المصرية في القيام بفحص علمي دقيق يشمل المنطقة بأجمعها.

ولقد كنت آخر صف طويل من علماء الآثار الذين عملوا في سقارة، وما كنت بإنسان لو أني لم آمل أن تتاح لي الفرصة ليكون لي حظ في كشوف جدد. وبعد فحص الجبانة برمتها، فحصاً دقيقاً اجتذبت، آخر الأمر، إلى قطاع يقع وراء وصيد زوسر. إنها منطقة واسعة يحدها من الشرق الحائط الغربي لوصيد زوسر وهرم أوناس، ومن الغرب السور الكبير الذي عثر عليه جاك دي مورجان منذ نصف قرن مضى. وعمل فيه بعد ذلك لموسم واحد، المرحوم المهندس عبد السلام حسين. وأبرز مظاهر هذه المنطقة وجود مرتفع مستطيل الشكل في ركنها الجنوبي الشرقي يقع على بعد 135 متراً، على التقريب، إلى الجنوب الغربي من وصيد زوسر ويمتد من الشمال إلى الجنوب. ولقد أوضح هذا المرتفع على الخرائط كأنه هضبة طبيعية، ولكن ما تميز به خاصة من تغطيته بقطع من حجر الجير المنحوت والجرانيت والمرمر، ومن بروز أبنية من الركام هنا وهناك بعث في الحيرة واستهواني، وقد تقدمت إلى المصلحة أطلب السماح لي بالعمل حفائر كشفية هناك وانشرح صدري عندما رصدت المصلحة اعتماداً قدره ستمائة من الجنيهات. وفي السابع والعشرين من شهر سبتمبر سنة 1952 بدأت التنقيب.

الفصل الثالث

استهلال البحث

إن القارئين الذين لا عهد لهم بالأعمال الأثرية، قد تلح بهم رغبة في معرفة الوسيلة لتنظيم عمليه كهذه. بعد أن يكون الموقع قد اختير، فإن الخطوة التالية هي تعيين العمال الصالحين،

ويتطلب الحفر التدقيق المنظم مهارة عظيمة، فيجب أن يعرف الرجال ماذا يبحثون عنه وأن تكون لهم الدربة في تعرف طرز الجدران، المتباينة، والجسور والدلائل الدقائق عن وجود أبنية سابقة، وأن يمهروا في ملاحظة الأدلة الأثرية التي قد تمر مستخفية عن العين غير المدربة. ويعدل – وهذا في الأهمية – أنه يجب أن يعرفوا كيف يتناولون، في أعظم عناية، الآثار الرقاق القابلة للكسر التي تخلفت عن الأزمنة القديمة والتي قد تظهر خلال التنقيب، وكيف يعالجونها – إذا استدعى الأمر– بما يلزم من الوسائل الواقية وكذلك بطبيعة الحال يجب أن يكونوا أمناء أمانة لا يرقى إليها شك؛ لأن الإغراء للاحتفاظ بما دق من الآثار قوي.

ومن حسن طالع عالم الآثار المصرية أنه يوجد رجال في قرية بمصر العليا تسمى فقط (كوبتوس) تخصصوا في هذا النوع من العمل. وهم من طبقه الزراع، ولكنهم تدربوا على أيدي علماء الآثار على الحفر العلمي

وجعلوه مهنتهم الأساسية. ولقد اكتسب بعض كبار السن منهم دربتهم من رجال أمثال سيروليم فلندرز بيتي منذ خمسين سنة خلت، وقاموا بدورهم بتدريب غيرهم، فمثلا: أليس الذي لدي، أو كبير العمال "حفني إبراهيم" عمل تحت إمرة علماء الآثار بيتري وبرنتيون ومايرز **myres** وبيلي **Baily** واشتاركي **Starkey** ومس كاتون تمبسون **Miss Caton Thompson**، ومنذ عهد قريب، الأستاذ فيرمان **Prof. Fairman**. وخبره مثلا هؤلاء الرجال ذات قيمة بالغة لأي منقب يعالج موقعا جديدا، وكان من سعود جهدي أني استطعت استخدام نفرٍ منهم لمعاونتي في مهمتي.

ومن الطريف أن هذا العمل ينتظم أسرات بأكملها – آباء وبنين وأعماماً وآباء إخوة وأولاد عم وكلهم منقبون حاذقون، وعندهم أن في مكانة الشرف بينهم، أن يكونوا أبداً موالين أمناء، إذ لو نسب إلى فرد منهم إهمال أو انحراف عن الأمانة فإن العار يلحق بالأسرة على بكرة أبيها.

ولو أنهم يعملون للحصول على أجرة عملهم، فإن هؤلاء الرجال أبعد كثيرا من أن يكونوا مجرد عمال أجراء. إنهم يكلفون كلاً صادقاً بعملهم وإنهم ليتحدثون وهم مزهوون عن الكشوف التي أسهموا فيها تحت قيادة علماء الآثار طائري الصيت الذين استخدموهم. إن هؤلاء الناس، نهاية القول، هم سلالة المصريين، أبا عن جد، وقد ورثوا الكثير من معتقداتهم وعوائدهم. إنهم يعملون بين الآثار التي بناها أجدادهم ويخال أن

ألواناً من المهارة القديمة وصلت إليهم. وأضرب مثلاً: السهولة غير العادية في تحريك الأشياء الثقيلة باليسير من العون الآلي. ولقد أخبرني صديق من الإنجليز كيف كان يراقب، والدهشة والرعدة يأخذان منه تحريك تمثال هائل من الجرانيت في متحف الآثار بالقاهرة، تمثال ربما تبلغ زنته مائة طن ولقد قال: "تجمع بضعة نفر من الأحداث الأقوياء الذين يرتدون الجلابيب، حول التمثال بعتلات من الحديد وقطع من كتل الخشب، وعلت صيحات كثيرة رهيبة وتنهيدات، وبدأ الأثر يتأرجح وبدا وكأن كارثة وشيكة الوقوع. وخطر لي أن أغمض عيني وأن أسد أذنيّ بأصابعي. ولكن في برهة وجيزة زحزح التمثال الهائل، عددا من الأمتار، فاستقر في موضعه الجديد دون أن يصيبه ضير". كان هذا فنا قديما جاء عن السلف.

عندما كنت في الأقصر، كبيرا لمفتشي آثار مصر العليا؛ استخدمت عددا من هؤلاء الرجال. وكان اثنان على الأخص من بينهم، على درجة عظيمة من الحذق والمقدرة على تحمل المسئولية – الأخوان حفني إبراهيم وحسين إبراهيم – وأنفذت رسالة إلى حفني الذي كان حينذاك في قفط، في صعيد مصر وتبين لي أنه كان على وشك الرحيل للعمل في السودان. ومع هذا فقط آثر هو وأخوه أن يعملا في مصر، بل حتى في مصر السفلى بعيدا عن مسقط رأسيهما. وعلى هذا استبشرت عندما وافقا على اللحاق بي في سقارة وقد أحضرا معهما عشرة من الرجال المصطفين. وأقمت حفني رئيسا لعمالي، وأكملت عدد العمال المهرة بعشرين من العمال المحليين لينهضوا بالأعمال التي لا تتطلب مهارة، ولو أني كنت مدركا أنهج سيتحتم على فيما بعد أن استخدم مزيدا من الرجال.

وفي الأيام القليلة الأخيرة من شهر سبتمبر سنة 1951، جست أنا وحفني خلال الموقع الفسيح بحثا عن مكان ملائم نبدأ العمل فيه. وقد استرعى نظرنا بناء من الركام بارز فوق السطح على حافة المرتفع الغربية، ولذا شرعنا في الحفر في هذا الموضع. وكان من دواعي غبطتنا ظهور حائط ضخم مبني من قطع الأحجار الصغيرة غير المنتظمة، في اليوم الأول، وأمعنا في الحفر حتى قرار الحائط الذي كان يقرب عمقه من ثمانية أمتار فوجدنا أنه كان مقاما على طبقات الصخر وله سمك يبلغ 18 مترا ونيفا، وكان مبنياً في أجزاء ثلاثة كأنه شطيرة. وكان وسط الشطيرة حائط عمودي يبلغ سمكه قرابة ثلاثة أمتار ويغلفه من الجانبين حائطان آخران سمكهما إثنى عشر مترا. وكان سطحهما الخارجيان يميلان للداخل في زاوية مقدارها 72 درجة، ويسمى مهندسو المعمار هذا الطراز من البناء حائطا "داعماً"



(شكل 10) منظر أخذ من الطائرة لوصيد هرم زوسر

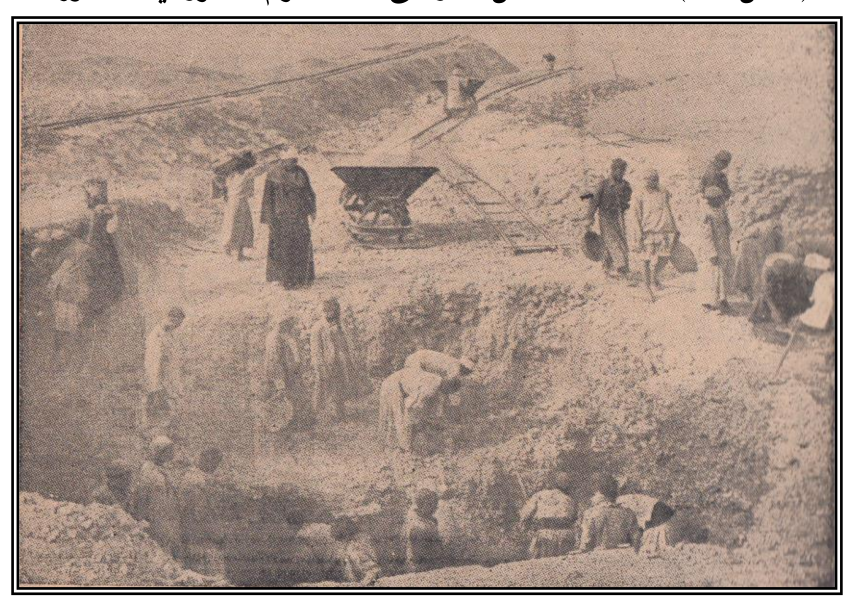
A أ – هرم زوسر المدرج

B ب – وصيد الهرم الجديد

C ج – الوصيد الذي كشف عنه دي مورجان



(شكل 11) استهلاك العمل – وعلى بعد، أهرام سنفرو في دهشور



(شكل 12) – صورة أخذت عن قرب لسير العمل

وفي مؤخرة الصورة قضبان "الديكوفيل" الحديدية

وقد أكد لي هذا الكشف أن تصوري الأصلي كان صحيحا، وعكفنا خلال الشهرين التاليين على القيام بمزيد من التنقيب في مواضع على طول هذا الحائط الضخم ثم زدت جماعتي من العمال حتى بلغت الخمسين عدًّا، وتحت إرشاد على إبراهيم مدت سكة حديد "الديكوفيل" لحمل الحفر [23] من الرمل والصخر من الموقع إلى مكان ملائم يردم فيه. ويقع المرتفع في الركن الجنوبي الشرقي من المنخفض العظيم الذي يستقر إلى الجنوب الغربي من وصيد زوسر، وانتهت موضع الردم منطقة تقع إلى الغرب من مسافة المرتفع الغربية بعد أن قمت أولا بفحص المكان بحفر نقر تجريبية (مجسات) للتأكد من أنه طبقات صخرية فقط لا تخفي قبوراً أو آثاراً.

والديكوفيل عبارة عن سكة حديدية ضيقة، خفيفة يمكن مدها في سرعة ونقلها كذلك في سرعة إلى موقع جديد عند الضرورة. وتسير عليها مركبات تدفع باليد. وإن صلصلتها مختلطة بأغاني وأناشيد العمال الإيقاعية لتكون صوتا يألفه جميع علماء الآثار المصرية. إنها الموسيقي تهز قلب المنقب.

ولقد بني الحائط من قطع كبيرة منتظمة من الحجر الجيري المحلي الأشهب. ويبدوا أن الجزء العلوي قد نقض في الأزمنة القديمة. وعندما استبنت معالم هذا الحائط دأبت على البحث عن الأركان وتثبتُّ من الحدود في النهاية. ولقد وجدت أنها بنيت حول وصيد مستطيل له محور

([23]) الحفر: التراب المخرج من الفيء المحفور. (المترجم)

يسير من الشمال إلى الجنوب يقرب طوله من 510 أمتار ومحور يسير من الشرق إلى الغرب ويقرب طوله من 180 متراً.

ومما دعا إلى حيرتي في البداية أن سمك هذا الحائط 20 متراً، وأنه مجرد من التكسية بالحجر الجيري المصقول، كما كان سور زوسر المحوط. ثم أدركت أنه كان في الواقع أساسا بني عليه الحائط الأعلى، في الأصل، ولقد تبين من موقع الأرض سبب ذلك. إن مجموعة أبنية هرم زوسر تقوم على موقع ضاحي [24] على أقصى حافة الهضبة ويشرف على الوادي، ولكن الملك الذي أعد له هذا الوصيد – الذي كشف عنه حديثا – لم تكن لديه هذه الميزة وكان لزاما أن يبني أثره في منخفض، وللتغلب على هذا أفاد مهندسه المعماري، بادي الأمر، هذا الريف العظيم من الحجر الجيري المحلي، الذي ربما لا يكون ظاهرا للعيان. وابتنى فوقه بدور الوصيد الحقيقي من طراز يشبه سور وصيد زوسر بدعامات بارزة وربما بأبواب وهمية يمكن أن ترى كلها من بعد. ولقد توارى معظم حائط "الستارة [25]" هذا، إذ كان الحجر الجيري المصقول الذي بني به شديد الإغراء للبنائين اللاحقين. ولقد حدث مراراً كثيرة أن ملوك مصر القديمة كانوا ينهبون آثار سلفهم، ولقد ذهب هذا الحائط غنمه كغيره. وعلى الرغم من هذا، لم يغامرني شك في أن السور الأعلى تم بناؤه بالفعل، لأننا عثرنا على أجزاء منه متناثرة في أقصى الحد الشمالي من الوصيد لها ألواح و"ستائر"، وأبعادها تعدل أبعاد سور زوسر. وأقول عرضا إن هذا كان أحد الأسباب التي حملتني على

([24]) المكان الضاحي البارز

([25]) الستائر واجهات حيطان بين الدعامات.

الاعتقاد بأن الملك الذي ابتنى هذا الوصيد كان متأخرا عن زوسر، لأنه لو لم يكن أثر هذا الملك موجودا حينذاك، فإن البنائين الذين أقاموا هذا البناء الآخر ما كانوا ليشيدوا في مكان أكثر قربا من حافة الهضبة، لا لأن الموقع أكثر صلاحية فحسب ولكن لأنه كان يواتيهم أن يكونوا أكثر قربا من شاطئ النيل الغربي حيث يكون تفريغ أحجار التكسية، ولو أن نواة الأهرام كانت تبقى من الحجر المحلي، فإن الحجر دقيق الحبيبات الذي يحتاج إليه لكتل التكسية، كان يقطع من الثلاث بشاطئ النيل الشرقي.

ولقد كشف مزيد من التنقيب في المنطقة الشمالية من المرتفع المستطيل عن جدران من الركام كثيرة، تسير بحيث تواري الواحدة الأخرى في اتجاه من الشرق إلى الغرب، وتتلاحم بجدران متعارضة صغار، سنية كذلك من الزكام ويشبه كل ذلك في مجموعه بعض الجسور والحشايا في وصيد هرم زوسر المدرج. ولقد قضينا حوالي شهرين في التنقيب عن هذه المجموعة من الجدران المتعارضة التي تبعث على الحيرة، وفي فحصها لأنه كان من اليسير معرفة أين يبدأ بالحفر في هذا الوصيد الرحب. ويجب أن أنبه، عند هذه المرحلة، إلى رحابة هذا المكان.

ولم تكن الحال شبيهة بحفر قبر بسيط في رقعة محددة صغيرة ولكنها تعدل الحفر في أرجاء منطقة يبلغ اتساعها أضعاف اتساع ميدان الطرف الآخر في لندن[26]. ولقد ذهبت مرات كثيرة مع حفني إبراهيم لإعادة فحص وصيد زوسر، وخاصة في نهايته الشمالية علني أجد دلائل على

([26]) يماثل ميدان التحرير بالقاهرة . (المترجم)

تخطيط الوصيد الذي كشف عنه حديثا، فوجدنا نفس المجموعة من الجدران في مواضع عدة وبالأخص في الطرف الشمالي.

وسبب وجود هذه الجدران المتعارضة هو ما يأتي: عندما كان البناءون في ذلك الزمن البعيد يريدون رفع مستوى منطقة فإنهم كانوا يقيمون، بادئ الأمر، جدرانا متعارضة تقسم المنطقة إلى قاع يملأونها بعد ذلك بالحجر. كذلك من المهم أن نذكر أن الأبنية في وصيد زوسر لم تكن أبنية حقيقة هيئت لكي يسكنها الناس، ولكنها كانت صورية. وكانت عمليا مصمتة، وقد استخدمت هذه الجدران في إقامة مثل هذه الأبنية الصورية.

وسأشرح المسألة على هذا السياق. إذا كان الإنسان يقوم بالتنقيب عن بيت أو معبد مثلا فيمكنه أن يعرف على ما هو جدران، وما هو مساحات فراغ بين الجدران، وأعدت للغرف، ولكن في حالتنا هذه كانت المساحات التي تركت بين الأبنية من ضآلة الرقعة بحيث كانت تظهر البناء بأجمعه وكأنه كتلة واحدة صماء. وكانت معظم هذه الأبنية في الواقع رمزية، الغرض منها أن تمثل عناصر معينة في قصر الملك في ممفيس وكان يظن أنها ضرورية لسكناه في الحياة الأخروية، ولتوكيد حقوق سيادته. ويمكن تصور مدى صعوبة التعرف على تخطيط مثل هذه الأبنية بعد أن تكون قد تضاءلت إلى مستوى الأساس وكان هذا سبب اختلافي المتكرر إلى وصيد زوسر الذي حفر حفراً منسقاً لأرى إذا كان من الميسور أن أكتسب معلومات تعاونني على تفهم تخطيط البناء الجديد. وكان التشابه عجيباً،

وكنت أزداد وثوقا بأن هذا هو الحائط الوسيط لهرم مدرج، ولو أنه في ذلك الوقت لم يصدقني إلا القليلون.

وفي عمل من هذا النوع يعترض الأثري أحيانا أزقة مغلقة – حريا ومجازاً – وقد وقع لي أمر من تلك الأمور عندما كنا نحفر في هذه المنطقة لقد لاحظنا أن معظم القطع التي استخدمت في الحشو كانت شدرات من صلصال لين يسمونه (طفلا) توجد عادة في مخلفات الدهاليز السفلية، تحت الأرض، ربما تؤدي إلى قبور، وقد زدنا تيقنا من ذلك، لأن مجموعات من الأبنية، شبيهة لها، وتوجد فوق مثل هذه الدهاليز في الشق الشمالي من وصيد زوسر. وعلى ذلك عكفنا على البحث عن المدخل، وأذكر أني ورئيسي عمالي استغرقنا وقتا طويلا نجيل الفكر عن الموضع الذي قد يكون فيه. وانضم العمال الآخرون في حماسة جادين في البحث، وكما يحدث أحيانا في مثل هذه الحالات، كان لكل واحد نظريته الخاصة. وترتفع الصيحات (إن المدخل هنا!)... لا، إنه هنا!، وهكذا.. وكان كل يوم يأتي بجديد من التكهنات. وكان من العسير جداً أن يجد الإنسان مخرجاً من هذا التيه، وخاصة عندما كان يحل بيننا زائرون وغيرهم من علماء الآثار لزيارتنا – وبعد أن يشاهدوا الموقع يدلون برأيهم بأن الوصيد لم يتم على الإطلاق وأننا لن نجد شيئا.

ولما استبان أن البحث عن قبره كان على غير طائل، فقد أجمعت رأيي أخيراً، على نقل العمل كله أمتارا قليلة إلى الشمال. وفي يوم عيد الميلاد من عام 1951 طلبت إلى الريس حفني أن ينقل السكة الحديدية

(الديكوفيل) إلى شمال هذه المجموعة ويعالج المرتفع الذي يقع إلى الشمال منها مباشرة.

ويمكنك أن تتخيل ما غمرنا من بهجة في يوم رأس السنة من عام 1952 عندما عثرنا فجأة على درج يؤدي إلى حائط عرضي هائل يمتد من الشرق إلى الغرب عبر الوصيد، وكان هذا الحائط جد مختلفا عن الحيطان التي كشفت عنها قبل ذلك. كان يكسوه حجر جيري أبيض مصقول به أبراج و"ستائر" شبيهة شبهاً تاماً بتلك التي سور بها وصيد زوسر، كذلك كأن مطموراً في كتلة من الأبنية تتكون من جدران معترضة من الركام، أقيمت على مسافات متتالية على أبراجها وستائرها: وقد ردمت الفجوات بالمخلفات. ولهذا السبب وجد الحائط سليما إلى طول يبلغ حوالي 42 مترا حيث توقفت بعد ذلك عملية تشييده. وربما ترجع السبب لتعديل في تصميم المهندس المعماري. وكلما كشف السور عن نفسه في بهائه الكامل،كما تركه العمال منذ قرابة خمسة آلاف سنة خلت، تيقنت أن هنا يوجد كشف بالغ الأهمية.

الفصل الرابع

الحائط الأبيض

بدت السنة الجديدة تحمل موفور الأمل لنا جميعا. وكان حفني وأخوه والبقية من العمال تغمرهم البهجة كما كانت تغمرني. وفيما غبر من الزمان كانوا يعملون في حفائر عظيمة.

وكان موضع الشرف عندهم، أنه في كل موقع يعملون فيه يجب أن يعثر على شيء مهم. ومن الطبيعي أن مثل هذه الآمال لا تتحقق دائما، ولكن عندما تتحقق فهنا الفرحة الكبرى. وعلى هذا تصبح مثل هذه التجارب جزءًا من تاريخ حياتهم، ويسردونها على أولادهم.

ربما يعجب بعض القارئين لماذا يدور مثل هذا اللفظ المثير حول مجرد حائط من الحجر. ولكن هذا لم يكن حائطا عاديا. إنه من النادر في مصر أن يعثر على بناء مثل هذا، لم تعد عليه عوادي الزمن وكنا كلما كشفنا عنه شيئا فشيئًا، توافرت لدينا أدلة لا تنازع على أن الحائط الأبيض كما سميناه، لا بد أنه دفن بعد أمد قصير من بنائه. لقد كنا نشاهد شيئًا لم تقع عليه عين إنسان من قرابة خمسين قرناً خلت.

وكانت هذه الأدلة عبارة عن العلامات والرسوم باللون الأحمر التي تركها على سطح الحجر الجيري الأبيض قدامى البنائين، فعلى سبيل المثال كانت توجد على بعض كتل الحجر علامات المحجر مبنية باللون على

الأحجار قبل أن تغادر المحاجر الواقعة على شاطئ النيل المقابل. وما وجد على الحائط الأبيض منها كان مجرد رموز استكن معناها. ولكنها نعلم من أمثلة أخرى وجدت في الأهرام اللاحقة أن بعض هذه العلامات يشير إلى أسماء فرق العمال وكتائبهم، الذين قطعوا الأحجار. وكانت هذه الكتائب فيما يعتقد تضم عددا يتراوح بين ثمانمائة وألف رجل. ونسرد على سبيل المثال أسماء بعض هذه الكتائب التي كانت تقطع الأحجار من المحاجر لهرمي خوفو ومنكاورع:

كتيبة – خوفو يثير الحب

كتيبة تاج خنوم خوفو، الأبيض القوي

كتيبة – ساحورع محبوب.

وقد ترجمت علامات أخرى كما يأتي:

هذا الجانب إلى أعلى يجب أن يحمل للقبر الملكي (يرنوب)

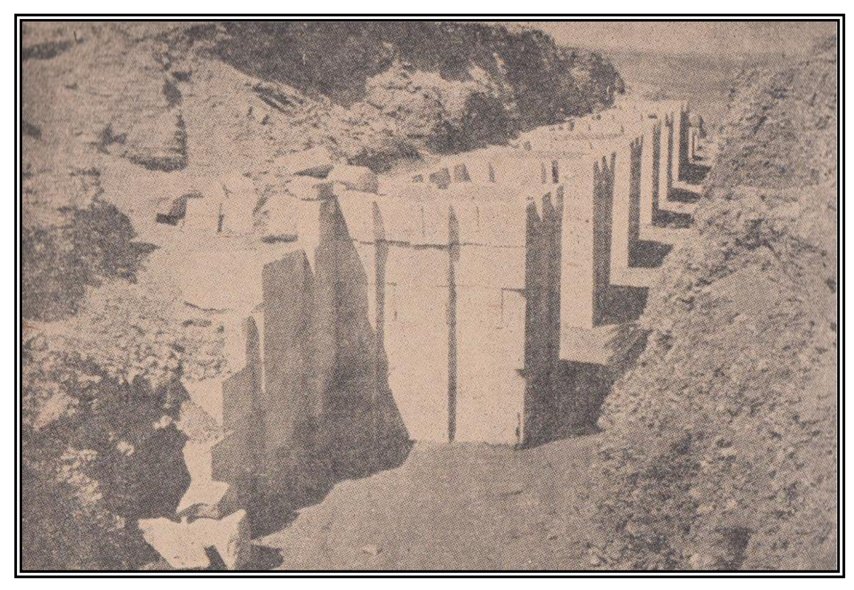
وهذه العلامات والنقوش المرسومة رسماً إجمالياً، جد قريب من البنائين القدامى، فمثلا وجدنا على الحائط الأبيض خطوط المستويات الفعلية التي عملت بمد خيط غمس في اللون الأحمر عبر السطح ثم (نفضه) كما يفعل البناء الحديث إلى يومنا هذا. ومن الواضح أنها عملت للتأكد من أن العمال يبنون الأحجار في نفس المستوى بطول الحائط كله. ولو أنه ربما كانت هذه التجربة هي الثانية أو الثالثة في بناء حيطان عظيمة بالحجر، فإن البنائين كانوا قد اكتسبوا مهارة عظيمة، كما هو جلي.

ثم وجدنا شيئاً قرَّب الماضي السحيق إلينا قربا عظيماً، وهو لمسة إنسانية نادرة على أثر مصري ملكي. فهنا وهناك كان العمال يفعلون على تزجية وقت الفراغ بأن رسموا على الحائط بالمغرة الحمراء أو سناج القنديل صور رجال وحيوانات ومراكب، ووجد رسم لرجل ليبي يشتمل برداء طويل ولباس رأس عال، يحمل قوسا. والليبيون وهم بدو يعيشون في الصحراء الغربية، كانوا بالطبع غرباء عن المصريين وكانت ملابسهم مختلفة تماما. ثم كانت توجد رسوم أسود لا يخطئ المرء التعرف عليها، وفي ذلك الزمن كانت الأسود وغيرها من ضواري الوحش لا تزال توجد في صحاري مصر، ولابد أن الرجال كانوا يرونها، مرات كثيرة، تتجول على حافات الصحراء. ومثلث رسوم أخرى مراكب بعضها بشراع والبعض الآخر بغير شراع وصنادل تشبه تلك التي كان يستخدمها قدماء المصريين لجلب كتل الحجر الجيري من الشرق إلى شاطئ النيل الشمالي الشرقي.

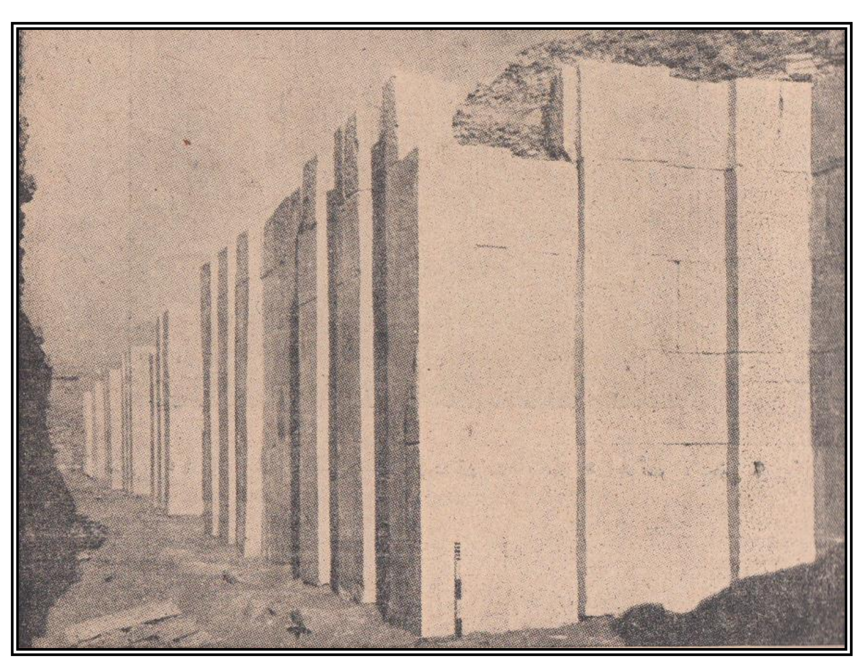
* * *

وهذه الآثار التي تخلد ذكرى قدامى العمال تدعونا أن نمعن الفكر لحظة في بعض المناهج التي كان قدماء المصريين ينتهجونها في استخراج الأحجار من المحاجر واستخدامها. وأنه موضوع واسع الأطراف، كتبت فيه أسفار كثيرة. وسأعود إليه في فصل قادم عندما أشرح بناء الأهرام. وفي هذه المجال أسرد حقائق قليلة تتصل بإقامة أبنية من الحجر في مصر، في ذلك العهد الباكر جداً عندما تعلم الإنسان، لأول مرة، تشييد الأبنية العظيمة بالحجر.

منذ الأسرة "الثالثة فصاعدًا، كان المصريون يجلبون الكثير من أحجارهم الجيرية، دقيقة الحبيبات، من محاجر تقع في الآكام إلى الشرق من النيل التي توجه ممفيس. واثنان من هذه المحاجر، على الأخص، ذاعت شهرتهما: طره والمعصرة. وعلى أية حال،كان يستمد منهما الحجر الجيري الأملس الذي يستخدم في تكسية الآثار. وفي العادة كانت النواة الداخلية للبناء عندما كانت الحال لا تدعو إلى صلابة شديدة – تجلب أحجارها من أقرب المحاجر إلى البناء الذي يسير العمل فيه. وتوجد أمثال هذه المحاجر بجوار سقارة وعلى مقربة من أهرام الجيزة.



(شكل **13**) "الحائط الأبيض" وقد كشف عنه جزئيا.



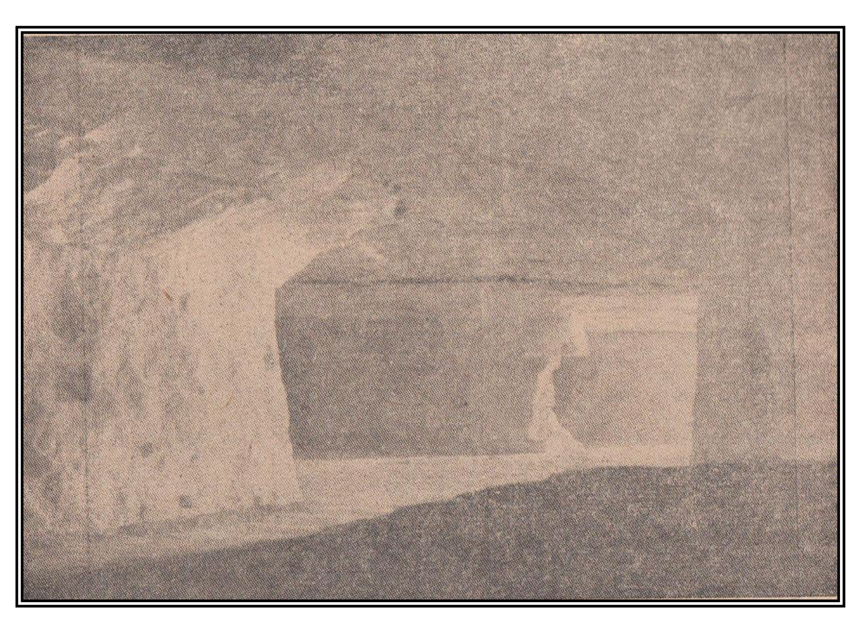
(شكل 14) "الحائط الأبيض" وقد كشف عنه تماماً



(شكل 15) رسوم العمال على إحدى دعامات "الحائط الأبيض"

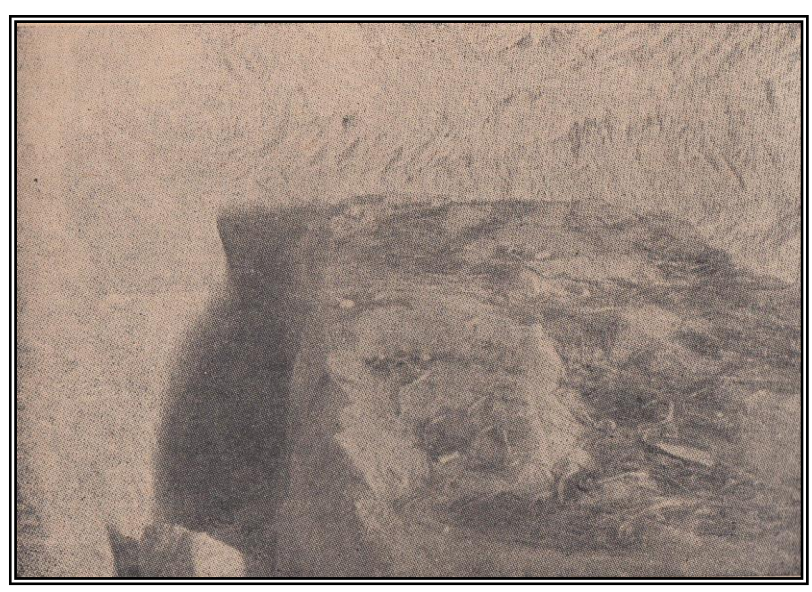


(شكل 16) رسم عامل، لرجل ليبي يشتمل برداء طويل

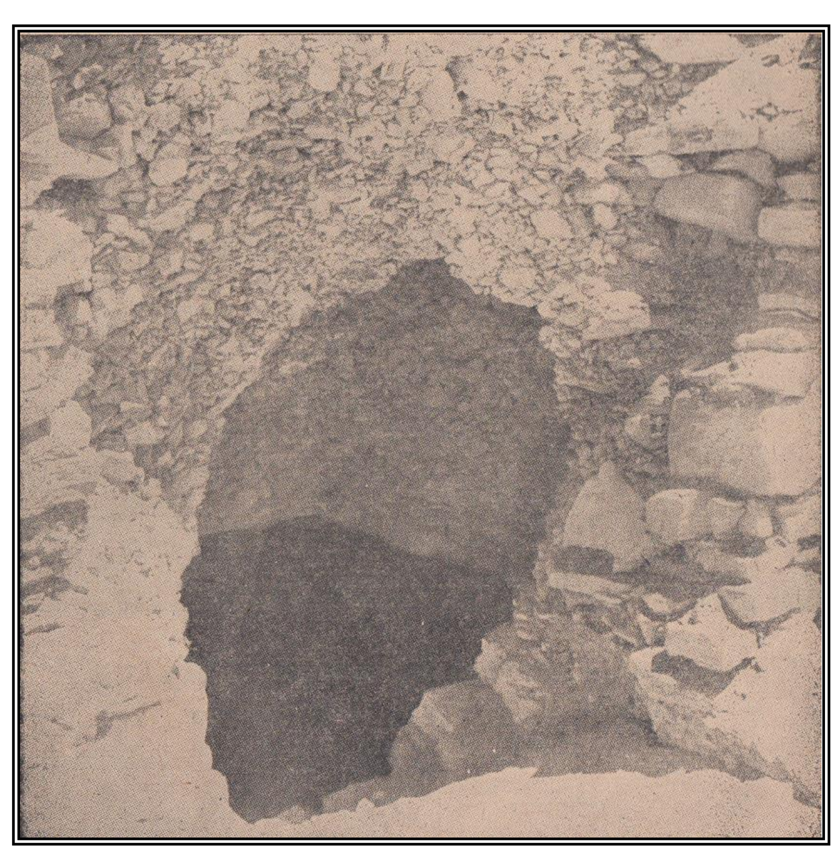


(شكل **17**) المنظر الداخلي لأحد المحاجر المصرية القديمة في المعصرة في آكام النيل الشرقية

(لاحظ الأعمدة التي تركت لدعم السقف)



(شكل **18**) كتلة من الحجر الجيري فصلت جزئيات من المحجر



(شكل 19) فتحة لصوص المقابر التي وجدت على مقربة من "الحائط الأبيض"

وفي وقتنا الحالي، ينسف بالطبع الحجر أولا من الكتل الصخرية بأعواد مفجرة، ثم يقطع ويشكل بعد ذلك في ساحة البناء. ولما لم تكن لدى قدماء المصريين مثل هذه الإمكانيات،كان عليهم أن يعتمدوا على قوة العضلات وعلى الأدوات البسيطة. وتستطيع أن ترى في المحاجر الموجودة فعلا في طره وفي غيرها إلى يومنا هذا،كيف كانوا يستخرجون الحجر من المحاجر ثم يشكلونه في نفس الموقع. والمحاجر عبارة عن دهاليز أفقية فسيحة نحتت في الصخر. ويبلغ عمق بعضها عشرات الأمتار وفيها

أعمدة ضخام من الصخر الطبيعي تركها عن عمد، عمال المحاجر لدعم السقف. وكان العمال يبدأون من قمة الصخر ثم يعملون هابطين. وكانوا أولا يفرغون خندقا يمكن لإنسان أن يزحف فيه. ثم بمعول بناء – أو قد يكون بأزميل – تنحت أخاديد في الخلف وعلى الجانبين، وبهذا تترك كتلة من الحجر خشنة لا تزال في أسفلها بالصخر الأصم. وأخيرا في ضربات قوية قليلة على القاعدة بمطرقة وإزميل تفصل الكتلة. وتتكرر هذه العملية على هذا النسق بطول الأخدود ثم يشرع العمال في الحفر بالأزاميل بإزالة الطبقة التالية.

حتى الأحجار الصلاب مثل الجرانيت كان تقطع في المحجر بهذه الوسيلة، ولو أنه في مثل هذه المحاجر، بدلا من فصل الصخر من قاعدته بمطرقة وإزميل – إذ كان ذلك من المستحيل – فإن العمال كانوا يحتفرون نقرا في الصخر ويدخلون فيها أوتادا من المعدات يطرقونها بمطرقة في ضربات قوية. ومنهج آخر كانوا ينتهجونه وذلك بوضع أوتاد خشبية في هذه النقر ثم تشبع بالماء. عند ذلك يتمدد الخشب وينفصل الصخر [27] وهكذا كانت كتل الأحجار ترد من الحجر وقد تهيأ لها الشكل المجمل وتحتاج فقط إلى التسوية الأخيرة لتكون جاهزة للاستخدام في الحائط أو الأثر، ومع هذا فإن التسوية النهائية كانت في المعتاد، تنجز على مقربة من البناء نفسه، أما التغطية الخارجية فلا تكون قبل أن تبنى الكتل. ولاختبار

([27]) أنظر بيانا تاما عن هذا الموضوع الذي يأسر اللب ولا يعرف عنه إلا اليسير في كتاب س كلارك**S.Glark** ، ر.انجلباخ **R.Engelbach**– البناء بالحجر في مصر القديمة مطبعة لجامعة أكسفورد، **1930** الصفحات **Ancient Egyptian Masonry ,Oxford University Press ,1930 23 –12 pp.12–33**

صقلها كان لدى البنائين لوح يغمس في الدهان الأحمر ليترك علامة على"المواضع المرتفعة".

وبهذه المناسبة أقول أنها مغالطة أن القدماء المصريين كانوا يعرفون سر جعل النحاس صلبا. والأزاميل التي عثر عليها،كان يعطى لها شيء من الصلابة بتسخينها ثم تركها تبرد في بطء، ولكن صلابتها هذه لم تكن فوق المعتاد، ولا بد أن كمية المعدن الضائعة سدى كانت كبيرة.

وللحصول على خط قاعدة مستوي للأساس فإنهم كانوا يطلقون المياه على السطح المراد تسويته وحواليه. ثم يقيسون المنسوب في مواضع كثيرة. في وقت واحد وبهذا يعينون نقطا ثابتة يصلون بالسطح كله في النهاية إلى منسوبها (انجلباخ **Engelbach**) . وهذا في سياق القول، ما يفسر الخطأ اليسير الذي يوجد في مستوى الرصيف الذي يقع جزء منه تحت الهرم الأكبر بالجيزة سطحه مستو استواءً تاما، ولكنه يرتفع في ميل نحو خمس عشرة سنتيمترا من الركن الشمالي الشرقي إلى الركن الجنوبي الغربي. وإذا كان قد حدث عند مراجعة المواضع أن ريحا شمالية شرقية كانت تهب، فيكون هذا منشأ الخطأ.

ومن بين الأدوات التي استخدمت في هذه الحقبة الفادن[28] وقد وجدت منه أمثلة كثيرة، والكوس [29] .

([28]) خيط البناء – مترجم

([29]) هو آلة على شكل مثلث به زاوية قائمة تستعمل في البناء (المترجم).

ووحدة القياس التي استخدمت في الدولتين القديمة والوسطى كانت الذراع الملكي. والعلامة الهيروغليفية التي ترمز إليه ساعد ممدود، يعدل طوله تقريبا ذراعا واحداً (612 و20 بوصة أو 515 مليمترا) وهذا بدوره كان يقسم إلى سبع قبضات كل قبضة تشتمل على أربعة أصابع. ونجد أحيانا تأشيرات بعدد الأذرع خلف أحجار تكسية الأهرام وعلى حيطان غير تامة لمعابد ومقابر. وبطبيعة الحال لا بد أنه كانت توجد أيضا رسوم مهندسين معماريين ولو أنه لا يوجد شيء منها يرجع تاريخه إلى الأسرة الثالثة [30] فإنه توجد أمثلة متأخرة: مثل مسقط أفقي على حجر جيري لقبر رمسيس التاسع في وادي الملوك بطيبة، ويمكن مشاهدته في متحف القاهرة.

ويظهر أن أعمال استخراج الحجر من المحاجر ونقل الأحجار وإقامة الأبنية، كان ينهض بها في أوقات من السنة خاصة معينة. واستخراج الحجر الجيري الأملس كان يحدث في المعتاد في الشتاء والربيع (من نوفمبر إلى مارس) فتنقل الأحجار عبر النهر في أثناء فصل فيضان النيل السنوي (يوليو – نوفمبر) عندما يكون النهر في أقصى اتساعه. ويرجع سبب ذلك إلى الرغبة في تقليل النقل بالبر إلى الحد الأدنى. وعلى ذلك فإن البناء كان من المحتمل أن يصل إلى حده الأقصى من النشاط في أثناء الشهور التي تعقب الفيضان عندما تنتهي أعمال النقل وتنخفض حرارة الصيف.

([30]) ومع هذا فقد وجد رسم بياني (كروكي) يرجع إلى هذه الأسرة وربما كان هذا رسماً بالمداد الأحمر على شظية من الحجر الجيري في وصيد زوسر، وربما كان هذا رسماً بيانياً للعمل يعطي البيانات اللازمة لبناء حائط منحن، حيث إنه بين منحن وذي إحداثيات، وهو محفوظ الآن بمتحف القاهرة.

* * *

وعند هذا الحد يجب أن أكرر بأنه لم يظهر حتى الآن أية أدلة تشير إلى أني سأجد هرماً. لقد عثرت على وصيد كان له بعض وجوه الشبه بهرم زوسر، وحائط معترضة رائعة كانت شبيهة بتلك التي توجد في سور رصيد هرم ذلك الملك، بحيث لا تترك مجالا للشك في أنها بنيت، على التحقيق، في عصر يقرب جداً من عصر زوسر. ولكن ذلك كان كل ما هناك، وفضلا عن الحائط الأبيض فإن الزائرين للموقع في هاتيك الشهور البواكر من سنة 1952 لم يجدوا إلا القليل مما يثيرهم، فلم يكن هناك إلا الهضبة العارية، من الرمل والصخر وقد حفرت فيها نقر قليلة ومن واحدة منها مدت السكة الحديدية الضيقة (الديكوفيل) إلى الموضع الذي يلقى فيه الحفر. وكان زملائي من أولي المهنة يسألون مازحين "أين الهرم؟" ولم يكن يواتيني جواب، وإنما كان يحدوني إيمان داخلي بأنه في مكان ما تحت تلك الرقعة الفسيحة من الرمل، سأجد في النهاية ما كنت أجد في البحث عنه. ولكن عندما كنت أمعن التفكير فيما رصد من مال متواضع، كان يسير سراعا إلى تضاؤل، كنت أشفق من ذلك لأنه إذا أنفق المال على حفر لا ثمرة فيه، فقد يكون من العسير الحصول على مزيد منه. وكان لزاما أن موقع كل حفرة تجريبية يجد أن يختار في عناية عظيمة وليلة بعد ليلة عندما كنت آوي إلى منزلي بعد عمل اليوم، كنت أعكف على دراسة رسم المنطقة وأنظر في مؤلفات غيري من علماء الآثار الذين عملوا في الأهرام وأصيغ النظريات أو أعرض عنها، وتحدث شطراً من الليل مع رئيسي عمالي حفني وحسين.

في هذه المرحلة يطيب لي أن ألفت نظر قرائي إلى المسقط الأفقي لوصيد الهرم (راجع الشكل) وسيلحظون أنه إلى شمال الموضع الذي يتلاقى فيه الحائط الأبيض بحيطان الوصيد التي تسير إلى الشمال الى الجنوب يتغير التخطيط تغيرا غريبا. وقد تكشف لنا هذا بعد أن ظهر الحائط بزمن وجيز. وقد بعث هذا الحيرة في ردحاً من الزمن. وفي الواقع كان يوجد مظهران يدعوان إلى التفكير: أولا: كانت الحقيقة الواقعة وهي أنه من "الحائط الأبيض" وما بعده، في اتجاه أقرب أن يكون شمالياً، فإن حيطان الوصيد التي تسير من الشرق إلى الغرب لم تلتزم نفس الخط كالعهد بها ولكنها كانت تغوص إلى عمق يبلغ حوالي مترين، وتصنع زاوية. وكان هذا يدل إما على أثر آخر يلتحم بالأول في الشق الشمالي وإما أنه امتداد الأثر الأصلي. ولقد وجدت بعد هذا أن الفرض الأخير كان صائبا.

والظاهرة الثانية الغريبة كانت أن هذا الامتداد الشمالي، فيما يلي "الحائط الأبيض" يرتفع فوق مستوى الجزء الجنوبي من الوصيد مكونا نوعاً من المنصة المرتفعة. ولماذا هذا؟ لا شيء غير مزيد من التنقيب يوافي بالجواب الأخير.

ولقد بدأت في نفس الوقت، وأنا أحاول الوصول إلى جواب من هذا الأمر المحير، التنقيب في عرض الوصيد بأجمعه من الغرب إلى الشرق، وأنا أستتبع خط "الحائط الابيض" وفي البداية صادفنا كتلا عظيمة من الحجر الجيري الأملس مرتبة بحيث تكون درجا ابتني في الحد الغربي للحائط الضخمة، وكان الهدف منها تسهيل استغلالها كمحجر.

وقام البرهان على أن الحائط عينه كان يتألف من نواة داخلية سمكية مبنية بناء منتظما بالحجر الجيري المحلي ومكسوة من الخارج بالحجر الجيري الأبيض المنحوت. وكان ينتظم واجهة البنيان الخارجية أجزاء بارزة وغائرة، وفيه دعائم و"ستائر" (ألواح). وكان البناء الرائع بأجمعه يبرز، على التحقيق، نفس التصميم الذي كان عليه سور وصيد زوسر. وكان للأجزاء البارزة والغائرة نفس الاتساع والعمق. وكانت للدعائم و"الستائر" نفس المقاسات، ولهذا رقعات متساوية في الدعائم الأكبر حجما، كي تنحت بها بوابات مزدوجة مغلفة، وهمية، كما في سور زوسر. وابتهجت لأنه كان من الجلي الآن أني عثرت على سور أقيم في أوضاع تشبه أوضاع سور زوسر.

وخلال ما تبقى من موسم سنة 1952، من يناير إلى مارس، واصلنا العمل في هذا الحائط ولم تتوقف إلا عندما وجدنا أن طرفه الشرقي، الأكثر قرباً للجبانة، أصابه تلف من جراء استخراج الأحجار منه.

ومع هذا فقد لحظنا اختلافين جوهرين في الوضع الإنشائي للاحجار، لقد كانت أبعاد الأحجار هنا أكبر بكثير من أبعاد أحجار وصيد زوسر، وفي الحائط الجديد كان يتراوح ارتفاع المدماك بين خمسين واثنين وخمسين سنتيمتراً بينما كانت في الأجواء السفلي من سور زوسر، تتراوح بين أربعة وعشرين وستة وعشرين سنتيمتراً فقط. ومن الجهة الأخرى

فإن الحجر الجيري الأملس روعي استخدامه في شح عظيم، في التكسية[31].

ولهذين العاملين أهمية قصوى في تاريخ هذا الأثر. ومن المؤكد أنه في عهد زوسر، كان قد وجد الميل لجعل كتل الأحجار أعظم جرما عندما عرف البناءون آخر الأمر أن زيادة الحجم تأتي بالوفر في العمل في اقتطاع الأحجار وتوفر للحيطان مزيدا من المتانة ودرجة أكبر من التماسك[32]. وعلى ذلك فإن حجم الأحجار والطريقة التي استخدمت بها في هذا الحائط الجديد، يوحيان بتاريخ لاحق لزوسر، ولو أنه في الأسرة الثالثة أيضا. ويوحي الاقتصاد في التكسية بانتهاج منهج أقرب إلى المنطق، وطريقة إنشائية أكثر تقدما. ولكن الحائط كان قد ترك في أثناء الإنشاء ونقلت نهاية الوصيد الشمالية 180 مترا إلى الشمال. والبرهان على أنه ترك في أثناء إنشائه يستند إلى الحقيقة الواقعة وهي أن المدماك السادس والأخير لم يكس وترك خشنا. وعلاوة على هذا، فإن حيطان فاصلة كثيرة من الحجر الجيري الخشن كانت تستند مباشرة إلى الواجهة ذات الأجزاء البارزة والغائرة، ولم يصقل سطح الحائط ولكنه كان يحمل الكثير من علامات الحجر وخطوط البناء التي سبق أن تحدثت عنها.

([31]) إن سمك الحجر الأملس في سور يتراوح بين مترين وثلاثين سنتيمتراً وأربعة أمتار وسبعين سنتيمتراً بينما في الحائط الجديد أنقص إلى ما يعدل اتساع مدماك أي بين ثلاثين وخمسين سنتيمتراً

([32]) ج . ف لوير "مشاكل أهرام مصر" ، باريس 1952 صفحة 163

J.P. Lauer , Les Problemes des Pyramides d.Egypte Paris 1952 p.163;

وكلارك وانجلباخ "البناء المصري القديمة – "صفحة البناء" أكسفورد 1930. صفحة 8.

Clarke and Englebachm, (Ancient Egyptian Masonry) The Building craft Oxford, 1930 P.8.

وخلال هذا الوقت كنت أنا وعمالي لا نزال نجد في البحث عما يدل على وجود دهاليز تحت الأرض كالتي توجد أسفل الجزء الشمالي من وصيد زوسر. وذات يوم وجدنا شيئاً أحيا الآمال فينا. إنه كان فتحة صنعها أحد سارقي القبور القدامى (أنظر شكل 19). مثل هذه الفتحات للأثرى يمكن أن تكون سبباً يدعو إلى الرجاء أو القنوط كذلك، الرجاء لأنها تدل على أن ثمة رجلاً مغامراً، منذ آلاف السنين، علم أو تكهن بوجود قبر على مقبرة، والقنوط لئلا يكون قد عثر عليه وأتى عليه نهباً.

وفي حالتنا هذه، عقد النصر للأمل. ولجنا هابطين الفتحة واجتزنا نفق اللصوص إلى مسافة يبلغ مقدارها ثمانية عشر متراً. ولقد كان يغور هابطاً في الصخر ويصنع نصف دائرة واسعة وكان علينا أن نتقدم في احتراس خشية الصخور المنهاوية أو انهيار النفق انهيارا تماماً، ولكن عندما وصلت أنا وحفني إلى المنتهى ولم نجد إلا الصخر انشرح صدرنا وانزاح عنا الحمل. في هذه المرة رجع اللص دون الظفر بشيء وعاد مغموما ولكن هل نجح في مكان آخر؟. إن الجواب عن هذا السؤال لا يزال في طي المستقبل.

الفصل الخامس

العثور على الهرم

وقد أمضينا الفترة من يناير حتى بداية أبريل سنة 1952 في تنظيف الحائط الأبيض، حتى قاعدته، وبطول امتداده حتى الموضع الذي أتلف فيه أحد الأحجار معظم البناء. وخلال هذا الزمن، أصبح وضع السور أكثر جلاءً،

إلى حد ما بالنسبة لي. عندما أقوم بالتنقيب في موقع، فإني أحاول دائما أن أضع نفسي موضع البنائين القدامى وأن أنفذ إلى أغوار عقولهم حتى يواتيني فهم السبب الذي يرجع إليه اتخاذ أثرهم شكله الحالي. وكثيراً ما كانوا يغيرون تصميماتهم في أثناء القيام بالبناء. وبالملاحظة والتأمل وباستعادة المعلومات التي يستوعبها المرء عن الآثار الأخرى فمن الميسور أحياناً الوصول إلى تقدير مواضع مثل هذه المتغيرات وسببها والتخمين الفطن عما يكون كامناً تحت الرمل في موضع بعينه. فعلى سبيل المثال، كنت موقنًا يقينًا عظيمًا أن الحائط الأبيض كان في الأصل يكون التخم الشمالي في مستوى أكثر ارتفاعاً. وكذلك بما أن هذا كان وصيدا بلا مراء فلا بد أنه كان يحوي صرحا أوسط يجب أن يكون بالقرب من المركز الهندسي للوصيد قبل الشروع في إقامة الصرح الأوسط مهما كان من أمره – هرماً أو "مصطبة" ولكن هذا لم يكن من المحتمل حدوثه إذ أننا نعلم من الأبنية الأخرى أن إقامة عناصر مختلفة من بناء كانت تسير في وقت واحد

وفي نفس الزمن ولكن لم تكن توجد آية على وجود مثل هذا الصرح الأوسط أو حتى بروز لبناء كالذي هداني إلى سور الوصيد.

وفي بواكير شهر أبريل رفعت الوصيد الأصلي بمزوارة (33) (ميزان هندسي) حتى أصل إلى تعرف مركزه الهندسي في إحكام. وشرحت فكرتي لحفني، وقد أبدى اهتماماً يشيع فيه التحمس. ولم يكن قد عمل فيما مضى من الزمان في أهرام ترجع إلى هذا التاريخ بالغ القدم، ولو أنه قام بدور مهم في الحفر عن هرم الملك سنوسرت الثاني من الأسرة الثانية عشرة في اللاهون. وفي الواقع كان حفني إبراهيم هو الذي وجد واحداً من أجمل الآثار، التي كشف عنها إطلاقا في هرم مصري. منذ أكثر من ثلاثين عاماً كان يقوم بالعمل للسير فلندرز بتري في قبر الأميرة ست – حاتحور – أيونت ابنة سنوسرت الثاني، وإذا هو يعثر عند تفريغ طاق في ركن من القبر، على عينة نادرة من البواريس (34) الملكي أو الثعبان المقدس من الذهب برأس من اللازورد وعينين من الياقوت، وغطاء للرأس مزودان بالعقيق والفيروز واللازورد. وهذا الرمز الملكي الذي يدل على بسط السيطرة على مصر السفلى كان يلبسه الفراعنة مع تيجانهم. ولما كان مدفوناً في الطين فقد توارى عن أنظار سارقي القبور عندما نهبوا القبر وظل لم يمسسه أحد زهاء أربعة آلاف سنة إلى أن عثر عليه حفني ولقد أخبرني مرة أنه يختلف مراراً إلى متحف الآثار بالقاهرة.

---

(33) المزواة (ثيودوليت): آلة دقيقة يستعملها المساحون لقياس الزوايا – المترجم

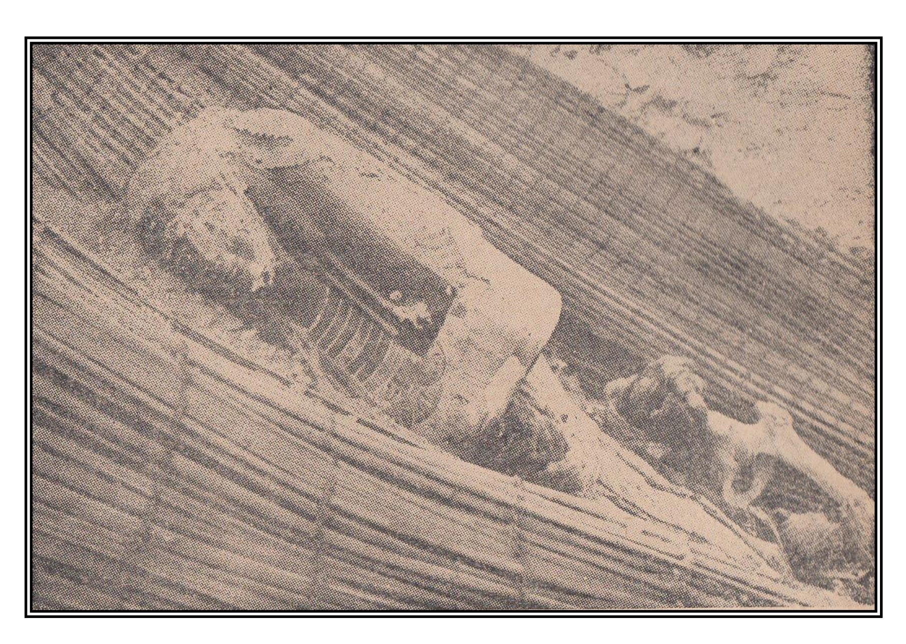
(34) **Uraeus** هذه كتابة اللفظ المصري للثعبان عرت باليونانية. ويقابله في اللغة العربية عربد وهي حية عظيمة تأكل الحيت (الجاحظ) المترجم.



(شكل 20) يكشف حائط الهرم الشمالي. لاحظ أن طبقات البناء تميل للداخل

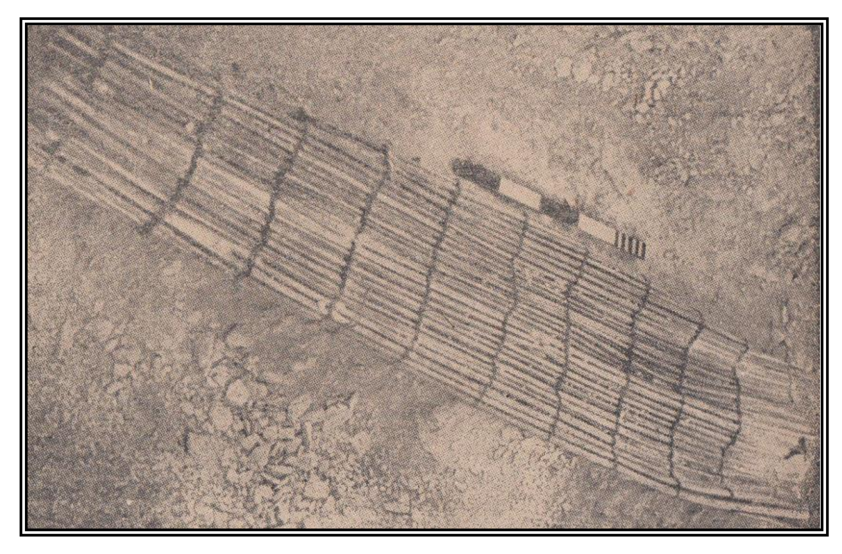


(شكل 21) كشفت الزاوية الجنوبية الشرقية للهرم، وظهرت أول "درجة"



(شكل 22) دفن "الحصير" لسيدة لبنية ، كا – نفر – نفر

("السكا، الجميكا مرتين") وحليها في مكانها.



(شكل 23) "دفن الحصير" الطرازي، كما وجد على حالته

لمجرد أن يمتع نظره بالثعبان الملكي في صندوقه الزجاجي، ويعيد إلى الذاكرة ذلك اليوم الذي ترادفت عليه ستة وثلاثون عاماً عندما حمله لأول مرة بين يديه. إن ذكريات كهذه هي التي تضفي على حياة هؤلاء الناس مجداً، وتثير فيهم الأمل كلما عالجوا موقعاً جديداً. وعلى ذلك يبدأ عمالي في فرط من الحماسة، المرحلة الثانية من الحفر التي كان مرماها تحديد موضع البناء الأوسط إذا كان موجوداً.

وفي كل عمل من هذا القبيل يلعب الحظ وأصالة كلاهما دوره وفي هذه المرة كان الحظ مواتياً. وقد تيقنت من الموضع الذي يجب أن يكون فيه البناء الأوسط. ولكن عندما أنفذت الأوامر لحفر أول نقرة تجريبية، لم أكن أعلم ما إذا كانت معاولنا ستضرب في حافة البناء أو في موضع داخله. وتصور ارتياحي عندما أتى إلى حفني في التاسع والعشرين من شهر يناير سنة **1952** في فيض من المشاعر ليقول إنهم وجدوا البناء وكان من حسن الطالع أننا عثرنا على موضع الحافة الجنوبية عينها للبناء المتواري، ومن هذه، لم يكن من العسير أن نتبعه حتى أركانه ونكشف عن حدود الصرح بأجمعه.

ولقد اتضح أنه يتكون من سلسلة من الحيطان القائمة بذاتها. ويرتكز الواحد إلى الآخر، ويميل إلى الداخل في زاوية يبلغ مقدارها **75** درجة تقريبا. وكانت المداميك الحجرية تصنع زوايا قوائم مع ميل الحيطان. والقارئون الذين أمعنوا النظر في الفصل الأول الذي شرحت فيه بناء الأهرام المدرجة، سيدركون أن هذا كان دليلا قيما يتوصل به إلى زمن إقامة

البناء؛ لأنه في الأمثلة الباقية إلى الآن للأهرام المدرجة التي نعرفها يكون بناء الحيطان الإضافية على هذا النمط، بينما تكون طبقات الأهرام التي جاءت فيما بعد زمن سنفرو أفقية الوضع. وأسرعت إلى السيد لوير مهندس مصلحة الآثار المعماري الذي نهض أعواماً كثيرة بالعمل في هرم زوسر المدرج (وهو المسئول عن ترميم ودعم الآثار) ووجدته كالمعتاد يعمل بالقرب من هذا الهرم، وأخذنا سمعتنا معا إلى المدرج الذي كان يعكف فيه حفني وغيره من العمال على تنظيف الحيطان إلى كشف عنها حديثا. ولما وقع نظره عليها وأمعن الفحص قال لي: "لا أشك مطلقا في أن هذا من هرم مدرج" .

ومع هذا كان يوجد كثيرون يساورهم الشك. ومن سوء الطالع كنا الآن قد وصلنا إلى النهاية موسم 1952، وكنت أعلم أنه سينقضي ردح من الزمن قبل أن تتبدد هذه الشكوك نهائيا، وكنت على يقين من أنها ستتبدد، وأوقفت أعمال الحفر في مايو سنه 1952 ولم تستأنف حتى نوفمبر سنه 1953. وكان العمل قد وصل إلى مرحلة حاسمة، وشعرت بأني في حاجة إلى فسحة من الوقت لأدرس ما عثرنا عليه، وأجمع الرأي في عناية على النهج التالي الذي سأنتهجه في عملي وكان من الضروري أيضًا الحصول على اعتماد إضافي لمواصلة العمل

وفى نوفمبر من عام 1903 أعدت جمع شمل أعمالي، ومرة أخرى بدأت مركبات النقل المحملة تجلجل على السكة الحديدية، ونحن نكدح في الكشف عن المزيد من هذا البناء الذي يكتنفه الغموض وقد ركزت

انتباهي أولا على تعرف حدوده فبدأنا بتوسيع النقرة تحققنا من أن البناء يواصل سيره فى الجهتين الشرقية والغربية، ثم أمرت بنقل العمل في نفس الخط في موضع كنت أعتقد أن ركن البناء قد يكون ولقد وجدناه فيه، ولقد وجدنا أن الجانب الجنوبي كان يغطيه صلصال ناعم نتج عن حفر الدهاليز التي تقع تحت الأرض وقد بين هذا الدليل الذي لا يكاد يحس أين كان ينتهي الردم المصطنع وأين تبدأ الأنقاض الناتجة عن استخراج الأحجار من الهرم، الذي حدث بعد ذلك. وعندما تجاوز حفرنا سطح الصحراء. كان من الواضح أين ينتهي الغطاء من المواد، المعتمدة، ولم يمض زمن طويل على بدء هذا العمل، وكنت منهمكًا فى موضع آخر من الوصيد، وإذا بحسين إبراهيم شقيق حفني يجري صوبي وهو باسط ذراعيه هاتفًا "مبروك، الناصية" ومعنى هذا "أقدم التهنئة، لقد وجدنا الركن!" فانكفأت راجعًا معه، وجدت وأنا مغتبط أن معولهم أصاب ركن هرم وقد علمت وقتذاك علم اليقين أنه هرم . وما كان بالوسع أن يكون مصطبة، ويرجع بعض السبب إلى جرمه ولكن أعظمه يرجع إلى أنه ليعرف أن "مصطبة " يكون لها "حيطان إضافية"، ومداميك لهن ميل. إن هذا مما يتميز به بناء هرم.

إن لكل موقع أثري خواص تلازمه ويجب أن يعمل الإنسان زمنا حد طويل حتى يعرفها ويدرك ما حدث في سوالف الأزمنة. وبالنسبة إلى الرقعة العظيمة الشارعة التي يشغلها الوصيد فقد انتهجت منهجاً في أن أجد أولا المواضع الرئيسية، وإلا لأنفقت الكثير من الزمن والمال في كدح عديم الثمر قبل أن يتاح لي فهم أوضاع التخطيط.

وعلى سبيل المثال: بعد الكشف من هذا الركن كان من السهل أن نجد الأركان الثلاثة الأخرى. ومن الصور الشمسية يمكن أن يستبان أن هذا كان بناء مدرجاً، ولكن لم تبق منه إلا درجة واحدة، والبناء جيد الطراز، ولكن كتل الأحجار الجيرية صغار نسبياً، كما هي الحال في هرم زوسر، لم يكن البناءون قد وصلوا بعد إلى مرحلة البنائين بالأحجار الضخمة، ويبلغ ضلع القاعدة المربعة 120 متراً 400 قدم) وعلى هذا تكون القاعدة التي تكشفت أكبر رقعة من قاعدة هرم زوسر وفي حالتها غير التامة، يبلغ أقصى ارتفاعها سبعة أمتار. ولكني أعتقد أنها قد تكون ابتنيت في الأصل ولها ضعف هذا الارتفاع، ولكنها انخفضت لاستخراج الأحجار منها في أزمنة جاءت بعد ذلك. ولم توجد آثار تكسية من الخارج، ويمكن أن نستنتج أنه بدىء بنواة الهرم فقط وأنه لم يتم إطلاقاً.

وأنه بناء طبقي مربع يتكون على الظن من أربعة عشر غطاءً، يتناقص ارتفاعها من المركز إلى الخارج، وترتكز مائلة إلى نواة وسطى في زاوية تتراوح بين 71 و 75 درجة وتصنع مراقد المداميك زوايا قوائم مع خطوط الواجهة، وقد تركت "واجهات البناء" على خشونتها، وإذا فرضنا أن كل زوج من هذه الأغطية كان تصميمه أن يكون درجة واحدة، كما في هرم زوسر فيمكننا أن نستخلص أنه كان في النية أن يكون الهرم الجديد من سبع درجات مقابل ست في هرم زوسر.

ولو كان هذا الهرم قد تم فربما كان ارتفاعه يصل إلى قرابة 69 متراً ، أي أعلى من هرم زوسر بتسعة أمتار وهو يقوم مباشرة على الصخر، وشيد

بحجر جيري محلي، أشهب اللون، خشن. وكانت تسوية الكتل بطريقة مجملة، وقد رصت في ملاط يتكون من صلصال لين (طفل) مجلوب من سراديب حفرت في الممرات التي تقع تحت سطح الأرض، بعد مزجه بشظايا الحجر الجيري، وعلى وجه عام، ابتنيت الأحجار في مداميك آدية وشناوية [35] على التوالي، مقلدة بذلك البناء باللبن والمداميك مستوية ومتوازية، وفواصل المراقد أكثر اتساعا من الفواصل الرأسية. وقد عثر على شظية من لوح حدود تحمل اسم زوسر، أعيد استخدامها في البناء وهو دليل آخر على أن الهرم الجديد لابد أنه بني في تاريخ لاحق لهرم زوسر.

وهذا الطراز من البناء مما يتميز به الهرم المدرج. وهرم زوسر المدرج والهرم الطبقي في زاوية العريان كلاهما من نفس التكوين (اثنتى عشرة طبقة تميل في زاوية تبلغ **74** درجة في الهرم الأول [36]، وأربع عشرة طبقة تميل في زاوية مقدارها **68** درجة في الهرم الثاني [37]) ولهرم ميدوم أيضا نفس التكوين في المرحلتين الأولى والثانية من البناء العلوي (سبع وثماني طبقات على الولاء وميل يقرب من **74** درجة) [38]. ومصطبة زوسر الأصلية في

([35]) آدية: قالب طوب يوضع بعرض واتجاه الحائط. شناوية: " " " بطوله في اتجاه الحائط (المترجم)

([36]) ج.ب لويز: – الهرم المدرج – هندسته المعمارية **1936** الجزء الأول صفحة **217** في سلسلة حفائر سقارة، مصلحة الآثار المصرية **J.P. Lauer La Pyramide a Degres, L'Architecure, 1936 Tome 1. P. 217, In the Series Fouelles a Saqqara, Service des Antiquites de L'Egypte.**

([37]) جول رايزنر في نشرة متحف الفنون الجميلة ببوسطن ديسمبر **1911** صفحة **56** **J.A. Resener in Bulletin of the Museum of Fine arts, Boston, Dec. 1911, P. 56**

([38]) و.م.ف. بتري: ميدوم صفحة **6** **W.M.F. Petrie Meidum P.6**

سقارة التي كانت تكون النواة الأولى للبناء العلوي بنيت في طبقات مستقلة من المداميك الأفقية [39]. ولكن عندما اتخذوا تصميم الهرم المدرج" منهجاً، استخدمت المداميك المائلة في الهرم ذي الأربع درج والهرم ذي الست درج[40]. ولا يعرف أن مصطبة شيدت بمداميك مائلة. ويغلب على الظن أن هذا الوضع كان تجديداً استحدثه إيمحوتب مهندس زوسر المعماري طائر الصيت ليكفل المتانة في بناء التصميم الجديد للهرم [41] وهنا نجد صرحا عظيما من الحجر، أوسط، مقاما في طبقات مستقلة بمداميك مائلة على مستوى مربع ويحوط به سور وصيد من الحجر الجيري الأملس وهذا لا يترك إلا اليسير من الشك في طبيعة الأثر.

وبالنظر إلى انحدار القاعدة الصخرية كان من الضروري أن ترتفع بالبناء مواضع في السطح لإيجاد منصة مستوية يمكن أن يشيد الهرم توفقها. وكانت النتيجة أن مستوى الهرم ليس كمستوى سور الوصيد الشمالي، غير التام (الحائط الأبيض). ويبلغ اختلاف المستويين في الركن الشمالي الغربي للهرم مقدار **4.79** من المتر وفي الركن الجنوبي الشرقي مقدار **1.815** من المتر.

ويمكن أن يذهب الظن إلى أنه بما أن البناء استخدم كمحجر في

([39]) ج. ب. لوير في مؤلفه الذي سبق ذكره صفحة 216 .**J.P, Lauer, op. cit P.216**

([40]) نفس المؤلف الصفحات 17 – 19.

([41]) ج.ب. لوير دراسات تكميلية على آثار الملك زوسر في سقارة صفحة 35 في السلسلة ملحق تحولات مصلحة الآثار المصرية الدار 9 **J.P. Lauer Etudes complementaires sur les monuments de Rol Zoser a Saqara)Le Fascicul P.25 in the Series, Sup. A.S.A.E. Cahier No 9.)**

الأزمنة اللاحقة فإن وجوده كان معروفا حتى تاريخ حديث نسبيا. ومن حسن الطالع أني استطعت أني أتحقق من أن الأثر لم يعبث به في ثلاثة آلاف سنة وربما أكثر من ذلك. والدليل على هذا، العدد الوفير من القبور المتأخرة التي عثر عليها عمالي في أثناء التنقيب، ولما كان أقدمها يرجع تاريخه إلى الأسرة التاسعة عشرة (1349 – 1197 ق.م) ووجد بعضها يستقر فوق الهرم الدفين نفسه دون أن تمتد إليه يد العبث، فإنه من الواضح أن الحيطان التي كشفنا عنها لم تقع عليها عينا إنسان منذ ذلك العصر البعيد. كان بعضها فوق بناء الهرم والبعض في الوصيد، ولأن مثل هذا العدد الوفير من هذه القبور كان يتركز في هذه الرقعة فإنه يتضح أنها اعتبرت موقعا مقدسا مدة ألفي وخمسمائة سنة ونيف بعد أن بنى الهرم.

لقد كشف عن وفرة من هذه القبور (ومن المؤكد أن مزيدا منها سيكشف عنه) حتى إنه من غير الميسور في هذه المرحلة أن تقدم أكثر من وصف موجز لها. وعندما يتوافر لي الزمن لفحص أتم فإني أرجو نشر وصف أكثر تفصيلا في سفر قادم. وربما كان القبر الأكثر تشويقاً هو ذاك الذي يظهر في الشكلين 22 و 24 لسيدة تدعى كا – نف – نفر (الكا الجميلة مرتين) وكانت السيدة غير محنطة، وملفوفة في حصير من خوص النخيل. وكان يغطي الرأس والكتفين قناع مطابق للأصل من الكرتون المجصص وقماش مذهب ومرسوم باللون، وقلادة تتألف من خرز مصنوع من الزجاج الملون يقلد الأحجار شبه الكريمة، وتمائم من الفلسبار الأخضر والزجاج، ودمى من المرمر والقاشاني والخشب. وكان يوجد أيضا جسد رجل غير معروف يلبس مجموعة من الحلي تشتمل على خواتم للإصبع من

الذهب والعقيق وبعضها يحمل اسم رعمسيس الثاني. ويرجع تاريخ هاتين الدفنتين إلى النصف الأول من الأسرة التاسعة عشرة. ويظهر أن هذين الشخصين كانا ينتميان إلى قبيلة ليبية اختارت هذا الموقع جبانة.

وكان يوجد عدد وفير من قبور لا تضم أجساداً محنطة ومعظم الأجساد كان عطلا من الحلي أو أي نوع من الزينة وكانت الحصر من سعوف النخل والغاب والحلفاء أو سوق البردي مربوطة بحبال (انظر الشكلين 22 و 23) ولم تكن تحوي شيئاً غير العظام. وإلى جانب بعضها كانت توجد جرار من الخزف. وقد وجد بورخاردت "دفنات حصر" شبيهة بهذه، في أبي صير، وكذلك وجد جاك دي مورجان المثل في دهشور – ولكن ليس بالكثير التي وجدت بها في هذا الموقع. وعندما كنا نحفر عن الهرم والحائط الأبيض لم يكن يمضي يوم دون أن نعثر على هذه القبور، التي كان بورخاردت يعتقد أن أصحابها ينتمون إلى قبيلة ليبية ولم يكونوا مصريين. وقد سجل كوبيل بعضها في وصف حفائر سقارة في سنتي 1907، 1908.

إلى ذلك الوقت، كنت أعمل في البناء العلوي من الهرم، وكنت اعلم أن دهاليز سفلية وغرفاً لا بد من وجودها أسفله. وبعد ذلك تيسر لي أن أرتاد بعضها كما سيأتي عليه الوصف في حينه. وفي نفس الوقت كان من الضروري معرفة كل شيء يمكن الوصول إليه عن البناء نفسه، وعلى الأخص ما إذا كانت توجد أدلة يمكن أن تعاوننا على فهم الوسيلة التي شيدت بها هذه الآثار العظيمة. ولا يمكن لهرم كامل كهرم خوفو أو هرم

منكاورع أن يدلنا إلا على اليسير من تركيبه الداخلي والمناهج التي اتبعت في بنائه. أما الهرم غير الكامل كهذا الهرم، فيمكنه أن يدلي إلينا بشيء. وعلى هذا فقبل أن أواصل قصة الكشف وارتياد الممرات السفلية، فإني سأخصص فصلا يتضمن تلخيصا موجزاً عما هو معروف عن بناء هرم في عصر الأسرة الثالثة، وأختتمه بما استطعت جنيه من معلومات حتى الآن، من الأثر الجديد.

الفصل السادس

بناء هرم

لا يغيب عن البال، أن الملوك الذين دانت لهم السيطرة في النهاية على مصر بأجمعها قدموا من شق المملكة الجنوبي أي من مصر العليا،

وكان مقر حكمهم في الأصل طينة، ولهذا أطلق عليهم لقب الملوك "الطينيين" ثم في آخر الأسرة الثانية (حوالي سنة 2800 ق.م) جعلوا مقر حكمهم الجديد ممفيس ومنها بسطوا سلطانهم على البلاد برمتها. والقبور التي بنوها في مصر العليا كانت من طراز مغاير للطراز التي رأيناها في سقارة والتي كان هرم زوسر أحسن مثال لها.

ويدلي الأستاذ زايزنر في موسوعته "تطور القبر المصري حتى ارتقاء خوفو العرش [42]" بما يأتي:

"وفي مصر العليا، حتى هذا الزمن (أي نهاية الأسرة الثانية) كانت الأبنية السفلية في القبور الملكية وقبور الأفراد، أبنية من اللبن المجفف أقيمت في حفر مكشوفة، ومسقوفة بالخشب أو القباب ذوات النتوءات. وفي ممفيس في الأسرة الثانية كان الطراز الذي انتهجوه هو الطراز ذا الدرج العميق بغرف نحتت في الصخر تحت سطح الأرض، في تصميم مركب في

([42]) مطبعة جامعة هارفارد – كامبردج – 1936 ص 153 ، 154.

المقابر الكبيرة، وبغرفة واحدة في المقابر الصغيرة. وبقيام الأسرة الثالثة، نقل مقر الحكم نهائيا إلى ممفيس وغدت طرز ممفيس شائعة في البلاد كلها".

والسبب في هذا التغيير هو تقدم طرق قطع الأحجار في ممفيس، وكما يقول رايزنر:

"كان الصناع المصريون قد مهروا في قطع كتل الأحجار الجيرية إلى درجة أن كانت لهم القدرة على قطع كتل من الأحجار الجيرية في أي حجم تقريبا، وأن ينحتوا ، بناء على أمر الملك، حفراً على اتساع عظيم وخنادق (أو درجًا) في الصخر.

ولكن الحجر لم يستخدم في نطاق واسع إلا في الأبنية الملكية فقط، وكانت الكتل المستعملة أصغر من تلك التي استخدمت في الأسرة الرابعة بالجيزة، والأبنية التي كان يتألف منها قبر زوسر ووصيده هي أقدم ما لدينا في الوقت الحاضر من أبنية بالحجر المنحوت. وفي البناء والتفاصيل المعمارية، تعرض هذه الأبنية نماذج من الحجر الجيري الأبيض (كتل صغيرة نسبياً) منقولة عن الأبنية بالطوب التي ترجع إلى الأسرة الثانية السابقة لها.

لقد وصفت وصفاً موجزاً في الفصل الرابع، طريقة قطع الأحجار ونحتها. ولكن المناهج التي سار عليها البناؤون في مصر القديمة كانت تختلف وفقاً لطراز البناء الذي يسير العمل فيه. وتلك التي انتهجوها في بناء هرم لا تزال غير مفهومة فهماً تاماً. وبين أحسن الثقاة، نذكر سومرز

كلارك Somers Clarke و ر. انجلباخ R.Engelbach اللذين يمكن الاعتماد على كتابهما "البناء في مصر القديمة [43] Ancient Egyptian Masonry" في الحصول على معلومات واقعية، بعيدة عن الفرض. وكتاب آخر هو أهرام مصر [44] The Pyramids of Egypt لواضعه ج. ي. س. إدواردز J.E.S.Edwards وفيه أحدث معلومات.

ومن البداية يجب أن نعي في الذاكرة، أن الهرم كان أثراً دينياً وأن إرساء أساسه كانت تصحبه شعائر واحتفالات محكمة الأوضاع وخطوطها الأساسية معلومة [45]، ويظهر أن الملك نفسه كان يؤديها بمعاونة الكهنة والكاهنات وهم يرتدون ملابس الآلهة والإلهات[46] وكانت عناصر الاحتفال الأساسية تتكون من:

(1) تحديد الأرض بأوتاد ومد الحبل.

(2) تهشيم سطح الأرض.

(3) رش الرمل

(4) صنع اللبن.

(5) بناء اللبن.

([43]) مطبعة جامعة أكسفورد، لندن سنة 1930

Oxford University Press London, 1930

([44]) كتب بليكان لندن 1954 Pelican Books, London, 1954.

([45]) من معبد الشمس ومجموعة أبنية هرم ني – أوسر – رع.

([46]) فون بنج Von Bissing وكيز Kees – راثورس Rathures 1922 الصفحات 13 – 21 ومجلة الآثار المصرية J.E.A 20 – 183 – 4 وكذلك رسوم بارزة في معبد أدفو ودندرة.

والاحتفالان الأخيران شيقان: وربما كانا تراثاً تخلف عن أزمنة كانت تصنع فيها القبور باللبن قبل اختراع البناء بالحجر.

وخلال احتفالات وضع الأساس كانت تدفن عينات من المواد المستخدمة في البناء، تحت الأساس، ونسميها "ودائع الأساس" ومعظم الودائع التي كشف عنها إلى الآن يرجع تاريخها إلى الدولة الوسطى وما بعدها فقط، ولكن من غير المشكوك فيه كثيراً أن أمثال هذه الاحتفالات كانت تقام فيما سبق ذلك من أزمنة. وكانت هذه الأشياء، أحيانا، ألواحا من اللبن أو المعدن أو الحجر أو الخشب تحمل في المعتاد اسم الملك. ولقد عثر أسفل هرم أمنمحات الأول على وديعة تتألف من جمجمة ثور وأوان خزفية محطمة وست من لبنات الطفل تحمل كل لبنة لوحاً مكتوب عليه اسم الملك وهرمه. ولهذه العادة نظائر دنيوية حديثة. إنها لا تبعد كثيراً جدا عن الاحتفال بدفن الصحف السائرة وقطع العملة أسفل بناء قاعة البلدية المحلية.

وبعد أن تكون الأرض قد نذرت وأديت الفرائض اللائقة فإن المرحلة التالية كانت تشييد تلك الأجزاء من الصرح التي كان تصميمها أن تقع مستوى سطح الأرض.

لقد سبق أن فحصنا هرم زاوية العريان غير التام (صفحة 45) بحفرته العميقة التي كان يؤدي إليها منحدر مائل ودرج. ومن المهم أن نرق بين البناء ذي (الخندق المكشوف) كالذي يرى في زاوية العريان والبناء السفلي "النفقي" أسفل هرم زوسر، وكما سنرى فيما بعد في الأثر الجديد.

وفي كلا هذين البنائين، كانت تقع غرة الناووس التي أعدت لتضم جثمان الملك، في قرار حفرة مكشوفة ردمت بعد ذلك بالركام والأبنية. وفي المعتاد، كانت الغرفة بأجمعها في البناء السفلي وكانت تغشيها أحجار الجرانيت الذي جلب من أسوان في مصر العليا. وكانت الكتل اللازمة لسقف الغرفة تقطع في الأشكال المطلوبة وتوضع عليها أرقامها قبل أن توضع في مكانها وفي غرفة زوسر، لا تزال العلامات ظاهرة للعيان.

وبعد ذلك كان الناووس الذي هيئ لضم الجثمان يجر فوق منحدر الدخول ويوضع في مكانه. وعلى أية حال، فإن هذا يصدق فقط على الأهرام التي بنيت بعد زمن زوسر. ويظهر أنه من المشكوك فيه أن غرفة الدفن التي هيئت لزوسر كانت تحوي أي تابوت إذ تبلغ أبعاد الغرفة ثلاثة أمتار، في متر، في متر وستة وستين سنتيمتراً فقط. وكان الدخول إليها من فتحة في السقف الجرانيتي وقد سدت بسدادة من الجرانيت عظيمة الحجم كأنها سدادة قارورة (إذا أمكن المرء أن يتصور سدادة تزن ثلاثة أطنان ونصف طن). وفي كتاب "الهرم المدرج" الذي وضعه فرث وكوبيل [47] يقول أولهما:

"إن صغر حجم غرفة الناووس نسبيا، يدل على أنها لم تحو أبدا تابوتا داخليا من الخشب. وليس من المحتمل أن قطع الخشب التي كان

---

(47) س. م. فرث وي ج. كوبيل" الهرم المدرج " في سلسلة حفائر سقارة مصلحة الآثار المصرية القاهرة **1935**
3 صفحةin the series , Excavations of sakkra. Servise des Antyiquites de L`Egepte `Caero the step peramed,، Qui bell and J E C. M. firth 1935 P. 3.

يتكون منها كان من الممكن إدخالها من خلال الفتحة التي هي لها سدادة من الجرانيت، وخاصة أنها من الصغر، بحيث أن جسدا ملفوفا بقماش من الكتان كان يمكن إدخاله فقط في شئ من الصعوبة".

ولقد كانت تحفر دهاليز أخرى تحت الأرض أسفل موقع الهرم، تتصل بدهليز الدخول (ولو أنه كانت توجد أسفل هرم زوسر ممرات أخرى لها مداخل خاصة بها) وتؤدي إلى غرفة دفن أعدت لأعضاء آخرين من الأسرة الملكية [48] وإلى مخازن أو غرف تخزين للأثاث الجنازي والأواني الحجرية التي لا عدد لها، والتي كان الغرض منها إمداد الملك بما يقيم أوده في الحياة الأخرى. وبعض هذه الأواني والجوار والقصاع ربما كانت تحتوي طعاما، ولكن غيرها كانت من نوع تستدعيه الشعائر وربما لم تكن تحتوي شيئا.

ولفهم عقل المصري القديم، من الضرورة أن ندرك الدور قوي الأثر الذي كان يلعبه السحر في حياته. لم يكن من المحتم دائما أن يكون لدى الميت الشئ الحقيقي. كان في تمثيله الكفاية أحيانا، وبدلا من قرابين الطعام الحقيقي كانت أواني الطعام تفي بالغرض فقط.

ومن العسير أن نعبر في ألفاظ من عدد مثل هذه الأواني التي وجدت أسفل هرم زوسر. ويكتب كويبل عن دهليز أو مخزن فيقول:

"لقد قام البرهان على أن هذا الدهليز الأخير ليس قبرا ولكنه مخزن

---

[48] ولو أن هذه كانت أحيانا تضاف بعد ذلك.

أو بالأحرى مخزنان يبلغ طول الواحد منهما قرابة ثلاثين مترا ويقع جزء من أحدهما فوق الآخر، ويفصلهم نصف متر من الصخر فقط. ولقد هوى السقف بأكداس من الأواني المرمرية والقصاع. ولقد هوى السقف وحطم معظمها إلى شظايا صغيرة. ولا بد أنه كان منها ما يزن تسعين طناً تقريبا". [49]

وأحيانا لم يكن هذا التحطيم عرضياً ولكن من عمل الرجال الذين أودعوا الأواني في المخازن. وتوجد ملاحظة في مذكرات فرث تصف ردهات وجدها أسفل ثلاثة دهاليز طوال في المدرج الجنوبي الغربي من الهرم:

"ولقد حصل على كميات عظيمة من قطع الأواني الحجرية في الطرف الجنوبي لهذه الدهاليز، ولكن كمية هذه الأواني أقل من الكميات التي عثر عليها في الهرم المدرج نفسه، ولقد قام كل دليل على أن التكسير والبعثرة كانا عن عمد".

وإني أذكر هذه العادات الغريبة بالنسبة لنا، لأزيد توكيداً تبيان الهوة العقلية التي تفصلنا عن قدماء المصريين. وهذه الهوة يجب أن نخطوها إذا كنا نرغب في فهم معنى هذه الآثار والغرض منها.

وفي سياق الحديث، نقول إن هذه الأواني الحجرية التي توفر في صنعها الجمال (أنظر الشكلين 6 ، 7) تمدنا بالدليل عن المناهج التي

---

(49) س.م. فرث وي. ج. كويبل الهرم المدرج **C.M Firth and J.E. Quibell, The Step Pyramid**.

استخدمها البناؤون في الأسرة الثالثة في بناء أثر حجري. ومثل هذه الأواني البديعة كانت تصنع طوال أجيال قبل زمن زوسر، وأخيراً عندما بدأ قدماء المصريين، تحت إرشاد إيمحوتب البناء بكتل الحجر فإن هذه المهارة الموروثة في نحت الحجر تستبين بوضوح في عمله، ويكتب فرث:

وتوجد مهارة في البناء، بكل تأكيد، ولكنها ليست المهارة التي تجيئ متوارثة من قرون من استخدام الحجر وإدراك الإمكانيات التي تلازم طبيعة تلك المادة. إن كل شيء يبنى في شكل أصم ثم ينحت كتمثال. فعلى سبيل المثال الأخاديد العمودية أو أجزاء الحيطان البارزة والغائرة، فقد حفرت في عناء، بعد ذلك بمثقب من الظران والأزميل النحاس، ويوجد إسراف عظيم في العمل والمواد وفي نحت وتوضيب الكتل الصغيرة من الحجر. إنه فن قطاع الحجر الذين كان لديهم تقاليد طال زمنها في صناعة الأواني الحجرية (وهي صناعة بدأت في التدهور قبيل الأسرة الثالثة) ولكنهم كانوا يعالجون الحجر بما يقرب أن يكون معالجة مادة لدنة. وكما أن تلك الأواني الحجرية كانت تحاول أن تبرز أشكال الصلصال في شكل أكثر دواما وجمالا، وهي تخلق أشكالها الجدد، كذلك عني البناؤون بالجير، الأوائل، في أن يجعلوا أشكال البناء والغاب أبقى على الزمن" (فرث وكوبيل صفحة 23).

وبينما كانت الممرات السفلية تنحت، كان العمل يسير قدمًا فوق سطح الأرض لتهيئة موقع الهرم نفسه. وأحيانا، كما في هرم زوسر والهرم الذي كشف عنه حديثًا كانت تقام الأساسات على الصخر الثابت بعد

التسوية التمهيدية. وفي أوقات أخرى كانت الحال تستدعي بناء منصة من الأنقاض، مستوية، وربما كانت التسوية تجري على المنهج الذي جاء وصفه في الفصل الرابع، أي تحديد مساحة القاعدة المربعة ثم غمرها بالمياه ثم وضع علامات لمستوى الماء على الحافات. وفي حالة الهرم الجديد، أجري قدر عظيم من التسوية كما استطعت أن أتحقق من ذلك بالمزواة (الميزان الهندسي).

وفي الوقت نفسه يكون المهندس قد رسم مسقطاً أفقياً ووضع الأبعاد – ويكون حسابها بالأذرع – وزاوية الميل. ويذكر إنجلباخ:

"في هرمي سنفرو في ميدوم وخوفو في الجيزة كانت النسب بحيث أنه إذا تصورت دائرة يكون محيطها معادلا لمجموعة طول أضلاع قاعدة الخرم، فإن نصف قطر تلك الدائرة يكون ارتفاع الهرم، وهذا يعطي زاوية يبلغ مقدارها **51** ° لزاوية التكسية، أو ظا – **11/14 1**) [(50)]".

وتوجد المسائل الرياضية التي تتعلق بالأهرام في برديتين تعرفان باسم بردية رند الرياضية **Rjind Mathematical Papyrus** وبردية موسكو **Moscow Papyrus** وهاك مسألة من بردية رند.

مسألة: هرم طول قاعدته **140** ذراعاً وميله خمس قبضات وإصبع.

ما هو ارتفاعه العمودي؟

([50]) س. كلارك، ر. أنجلباخ **S. Clarke and R.Engelbach**

البناء المصري القديم مطبعة جامعة أكسفورد **1930**.

Ancient Egyptian Masonary, Oxford University Press 1930.

الحل: اقسم 1 ذراع على ضعف الميل البالغ 10 قبضات، 2 من الإصبع [1/2 10 قبضة].

احسب ب 1/2 10 لتجد 7 ، لسبع قبضات وذراع واحد.

وثلث 1/2 10 هو 7

احسب ب 140 لأن هذا هو طول الجانب

أحصل على 2/3 الرقم 140 أي 1/3 93.

هذا هو الارتفاع العمودي له.

وكان للمصريين منهج واحد فقط للتعبير عن زاوية الميل بأن يذكروها في حدود ارتفاع عمودي لذراع على قاعدة أفقية بكذا من الطبقات والأصابع، ولم يكونوا على علم بأية وسائل أخرى للتعبير عن زوايا.

أخيرا كان يفحص الموقع في عناية لتقرير مواقع الجهات الأصلية الأربع. ولم يكن لدى المصريين بوصلة، ومع هذا فقد توصلوا إلى دقة مدهشة في تحديد الاتجاهات. ففي الهرم الأكبر، مثلا، وهو بناء يبلغ طول قاعدته حوالي 230 متراً (756 قدما)، كانت الأخطاء في الجوانب الأربعة كسوراً من الدرجة كالآتي.

الجانب الشمالي   38 ً 3 َ   غرب إلى جنوب

الجانب الجنوبي　　57 ◌ً 1 ◌َ　　غرب إلى جنوب

الجانب الشرقي　　30 ◌ً 5 ◌َ　　شمال إلى غرب

الجانب الغربي　　30 ◌ً 2 ◌َ　　شمال إلى غرب

والمناهج التي اتبعها المصريون للوصول إلى هذه الدرجة من الدقة التي تبعث على الدهشة، ليست معلومة على الوجه الأتم. فربما كان، على الأرجح، يرصد نجما في السماء الشمالية وتقسيم الزاوية التي تتكون بين موقع طلوعها – المكان الذي فيه كان الرصد – وموقع غروبها، وهذا يدل على الشمال الحقيقي، وبعد ذلك يمكنهم تعيين الجهات الأصلية الأخرى.

لا يتسع المجال في فصل قصير إلا للإدلاء فقط بأوجز بيان عن بناء الأهرام، ولكن يجب أن يقال شيء عن تنظيم العمل وتتابع العمليات ومنهج البناء على قدر ما هو معروف. ولن أعلق على النظريات الكثيرة التي استعرضت خلال العصور لتبيان الطريقة التي كانت ترفع بها الكتل من الأحجار الضخمة لبناء الأهرام اللاحقة، إلى مواضعها، إلا أن نقول إنه لا يوجد أي دليل كائنًا ما كان، يعزز لاعتقاد بأن قدماء المصريين كان لديهم أية عدد آلية أكثر تعقيدًا من الرافعة والدلفين [51] والحدود. ولا يوجد أي دليل على أن البكرة كانت لديهم. ويعتقد إنجلباخ وغيره من الثقاة بأن الكتل كانت ترع فوق المنحدر بقوة الإنسان دون سواها، ثم تزلق في مكانها على مرقد من المونة السائلة (وبهذا كانت تقوم كمادة

[51] الدلفين – هو مجسم دوراني يتدحرج بدورانه حول محوره ويستعمل لتسهيل حركة الأجسام (المترجم).

تشحيم) ثم تشذب نهائيا في مكانها. ولا يوجد أي رسم للبكرة ورفع الأثقال في أي رسم أو نقش، وكذلك لا توجد دلائل على الكتل، عن علامات تركها الملقط أو الممسك، كانت بكل توكيد لتظهر لو أنهما استخدما. وحتى أدقال [52] المراكب المصرية كانت تدفع من أسفل ولا ترفع رفعاً.

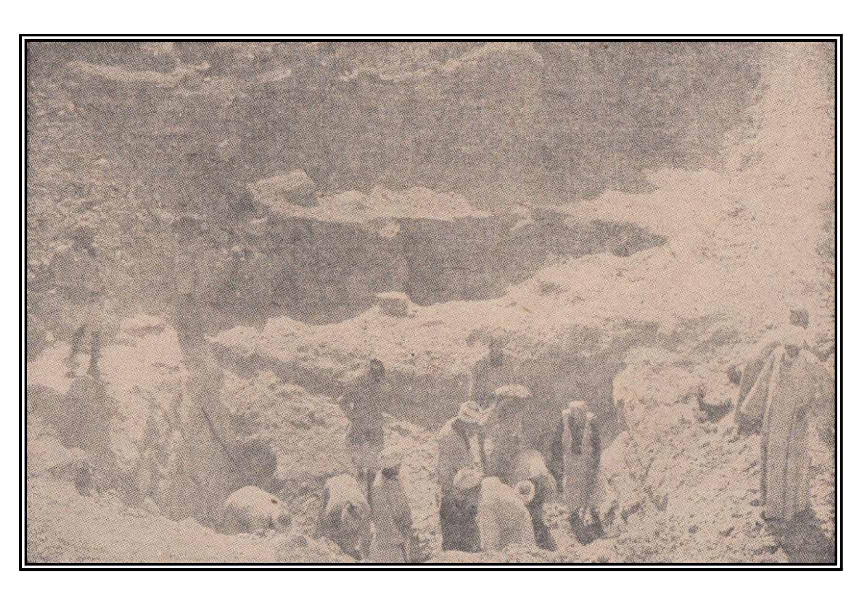
([52]) دقل – خشبة طويلة تشد في وسط السفينة ويمد عليها الشراع (المترجم).



(شكل 24) قناع وجه وحلي كا – نفر – نفر



(شكل **25**) في قمة الصورة يمكن أن يرى المنحدر الأصلي من الركام، الذي استخدم في بناء الهرم، وإلى أسفل آثار الجسور الأصلية "المرور بالقدم"



(شكل **26**)ح البحث عن دهليز الدخول إلى الشمال من بقايا المعبد الجنازي

ومن الجهة الأخرى فإن السدادة الجرانيتية التي تسد غرفة الدفن في قبر زوسر الجنوبي التي سأشير إليها فيما بعد، رفعت وأدليت دون شك بحبل يمر على عرق من الخشب لا يزال في موضعه، ولكن ذلك كان داخل البناء، ولا يوجد دليل على أن المصريين كانت لديهم أداة لرفع الأثقال يمكن حملها وتستخدم في الخارج. ومع هذا فإن هذه المشكلة لم تكن لتحدث في أهرام الأسرة الثالثة بما أن الأحجار كانت من حجم صغير نسبيا ويمكن لرجلين حملها في يسر.

ولقد شرحت في الفصل الرابع كيف كان يستخرج الحجر من محاجره، ينتظم الرجال في كتائب وفرق. ولا بد أنه كان يوجد نظام إداري واسع، معقد، ليجعل من الميسور استخراج الكتل من محاجرها ونقلها عبر النهر (في حالة الحجر الجيري الأملس للتكسية الخارجية)، وإقامة الأثر نفسه بجيش من الكتاب للمراجعة ولترقيم الأحجار عند الضرورة ولوضع الخطط لإسكان وإطعام الجموع العظيمة من البنائين وعمال المحاجر والصناع وغيرهم الذين كانوا يستخدمون في هذه الآثار. ونجد أحيانا أشياء تخلفت عن هؤلاء العمال الأقدمين: على غرار حمل تشبه ما نستخدمه منها اليوم ومناقب من الظران ومكاشط وأدوات نحاسية وجذاذات من حبال. وعندما نظفت محاجر طره التي تشبه المغارات وجدت كميات من الحبات السميكة جيدة الصنع تركها هناك، منذ آلاف السنين، العمال المصريون القدامى.

ولتسهيل حمل الأحجار المستخرجة من محاجر طره، من شط النهر

إلى الهرم، كان يقام طريق جسري، ولا تزال توجد أمثلة من هذه الطرق في الجيزة وسقارة ودهشور وأبي صير وغيرها من الأمكنة.

وبالموازنة بأسيادهم فإن هؤلاء العمال المصريين مجهولي الاسم الذين بنوا هذه الآثار العظيمة لم يتركوا تقريبا أية آثار تذكارية. وهذا يجعل من العسير علينا أن نعيد تكوين صورة لحياتهم فيها شيء من المطابقة للأصل. إننا نعرف الأدوات التي كانوا يستخدمونها وشيئا عن مناهجهم في العمل. ونعرف كيف كانوا ينظمون في فرق. ماذا غير هذا يمكننا أن نعرفه؟

ونورد شيئا عن المساكن التي كانوا يعيشون فيها.. لقد كشف الأثريون في مدينة هابو بالقرب من الأقصر بقايا فسيحة لأبنية تشبه لثكنات كان يقطن بها العمال الذين يستخدمون في بناء مقابر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة في جبانة طيبة. وعلى مقربة من الهرم الأكبر في الجيزة وجد بترى وبعد ذلك رايزنر أساسات مشابهة، لأبنية مماثلة. ويصف بتري واحدة أخرى من هذه المدن في اللاهون – بنيت في عهد الأسرة الثانية عشرة.

"يمكن أن تكون البيوت من أي حجم، ويتكون البيت من أربع حجرات إلى ست، ويحتوي كل شارع على بيوت تتشابه في حجمها. أما الشوارع فإنها تختلف في طولها ويبلغ طول أحدها ثمانية عشر متراً تقريبا لمنزلين، وشوارع أخرى يبلغ طول الواحد منها تسعة وستين متراً لثمانية أو تسعة منازل.. ويتراوح اتساع الشارع من 2/1 3 إلى 2/1 4 من الأمتار وكان يهيأ فيها لقناة في الوسط لصرف المياه ولم يكن يوجد رصيف منعزل،

لأنه لم تكن توجد مركبات في مثل هذه المدينة".

ويقول بتري: إن البيوت البسيطة كان لها فناء مكشوف في مواجهة المدخل وغرفة عامة إلى جانب، ومخازن في الجانب المقابل بدرج يصعد إلى السطح. أما الطراز الأكبر فكان له فناء مكشوف وأربع غرف تنفتح منه، وخمس غرف أخرى تعتمد على الغرف الخارجية.

وكانت أبواب هذه البيوت من الخشب ولها أسكنة (عتبة) وعارضة من الخشب أيضا مبنيتان في الحائط وعندما كانت تهبط حفر الأعتاب كان أصحابها يضعون بعض الجلد تحت العقب وفي العادة قطعة من نعل بال.

وإذا وضعنا موضع الاعتبار فرق المناخ والعادات فإن مساكن العمال هذه ربما كانت أعلى مرتبة من بيوت العمال المكدسة في شمال إنجلترا الصناعي وبعض منازل الطبقة العاملة في أمريكا الصناعية.

وعندما نصل إلى بحث مناهج الأجور نجد أنه ليس لدينا مقاييس يمكن بها أن نعقد موازنتها بأجور العالم الحديث. وفي مصر القديمة، وخاصة في الفترة الأولى، كانت الأجور تدفع عينًا، ويذكر ليونارد كوترل في كتابة "الحياة في عهد الفراعنة" الملاحظة الآتية عن هذا:

"وعندنا، بما لدينا من نظم أعمال البنوك والنقد يخال أن مثل ذلك النظام بدائي، ولكن قدماء المصريين لم يجدوا فيه عسراً فقد كانوا يقيمون الأسواق ويدفعون الرواتب ويقرضون بالفائدة ويجمعون الضرائب دون أن تتبادل الأيدي عملة".

ويظهر أن الرجل من الطبقة العالية من مهرة الصناعة كان يستمتع بسكن مربح، إلى حد معقول، له ولأسرته ولكن الجانب الأعظم من العمال غير الماهرين الذين جلبوا من عمال الأرض، أولئك الذين كان يأتي عليهم الفيضان بالبطالة، ربما كانوا يسكنون مآوى خشنة. ولكن كان يضمن لهم الطعام"

والسؤال الذي يتطلب رداً هو: "كيف بنيت الأهرام فعلاً؟"

وصعوبة الجواب عن هذا السؤال هي أنه لا توجد أدلة مصورة أو مكتوبة وصلت إلينا من أزمنة مصر القديمة. ولقد قدمت نظريات عدة في هذا الشأن تتجلى فيها المهارة، والكثير منها يشتط فيه الخيال. ولقد قدمت إلى هيردوتس (**Herodotus**) "أبي التايخ" الذي زار مصر في القرن الخامس ق.م. شرح يبعث على الحيرة، ولكنه خليق بأن يقتبس.

يقول المؤرخ الإغريقي هيدوتس

"وهذا الهرم (الأكبر) بني هكذا: في شكل درج.. ولما بنوه أولا بهذه الكيفية، رفعوا الأحجار الباقية بآلات صنعت من قطع قصار من الخشب، وحين يتم رفعها من الأرض إلى أول صفة من الدرج، وعندما يصل الحجر إلى هناك، كان يوضع في آلة أخرى، تنتظر على أهبة الاستعداد على أول صف، ومنه كان يجر إلى الصف الثاني على آلة أخرى، ذلك لأن الآلات كانت متعادلة في العدد مع عدد صفوف الدرج (أو أنهم كانوا ينقلون الآلة، التي كانت واحدة فقط، وقابلة للحمل إلى كل صف على الولاء،

كلما أرادوا رفع الحجر إلى أعلى، فيجب أن أقص كلا الفرضين كما حكي لي). وعلى هذا فإن أعلى الأجزاء فيه كانت أول ما يتم، وبعد ذلك كانوا يكملون الأجزاء التي تأتي بعدها، وفي النهاية كانوا يكملون الأجزاء التي تقع على الأرض، وهذه كانت أوطأها".

لقد كان هيردوتس يشير بالطبع إلى الهرم الأكبر في الجيزة التي تزن الواحدة من كتله أطنانا كثيرة، على غير شاكلة هرم زوسر والهرم الجديد الذين بنيا بكتل أصغر كثيرة، لا تحتاج إلى معونة آلية لرفعها، ومع هذا فإنه من المشكوك فيه كثيراً إذا كانت "القطع القصار من الخشب" لا شيء أكثر تعقيداً من الرافعة. ولقد لفت بعض العلماء النظر إلى النماذج من الهزازات، التي وجدت في (ودائع الأساس) في الدولة الحديثة. وهذه تتكون من قطعتين من الخشب حنيا في أسفلهما كالهزازات، في الكرسي الهزاز وتألفتا بمردن. ويذهب القول إلى أن الكتل كانت "تهز" فوق جانب الهرم درجة، وتوضع في مكانها ولكن كما يذكر كلارك وإنجلباخ [53]:

وليكن في العلم أنه كانت توجد هزازات في أعداد لا نهاية لها، ومن المتانة بحيث تسند كتلا يبلغ وزنها عشرة أطنان، وكانت الكتل تهز درجة بعد درجة ثم توضع في محلها. وعند الوصول إلى القمة، يكون مظهر الأثر قريبا جداً من مظهر أهرام الجيزة، اليوم وفي وضع التكسية يقوم احتمالان: إما أن كتل تكسية القمة كانت تهز أيضا صعوداً، وكانت المداميك الأوطى

([53]) س. كلارك، ر. أنجلباخ، البناء المصري القديم، مطبعة جامعة أوكسفورد 1930، صفحة 121

S. Clarke and R.Engelbach, Ancient Egyptian Masonary, Oxford University Press, 1930. P.121

بثمة طريقة خفية تنزلق تحتها ، وهو أمر مستحيل آلياً. أو أن مظهر كتل التكسية قبل أن ننحت أوجهها كان مظهر سلسلة من الدرج، لأنه لم يكن في الاستطاعة بأية وسيلة أن تهز هذه الكتل أيضاً إلى أعلى. وهذا يناقضه مباشرة مظهر كتل التكسية غير الكاملة في الهرم الثالث، وكذلك كل الأمثلة الأخرى المعروفة للأبنية غير التامة.

ونظرية أخرى هي أن "الواجهات الإضافية" – الحيطان المستقلة من البناء، التي تستند إلى نواة وسطى – لعبت دوراً جوهرياً في طريقة البناء النسقية. إن النواة الداخلية بنيت أولاً ثم الحائط الداخلي إلى أقصى ارتفاعه وبعد ذلك يبدأ البناؤون، مرة أخرى، من القاعدة، في بناء الحائط الإضافي الثاني وهكذا إلى أن يتم البناء.

والحجة الرئيسية لدحض هذه النظرية هي أنه بما أن قدماء المصريين لم يكن لديهم آلة لرفع الأثقال كان يلزم تناول الكتل من الأمام. والطريقة الوحيدة التي كان يمكن أن ترفع بها الكتل الضخمة والتي استخدمت في الأهرام اللاحقة كانت المنحدرات تقام مرتكزة على جانب البناء، ونعلم أن هذا المذهب كان متبعاً في الأزمنة المتأخرة، لأن هناك منظراً من الدولة الحديثة يصور حائطاً يجري البناء فيه بهذه الوسيلة. وكذلك حتى زمن قريب، كان يستطيع المرء أن يرى مثل هذا المنحدر يقوم إلى جانب أحد صروح معبد الكرنك[54] وتوجد أيضا بقايا مثل هذه المنحدرات في هرم

---

[54] س. كلارك، ر. أنجلباخ ، نفس المؤلف شكل 87.

S. Clarke and R.Engelbach,, op. cit., Fig. 87.

أمنمحات لأول في اللشت وفي هرم ميدوم.

والآن إذا كنا نقبل الاعتقاد أن كل حائط من الحيطان الإضافية كان يبنى حتى أقصى ارتفاعه قبل أن يبدأ بالذي يليه، كان علينا أن نفترض أنه بعد أن يتم كل حائط فإن المنحدر الضخم يزحزح إلى الخلف ليفسح المكان لبناء الحائط الإضافي التالي، من الحجر ويترتب على هذا ضياع كبير للعمل، في حين أنا نعلم أن المصريين كانوا منظمين للعمل بدرجة فائقة. والاتجاه الآن هو اعتبار القصد من إقامة هذه الحيطان الإضافية بأنه كان لتوطيد البناء، وأنها في الواقع كانت تبنى في وقت واحد.

ويذهب ظن المناصرين لهذه النظرية إلى أن تتابع خطوات البناء كان كالآتي: بعد أن تصنع منصة الأساس، يقوم البناؤون ببناء أول طبقات البناء وإلى أحد جوانب الهرم كانوا يبنون منحدرا ترفع عليه الأحجار بزحافات.

"وكلما زاد الهرم ارتفاعا، ازداد المنحدر ارتفاعا وطولا. وفي الوقت نفسه يصبح سطح القمة أضيق رقعة على التدرج ليتلاءم مع عرض واجهة الهرم التي تأخذ على الدوام في النقصان. فإذا كانت زاوية ميل الهرم 52° فإن وجهتي المنحدر تميلان في زاوية مقدارها 52°، وعلى ذلك يستبعد أي خطر من انزلاق الأرض. والجوانب الثلاثة من الهرم التي لا يغطيها منحدر "الإمداد" كانت تهيأ بجسور للمرور بالقدم على اتساع كاف في القمة ليسمح بمرور العمال ومواد البناء، ولكن بما أنها لم تكن لازمة لرفع الأحجار من الأرض فإن تدرجها في السطح الخارجي المكشوف يكون

انحدارهم بالقدر الذي يلائم ثباتها، وكانت توضع روافد من الخشب – وجد المنقبون الأمريكيون في اللشت بعضها فعلا في مكانه على سطح قمة منحدر الإمداد وجسر المرور بالقدم لتوجد طريقا ثابتا لمرور الزحافات التي تحمل كتل الأحجار"

والفقرة التي اقتبسناها من كتاب ج. أ. س. إدواردز الرائع "أهرام مصر" تدل على اتجاه التفكير في زمننا عن بناء الهرم. ولو أنه يكتب على الأخص عن الأهرام التي جاءت في زمن لاحق، والمشيدة بالكتل الضخمة. ولا يوجد سبب للزعم أن نفس المنهج لم يكن متبعاً في بناء الأهرام السابقة لهرم كهرم زوسر وذاك الذي كشفت عنه.

ونعود مرة أخرى للهرم الجديد: في خلال تنقيبي في موسم **1953 – 54**، وجدت أدلة يظهر أنها تؤيد النظرية السابقة، ولو أن التأييد التام لا يمكن الوصول إليه إلا بعد مزيد من البحث في المنطقة التي تحوط بالهرم. ولكني وجدت في ثلاثة جوانب من البناء أدلة على جسور بناء تكاد تكون محققة، وكذلك جسور المرور بالقدم التي جاء وصفها والتي كان الغرض منها تمكين العمال من الوصول إلى الأجزاء العليا من الأثر. إنه تتكون من طفل (شذرات من الصلصال الناعم) المجلوب من الدهاليز السفلية. ولقد لحظت حقيقة شيقة، وهي أن قمة هذه الجسور أكثر ارتفاعا من المستوى الحالي للهرم مما يوحي بأنها بنيت في الأصل إلى مستوى أعلى من المستوى الحالي، وأن المداميك العليا للهرم أزيلت في أثناء عمليات استخراج الأحجار.

وكذلك إلى الجانب الغربي من البناء الأقرب إلى المحجر، وجدنا جزءًا من المنحدر الذي كانت تُرفع الأحجار عليه. وهذا المنحدر وجسر المرور بالتقدم يمكن معاينتها في الشكل 25. ولو كان الهرم أكمل لكان المنحدر والجسور قد أزيلا على التدريج كلما وضعت أحجار التكسية، وهي عملية سآتي على وصفها في فصل قادم، عندما ألخص نتاجي. إن الوقت لا يزال باكرا للتنبؤ ولكن حقيقة تظهر مؤكدة، وهي أن لدينا هنا أول مثال لهرم كان لا يزال يسير فيه البناء، وربما يتيح فرصه لحل المسائل التي حيرت أجيالا من علماء الآثار.

الفصل السابع

البحث عن دهليز الدخول

لقد استنفد العمل الذي وصفته زمنا وصل بنا إلى أول أسبوع من يناير سنه **1954**، وأنفق ما تبقى من ذلك الشهر في محاولة التعرف على مكان مدخل البناء السفلي المستخفي. وكما ذكرت، كانت الأهرام تتجه في دقة إلى الجهات الأصلية الأربع،

وكانت مداخل أهرام الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، على الدوام، على المحور المركزي للجانب الشمالي.

وأسباب هذا لا يمكن فهمها دون شيء من العلم بمصير الملك بعد الموت.

عندما كان يموت الملك، كان يعتقد أنه يتحد مع أوزوريس (إله الموتى). وكان القبر يضم جثمان الملك، ولكن أبواب الأرض تفتح عندما يدعو أنوبيس (إله الجبانة) الملك. وتصعد روح الملك إلى السماء بعد الآن تجتاز منطقة أبيدوس المقدسة (حيث كان مثوى أسلافه).

وفي السماء ستستقبله أرواح أسلافه الذين يحولونه إلى روح ذي مكانه رفيعة مباركة، وبهذا يستيقظ للحياة الأبدية، ثم يدخله في الآخرة إله

الشمس رع الذي يقيمه ملكا على الملتوى. وهو يتنقل في السماء مرتفقا الشمس في دورتها.

إنك تهبط معه (إله الشمس)

إنك تشرق، وتفتح الطريق خلال

عظام شو (إله الهواء)

إنك تشرق وتغرب، إنك تشرق مع رع..

إنك تشرق وتغرب.. تغوص هابطا في

الغسق بقارب المساء الذي للشمس[55]

إنك تشرق وتغرب، إنك تشرق مع

إيزيس صاعدا مع قارب الصباح الذي للشمس [56]

"من نصوص هرم أرناس"

وهو يتنقل أيضا مع النجوم في "مسالك السماء الجميلة"، ويجدون فيه نظريا لأحد النجوم القطبية. وفي صفته هذه يدور حول القطب في شق

([55]) ما يطلق عليهما " قاربا الشمس"، هما اللذان كان يذهب الظن إلى أن الشمس تقوم فيهما بالرحلة الليلية من الغرب إلى الشرق، والرحلة النهارية من الشرق إلى الغرب، على التوالي، وكان الأول يسمى "قارب الغسق" والثاني "قارب الفجر".

السماء الشمالي، ولكي يتاح له الوصول إلى هذه المرتبة كان من الجوهري أن يكون مدخل هرمه في الجانب الشمالي. (أنظر هـ. فرنكفورت – الملك والآلهة – **kingship and the gods H frank fort** شيكاغو سنه **1948** – الصفحات **111 – 118**)

ويقع أيضا، المدخل الأصلي لهرم زوسر، في الجانب الشمالي، ولكن على مسافة من الأثر.

وبادئ ذي بدء، كان علي أن أجمع الرأي عما إذا كان يوجد مدخل على الإطلاق – ولو أنه لم يكن يخامرني إلا قليل من الشك في هذا، إذ كنت على يقين من أنه لا يمكن إقامة بناء أعلى دون أن يبدأ بالبناء السفلي. ويجب أن يكون إلى الشمال على المحور المركزي، وكنت بذلك عليما، ولكن في أي موضع؟ كشفت أولا عن الجزء الأوسط من جانب الهرم الشمالي ثم نقبت في المنطقة التي تقع إلى الشمال مباشرة، وسرعان ما وجدت ما كان يظهر أنه بقايا معبد جنازي ويجب أن أذكر في هذه المرحلة أنه كان للأهرام المصرية – في المعتاد – معبدان: واحد على تخم الصحراء والوادي المزروع، والآخر على مقربة من الهرم نفسه. وكان يصل بينهما طريق جسري من الحجر كما أسلفنا وصفه، وقد أقيم في الأصل لتسهيل نقل الحجر، وبعد ذلك فيما يظهر، كان يستخدم لأغراض دينية.

ولقد بقي لدينا أمثلة قليلة من المعابد السفلية، إن الغرض منها ليس معروفا على التحقيق، ولكن ربما كانت تستخدم لغسل جثمان

الملك، بمقتضى الفرائض، قبل التحنيط، وربما لاحتفال التحنيط نفسه وكانت تحوي مخازن وغرفا للعبادة، وأحيانا يكون فيها أحواض وقنوات ربما تتصل بالشعائر الجنازية. وأحسن معبد سفلي أو معبد "واد" مصان هو معبد خفرع في الجيزة، ولا توجد آثار لمعبد "الوادي" للملك زوسر.

وكان يقوم المعبد الأعلى أو المعبد الجنازي قريبا من الهرم نفسه. ويقع معبد زوسر في الجانب الشمسي، ولكن منذ زمن سنفور وما بعده أصبح يقع في المعتاد في الجانب الشرقي. ومره أخرى، لا نعرف على الوجه الأتم الوظائف التي كانت تؤديها هذه الأبنية، ولكن يظهر أنها كانت تستخدم للقرابين التي تقدم في محراب القربان، وهنا أيضا ربما كان الكهنة يؤدون احتفال "فح الثم" الذي به كانت تضفي على مومياء الملك وتماثيله الحياة، عن طريق الشعائر الدينية.

وكان يقوم هذا الاحتفال على سلسله معقده من الفرائض التي كانت أثاثا صخريه في طبيعتها . وكان يقوم بالخدمة في ذلك الاحتفال الكاهن (سم) الذي كان يمثل حوريس أبن أوزوريس. ولما كان الملك المتوفي يتخذ شخصية أوزوريس فإن هذا الكاهن كان ابن الملك، أو إذا لم يكن ابنه، فمن المعتاد أن يكون خليفته سواء أكان ابنه الحقيقي أم لم يكنه. وكان الكاهن الذي يقوم بالخدمة وهو يرتدي جلد فهد يعيد إلى الملك المتوفى – يرشده الكاهن المقرئ – القدرة على استخدام أعضائه

على وجه مومياثه بأدوات سحرية متنوعة، وخاصة "القدوم"[57] (أو الساق الأمامية لثور كان يذبح في هذه المناسبة) و"الإزميل". ثم كان يدهن الفم والعينان بسبعة زيوت مقدسة أو أنواع من الطيب. وبهذا كان يتاح للملك المتوفى أن يتناول الطعام والشراب اللذين كانا يعتبران ضروريين لبقائه، وأن يستمتع باستخدام كل الوظائف الحيوية في الآخرة. ثم كان لزاما أن يجري على المومياء شعائر التزيين. وكان التزيين يقوم أساسا على التطهير اليومي الذي كان يظن أن رع (إله الشمس) يؤديه قبل أن يبدأ رحلته عبر السماء.

وكان يمتلك هذا الاحتفال – وافي التفاصيل – بتطهير المومياء بالماء المقدس مقراً طاهرا [58] وحرق البخور وكان يختم بوليمة مقدسة للملك الذي أعيد إلى الحياة وكذلك للنائحين. وبعد الوليمة كانت تؤدى فرائض النواح التي كانت في الواقع احتفالات توديع، وأخيراً كان الجثمان يودع في مكانه المعين، من القبر.

---

(57) كانت "القدوم" والساق الأمامية البديلين الأرضيين طراز أول في الماء نعرفه اليوم باسم الدب الأعظم أو المحرات، أعظم البروج الشمالية ظهورا لليمان. وتظهر هذه المجموعة من النجوم في مصورات السماء، في مصر القديمة على شكل قدوم نجار (كالتي كانت تستخدم في مصر) وبعد ذلك كساق أمامي لثور. ويجيئ وصف "القدوم" في نصوص الأهرام كأداة من الحديد "كانت تفتح فم الآلة.. تلك التي بها فتح حوريس فم أوزوريس بالحديد الذي جاء من الدب الأعظم" ولا بد أنه كان "للأزميل" صفة مشابهة، وكمرجع لهذه الفكرة وتطورها أنظر عجلة ج. أ. وينريت **C.A. Wainwright** اللامعة **A Pair ol,f Constellations, published by G. A. Wainwright in Studies presented to F. Li Griffith Egypt Exploration Society, London , 1932, pp. 373 – 383**

(58) بما أن كلمة كا ستجىء في هذا الموضوع، وخاصة في الجزء الأخير، فمن الضروري أن نأتي بعبارة شارحة. أن شتايندورف (**Steindorff**) يعادل هذا اللفظ بالتعبير الإنجليزي. الروح الحارس، ويدعوها إرمان (**Erman**) "القوة الحيوية" وماسبيرو (**Maspero**) "القرين". وكانت الكا تولد في نفس الوقت الذي يولد فيه الفرد وكانت غير قابلة للفناء في الحياة الأخرى، لقد كانت الروح الحامي.

وبخلاف محاريب القرابين، كان المعبد الجنازي يحوي أيضا مخازن وقاعات استقبال ومجموعات من التماثيل، ولقد عثر على طائفة من أحسن الأمثلة للتماثيل المصرية في معابد الهرم.

ولقد بني معبد زوسر الجنازي فوق مدخل هرمه، وعلى هذا فعندما كنت أكشف عن الأبنية التي تقع في الجانب الشمالي من البناء الذي وجد حديثاً، والتي كانت تظهر أنها بقايا بناء جنازي، كان من الطبيعي أن أبحث عن المدخل هناك، ولكن على غير طائل. ثم نقلت العمل مسافة أبعد إلى العمال، ولكن كنا لا نزال على مجمور الهرم المركزي، في موضع لاحظت فيه تقعرا غريبا في الرمل (أنظر الشكل 26) لقد كان على شكل هلال مقعر وكان يوحي بوجود فجوة أسفله. وكان يوجد أيضا دليل آخر ذو مغزى، إذ امتد على مدار الهرم جسر مربع نتج عن استخراج الأحجار من بناء الهرم، وفي وسط هذا الجسر كانت توجد فجوة. ولقد شجعني هذا كل التشجيع على القيام بالتنقيب في هذه الرقعة، وفي الثاني من فبراير سنة 1954، على مسافة تقرب من 22.5 متراً من جانب الهرم الشمالي، ارتطمت معاول عمالي بحافة المدخل الخارجي للبناء السفلي، الذي قام بالدليل على أنه خندق طويل مكشوف منحوت في الصخر تحوط به في القمة جدران داعمة ضخام (أنظر الشكل 27).

ولقد أخذ الانفعال مني ومن عمالي كل مأخذ. وكان من الجلي أنه كلما أمعنا في الحفر في الرمل وتكشف مزيد من الخندق، كنا ندنو من مدخل البناء السفلي للهرم. والسؤال الذي كان يقلقنا هو: "هل سنجد

المدخل سليما أم أن لصوص القبور ولجوا الهرم قبلنا؟". وهذا أمر مشكل يشغل عقول كل علماء الآثار المصرية. إن الناس الذين لا عهد لهم بهذا العمل، يعيرون جهودنا أحيانا نوعا من التدنيس، مما يؤسف له أن الحقيقة هي أن قدماء المصريين أنفسهم كانوا أكثر مهارة في فن سرقة القبور من الأثريين المحدثين الذين يسيرون على النهج العلمي، وأشد قسوة إلى حد بعيد. وتستطيع أن نقرأ سجل الحفائر المصرية، خلال القرن الماضي وستجد المرة بعد المرة تلك العبارة التي تبعث على الأسى "ولكن وجد أن القبر سرق في الأزمنة القديمة".

ومن بين جميع قبور الفراعنة في وادي الملوك بالأقصر، وجد قبر واحد فقط، وهو قبر توت عنخ آمون يكاد يكون سليماً. وحتى هذا سرق جزئيا، ولو أنه من حسن الحظ، فوجىء اللصوص، كما يظهر، قبل أن يتموا عملهم. أما عن الأهرام فإنه لا يوجد هرم لم يأت عليه النهب منذ آلاف السنين. والسبب بسيط أن عادة دفن الملوك في توابيت من الذهب وقد تزينوا بالحلي الذهبية وأحيطوا بأثاث جنازي ثمين كان فيها إغراء تجاوز الحد، لمن خلفوهم ويكتب بيكي (59) **Baikie**:

"لا بد أنه جاء حين من الزمن كان مختزناً فيه مزيد من الثروة سواء أكانت سبائك من المعادن النفيسة أم مصنوعات فنية أكثر من أي مكان آخر في العالم، ولكن من المشكوك فيه كثيراً أنه قد طال إلى أمد بعيد، أو

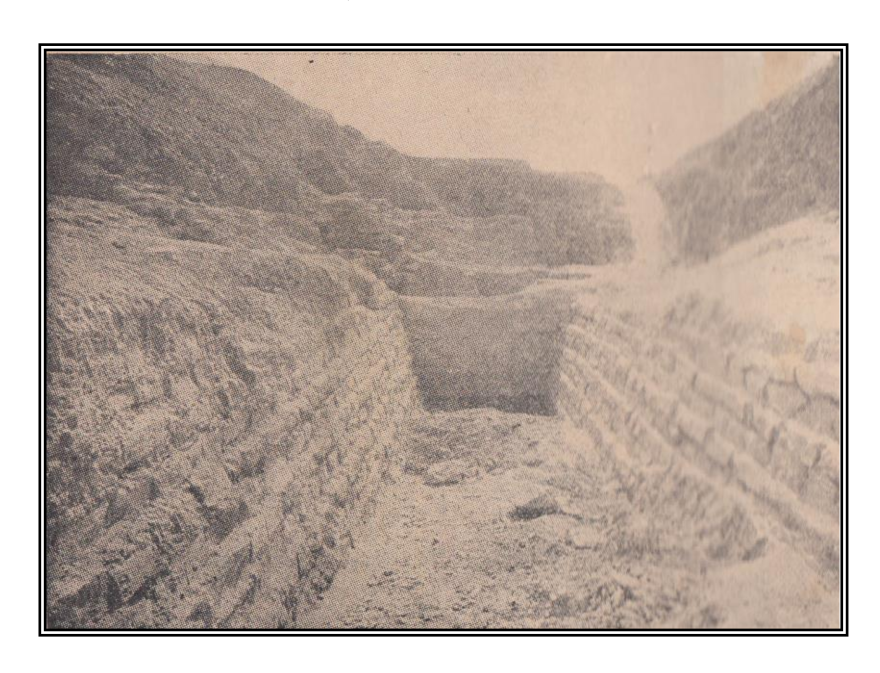
---

(59) الآثار المصرية في وادي النيل صفحة 466

Egyptian Antiquitioo of he Nilo Volloy P, 166,

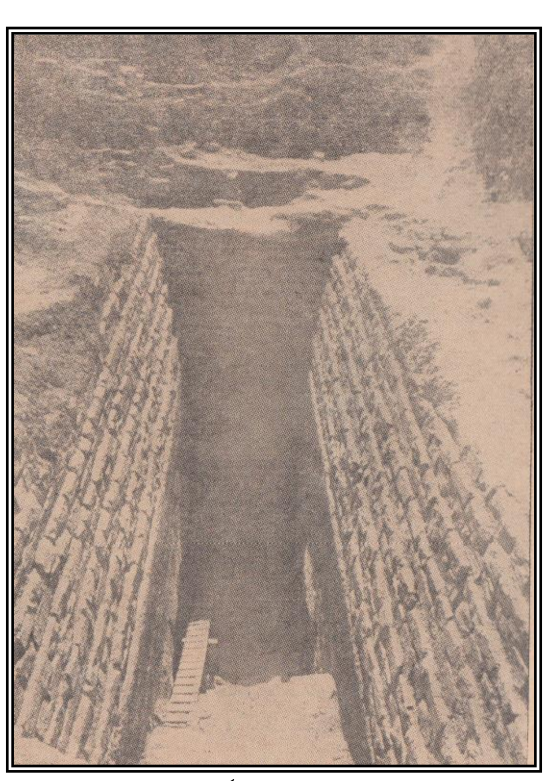
أن جميع كنوز أسرة واحدة قد بقيت سليمة حتى ختماها أو لسنوات قلائل بعدها.. ولقد فشلت وسيلة بعد وسيلة؛ فأهرام الدولة القديمة الهائلة وممرات التيه المحكمة في أهرام الدولة الوسطى، المتواضعة قام البرهان على أنهما كليهما كانا عديمي الحول أمام مهارة لصوص المقابر المصرية المتوارثة".

لقد كانوا شجعاناً مجازفين، ويصف ليونارد كوترل في مؤلفة "الفراعنة المفقودون" في أسلوب واضح أخاذ؛ الأهوال التي كان يجب أن يتغلب عليها أولئك اللذين أوتوا جسارة على اقتحام غرفة دفن الملك



(شكل 27) مدخل الهرم – خندق منحوت في الصخر،

عميق بحيطان داعمة في القمة، كشف عنها جزئيا



(شكل 28) المدخل وقد كشف تماماً، وفي النهاية القصوى الباب المختوم، الموصل لدهليز الدخول وفي خلفية الصورة بقايا المعبد الجنازي

ويذكر كل من زار غرفة دفن الملوك المصريين الفزع الذي تثيره في أقل الزائرين المعاصرين حساسية. ويمكن أن تصور مشاعر "أسنبفر" ورفاقه السبعة [60] وهم يخشون القصاص المروع الذي كان ينتظرهم إذا قبض عليهم، ويخشون أكبر، سخط الملك الذي كانوا ينتهكون قبره، لأنهم كانوا يعدونه إلهاً، وفي خلجات ضوء مشاغلهم كانوا يلحون على حائط مقصورة الدفن شخوص ساكني العالم السفلي، المنحوت والمصور منها، وآلهة

([60]) لصوص مقابر طيبة، ولا يزال يوجد بين أيدينا سجل مما كتبهم.

الرعب الذين غدوا الآن رفاق الملك وحماته. وربما كان البعض يترددون وجلين، إلى أن يدفعهم الجشع والنهور دفعًا. ومن كان منهم أكثر جسارة، كان يشد أزر خائر القلب، ثم دقات المطارق ذات الرنين على النحاس، ثم فتح الناووس عنوة وتحطيم التوابيت الثلاثة وتمزيق الأربطة الجنازية، وأخيراً اللهب والدخان المنبعثان من المومياوات المحترقة التي تغشى النقوش المقدسة بالسواد، عندما يكافح اللصوص راجعين من خلال نفقهم وهم ممسكون بالحلي من الذهب والفضة التي كانت تزين الأجساد الملكية.. (61)
.

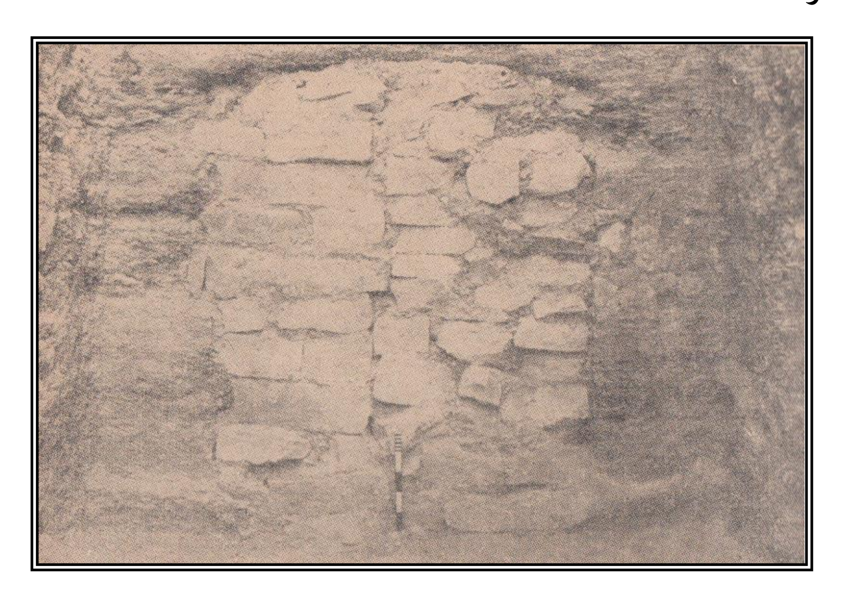
هل مر على هرمنا مثل هذا المشهد؟ وعندما حفرنا إلى قرار الخندق وقد نفد صبرنا لنجد المدخل، استولى علينا العجب؛ لقد وجدنا المدخل موصداً في مراحل بالبناء السميك وقد ملئت الفجوات بأحجار مفككة. وكان به منحدر يسير هبوطا من الشمال ويؤدي إلى باب يبلغ اتساعه 1.93 من المتر وارتفاعه 2.34 من المتر نحت في الصخر الأصم. وقد بث الطمأنينة فينا أننا وجدنا الباب سليما، موصداً بالبناء. وكان سد الباب مبنياً في قسمين يشغلان فراغه تماماً، وكما كشفنا بعد ذلك، يملأ جزءًا عظيمًا من الدهليز الداخلي الذي يوصل إليه. وكان الجانب الأيسر من السد مبنيًا بناءً منظمًا بينما كان القسم الأيمن مبنيًا بناءً خشنًا (أُنظر الشكل 29) ودل وجود سد الباب سليما سلامة تامة فيما يظهر، على أن صاحب الهرم المدرج غير التام دفن في البناء السفلي، ولقد توصلت

---

(61) ليونارد كوترل "الفراعنة المفقودون" لندن 1950

Leonard Cottrell, The Lost Pharaohs London, 1950

إلى نظرية عدلتها فيما بعد عن سبب ازدواج السد. وكتبت في ذلك الوقت:



(شكل **29**) باب الدخول لبناء الهرم السفلي والسد في مكانه لاحظ أنه مبني على قسمين

"يمكننا أن نستنتج أن جانب الباب الأيسر، وكذلك الجانب الأيسر لأول جزء في الدهليز الداخلي أوصد قبل وفاة صاحبه وترك الجانب الأيمن مفتوحاً ليكون ممراً لإدخال المومياء يوم الدفن. وفي النهاية أوصد هذا أيضا بدوره بعد الدفن".

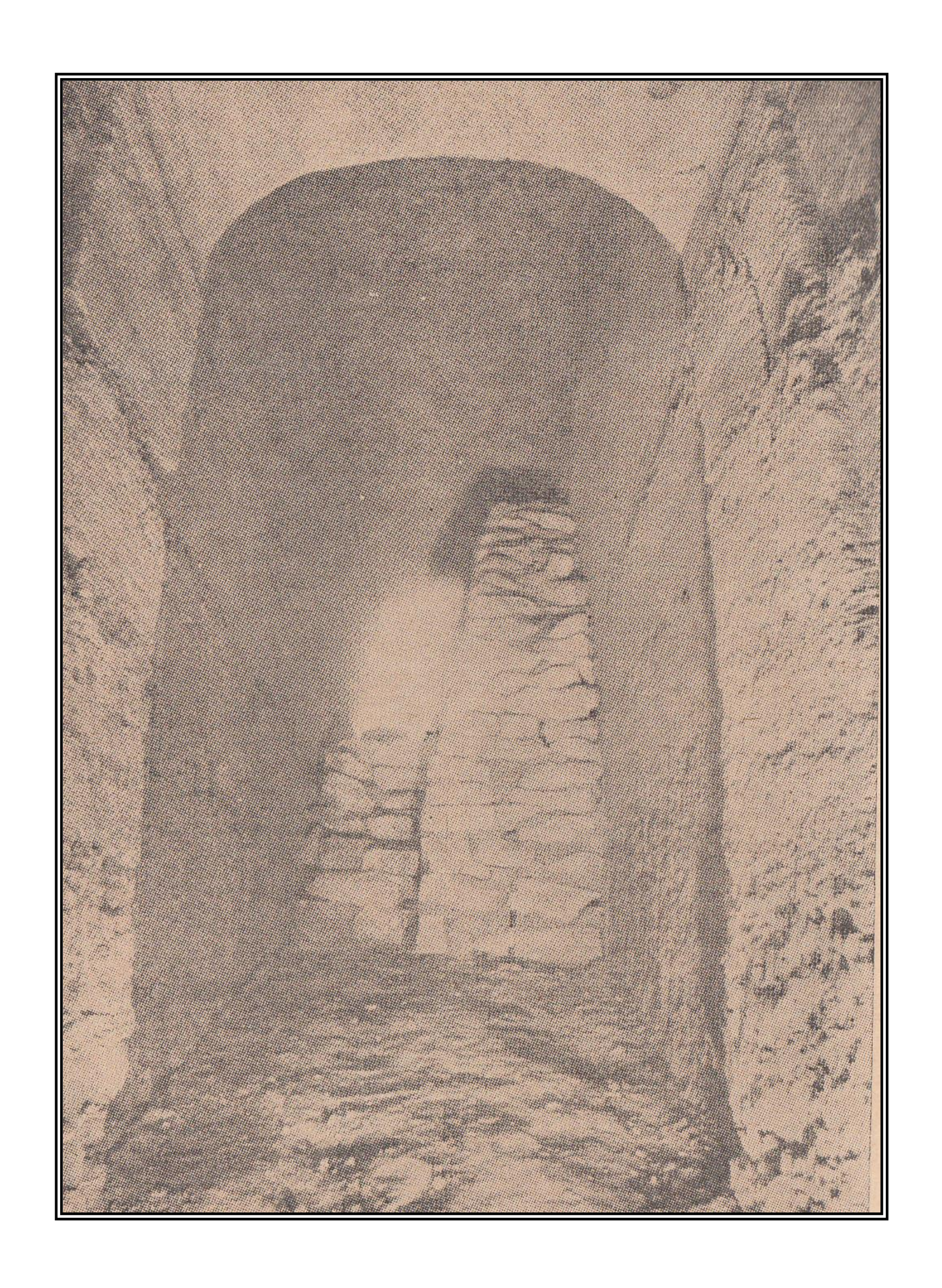
وفتحنا الهرم في اليوم التاسع من شهر مارس سنة **1954** بمحضر السيد وزير التربية والتعليم في ذلك الوقت الدكتور عباس عمار والمدير العام لمصلحة الآثار الدكتور مصطفى عامر وموظفين آخرين.

وكان يوجد أيضا مندوبون كثيرون عن الصحف المصرية والأجنبية ومن بينهم مراسلون من الشرق الأدنى وأوربا والولايات المتحدة، حتي من الأرجنتين والبرازيل، وكان يوجد كثير من المصورين ومندوبون من شركات الإذاعة الأمريكية والأوربية ومعهم آلات التسجيل. هكذا يعمل الأثري في العصر الحديث.

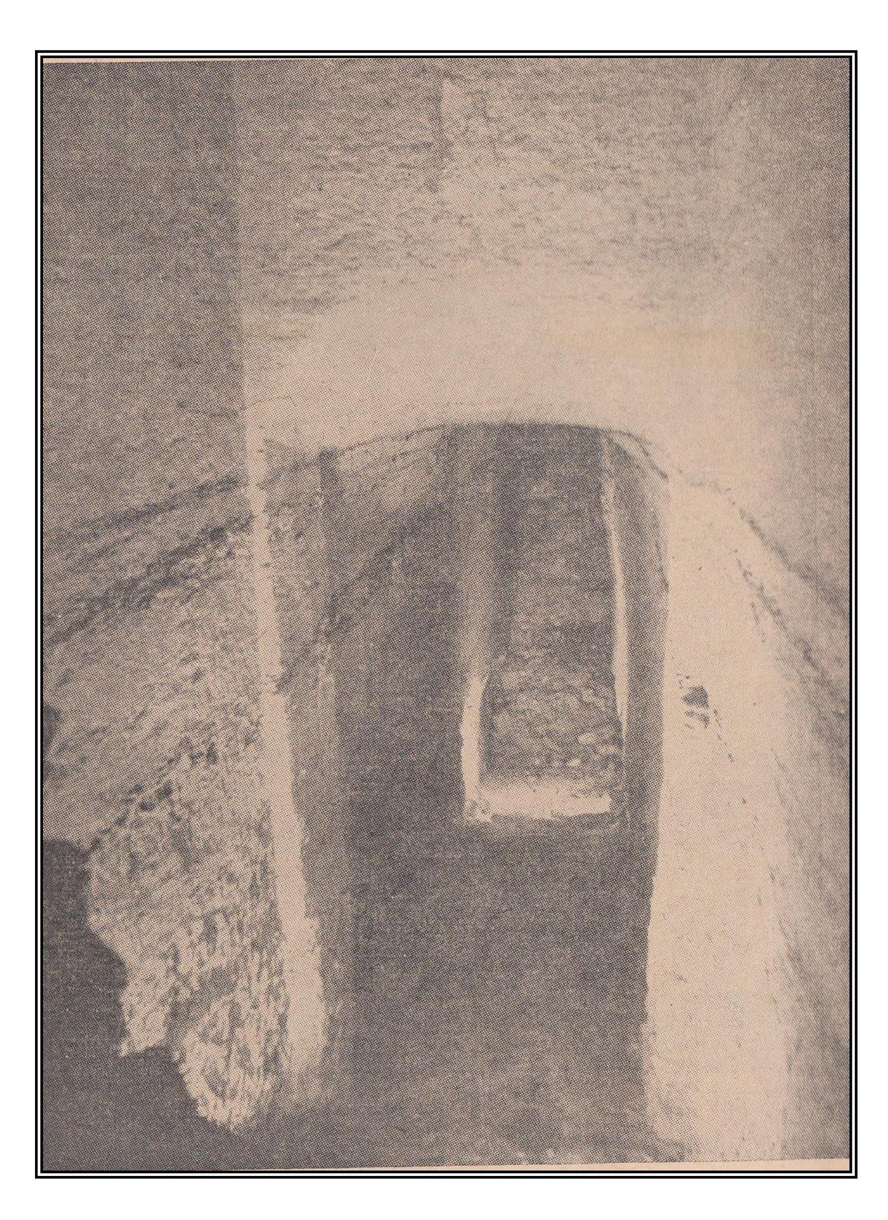
ولقد فتح الوزير نفسه السد تحطيماً بفأس. وبعد ذلك عكف حفني وحسين وغيرهما من عمالي على توسيع الثقب وهدم الجزء الأعلى من البناء الذي يقع على الجانب الأيمن. وشققنا طريقنا واحداً بعد واحد للداخل فوق الأحجار، ونحن نبعد رؤوسنا لنتجنب السقف الصخري ولما تم لنا الزحف فوق السد قفزنا هابطين في الدهليز المكشوف الذي يليه. ووجدنا أنفسنا في دهليز مرتفع منحوت في الصخر وقد قد في الصخر الأصم، يهبط في انحدار غائراً في الأرض. وأحضر العمال مصابيح غاز الإستيلين، التي يمكن حملها وبمعاونتها تمكنا من التوغل مسافة تقرب من 18 متراً، وقد سار الوزير والمسئولون قدما في خطى سريعة يحدون الشوق لكشف سر الهرم. ثم فجأة توقفنا عن السير. إن كومة من الركام كانت تملأ الدهليز من الأرض إلى السقف وتسد الطريق أمام كل تقدم للأمام، إلى حين.

وقد أخذت صور شمسية، وانكفأت الجماعة راجعة فوق الأحجار الواصدة إلى الصحوة مرة أخرى. وبعد ذلك، عدت وقمت بفحص منسق وفي عناية للدهليز بمقدار ما أمكنني التوغل. وكان الجزء الأول يهبط

مسافة مداها 11.30 من المتر (38 قدما) إلى طريق ذي عقود منحوت في الصخر ويبلغ اتساعه 1.89 من المتر (ست أقدام) وعمقه 1.05 من المتر (ثلاثة أقدام) وارتفاعه أربعة أمتار (13 قدما) وربما كان هذا فريداً في نوعه، في بكور الفن المعماري المصري (أنظر الشكل 31)، ويبلغ اتساع هذا الجزء الأول من الممر 2.04 من الأمتار (ستة أقدام) وله سقف مسطح على ارتفاع عظيم. وفيما يلي الطريق ذو العقود، يستمر الممر الهابط (قدمين) في نفس الانحدار، ولكنه يتسع قليلا وينحدر السقف هبوطاً ويتقوس. وقد تبين لي أن نهاية هذا الجزء من الدهليز في موازاة الجانب الشمالي من بناء الهرم فوقه، بالضبط (أُنظر المسقط الأفقي، الفصل التاسع).



(شكل 30) منظر من داخل ممر الدخول يتجه صوب الشمال وقد أزيل جزء من السد



(شكل 31) عقد نصف دائري، على بعد إحدى عشر متراً من مدخل بناء الهرم السفلي، ويظهر الركام الذي يكون السد الثاني

وهنا يتسع الممر فيبلغ عرضه 2.20 من المتر (سبعة أقدام)، ويصبح الانحدار أكثر شدة. وتدل آثار على حيطان الدهليز أنها كانت في الأصل مبطنة بالجص. وبعد ذلك ببضعة أمتار كان الركام يسد الممر. وفحصت السقف مع عمالي في عناية ووجدت فتحة مربعة هي التي سقط من خلالها الركام، وعلى ذلك أمرت بوقف العمل في الدهليز، وبدأنا البحث في بناء الهرم العلوي للوصول إلى سبب هذا الحادث. وفي الحادي عشر من شهر مارس وجدنا فتحة تؤدي إلى بئر عمودي نحتت في الصخر وتنفذ إلى دهليز الهرم (أنظر الشكل 32).

والبئر مربعة القطاع 2.70 في 2.70 من المتر (تسعة أقدام)، وجزء منها منحوت في البناء العلوي والجزء الآخر في الصخر أسفله. وأول مسألة قامت أمامي هي أن نجد ما إذا كانت معاصرة للهرم أو نرجع إلى عهد متأخر. وفي البداية، كان يظهر أن الفرض الأخير ينطبق على الواقع. "هلع قلبي، إذ أن هذا من شأنه أن يدل على أن الهرم كان معروفاً في الأزمنة التي جاءت بعد ذلك، وأنه ربما سرق وقد عثرنا في الفتحة التي تقع في قمة البئر التي كانت موصدة بأحجار كبيرة خشنة، على مقدار عظيم من عظام الحيوان، وكانت توجد عدة أمتار مكعبة من العظام وقرون الثيران والكباش والمعز والغزلان والكلاب وغيرها من الحيوان دفنت في نقرة حفرت في الأنقاض التي تقع عند فوهة البئر. ولقد رصت هذه البقايا في طبقات، وكان بعضها ملفوفاً في أنسجة من التيل. وبين كل طبقة وأخرى من العظام وكانت توجد طبقة من الرمل الناعم. وكان على الكثير من العظام أثار تدل على أنها قطعت بمنشار، وعلى بعضها علامات محفورة،

وكانت كل قرون الكباش من نوع **Ovoipplatyra Acgyptian** وقد وجدت مع البقايا تعاويذ من القاشاني ودم حيوان خشبية.



(شكل **32**) حفرة احتفرت في ردم البئر العمودي وفيها تظهر عظام حيوان الأضحية

وقد وجدت في الطبقة السفلى أدراج بردي بالخط الديموطيقي يبلغ عددها اثنين وستين، بعضها كبير الحجم نسبياً. ويرجع تاريخ أدراج البردي هذه، إلى العصر الصاوي (حوالي **600** ق.م)، ويحمل بعضها اسم أحمس الثاني. ولا يزال الغرض من هذه الودائع وتاريخها غير معروفين على التحقيق. ومع هذا فإن وجودها في ذلك المكان لا يدل بالضرورة على أن

لها أي شأن بالهرم إذ أن بعض البرديات تحوي قوائم عن أشياء تسلمتها جبانة سقارة. وقد تكون هذه الأشياء بقايا حيوان مقدس مات في ممفيس وجمعته جمعية دينية أو أشخاص أتقياء، ثم حنطت ودفنت في الجبانة.

وترجع عبادة الحيوان المقدس في مصر إلى أبعد الأزمنة قدماً وحتى العهد الفارسي الأول (4525 ق.م) ولم يكن الحيوان مقدساً في ذاته كنوع، بل بالأحرى كان الكهنة يختارون واحداً منه "ليكن موضع تجلي الإله" بنفس الطريقة التي كانوا يصنعون بها تمثالاً ليكون وسيطاً مادياً لظهور الإله في المعبد، وعندما اقتربت البلاد من غسق تاريخها القديم، تدهورت على التدرج لاتصالها بمدنيات أكثر حداثة. وكان رد الفعل ضد هاتيك المدنيات هو المغالاة في الاتجاهات الحضارية، وبدلا من تقديس قلة من الحيوان، فإن المصريين عبدوا أنواعاً برمتها ولقد خرج من عشرات من هذه الجبانات في سقارة وغيرها كميات هائلة من بقايا الحيوان المقدس.

وذهب بي الظن في البداية إلى أن أولئك الذين دفنوا الحيوان المقدس يمكن أن يكونوا قد نفذوا في البئر العمودي ووجدوا دهليز الدخول الذي كانت تتصل به، ولكن مزيداً من الجص أقنعني أن هذا لم يكن واقع الأمر. إن فوهة البئر تنفتح في بناء الهرم على مسافة سبعة أمتار (23 قدماً) إلى الجنوب من الجانب الشمالي للمحور المركزي. ونتيجة لاستخراج الأحجار في أزمنة متأخرة تحولت المنطقة المجاورة إلى فحوة عظيمة امتلأت على التدرج بالأنقاض والرمال.

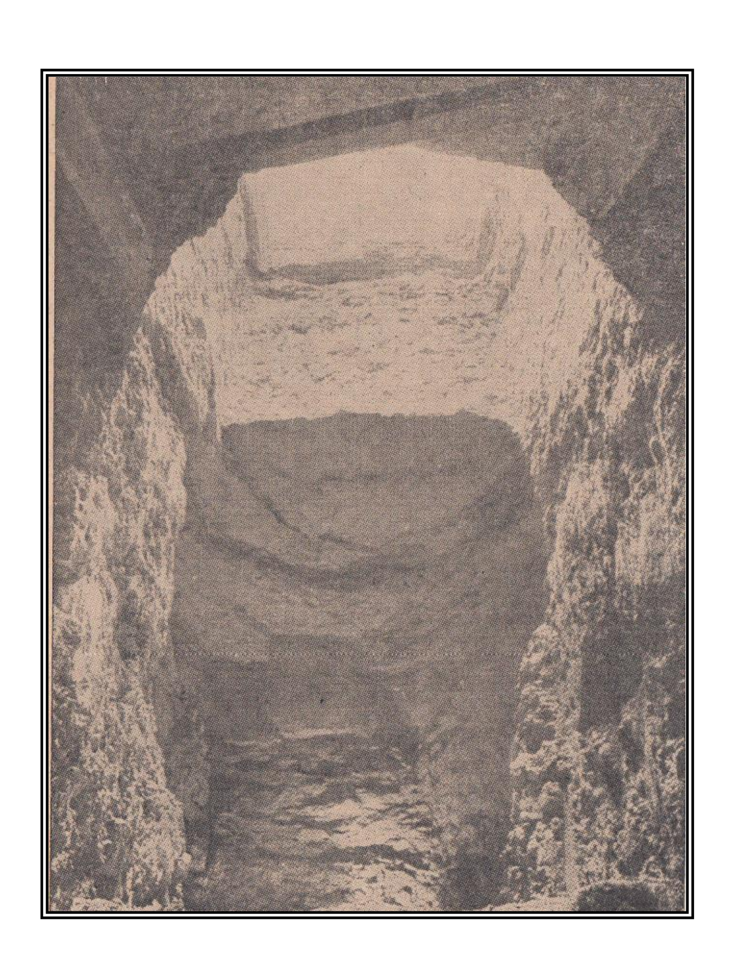
ولكن عندما أمعنت في الحفر هبوطاً في البئر المربعة، وجدت أنها

كانت ممتلئة جزئياً بالأحجار الثقيلة التي لم تزحزح عن موضعها وتركت هذه الأحجار الهاوية علامات عمودية بطول حيطان البئر الصخرية. ولم يفعل الشخص الذي احتفر الفجوة لدفن الحيوان المقدس إلا مجرد حفر مسافة في البئر. ولقد استخلصت أن البنائين الأصليين حفروا بئراً مربعة القطاع إلى الدهليز المنحدر. ثم ملأوها بأحجار ثقال قذف بها من عال. وحول البئر، ربما أقاموا ثم نوعاً من البناء لإخفائها، وقد كانت تحت بناء الهرم نفسه. وفي العهد الصاوي (الأسرة السادسة والعشرين) عثر أولئك الذين دفنوا الحيوان، على البئر، واحتفروا رقبة قليلة الغور في القمة. وربما كانوا ينتوون الحفر إلى أن يصلوا إلى القرار، ولكنهم لم يفعلوا.

ويوجد أحياناً آبار من هذا النوع في قبور الأسرة الثالثة، وفي أمثلة معينة من هذه القبور، كانت تستخدم كسدود أمترس[62]. وأحسن نظائرها قبر زاناخت في بيت خلاف [63].

([62]) في الأهرام المتأخرة كانت الممرات تغلق في مسافات متعاقبة بكتل من الجرانيت تتراشق في أخاديد كالمتراس

([63]) ج.ا. رايزنر G.A, Rdisener تطور القبر المصري حتى ارتقاء خوفو العرش صفحة 186، The Development of the Egyptian YTob to the Accession of Cheops, P. 186.



(شكل 33) منظر من داخل الممر يتجه إلى أعلى من خلال البئر التي أفرغت

وفي أمثلة أخرى، كانت تحفر للوصول بالغرف إلى عمق أكبر، ويوجد هذا على سبيل المثال في قبر حسي – رع في سقارة [(64)]. وكان حسي – رع شخصية عظيمة، وهو المشرف على كتاب الملك في زمن زوسر. وفي قبره وجدت الألواح الخشبية ذائعة الصيت المحفوظة بمتحف

([64]) أنظر التصميم اللوح 50 مؤلف ج.أ. كويبل **G.E. Quibell** قبر حسي **The Tomb of Hesy** – حفائر مصلحة الآثار المصرية في سقارة **1911–1912**.

الآثار بالقاهرة، وهي تكشف عن طراز الرجال الأشداء الذين عاونوا زوسر على خلق ماسكه الجديد.

ومع هذا فمن الممكن أيضا أن يكون قد ابتدع هذه البئر للتهوية في أثناء العمل.

وفي أسفل البئر أوصد الدهليز بكتل من الحجر ضخام، ألقي بها عمداً من الفوهة بناء الهرم. وعلى هذا تكون سد يبلغ سمكة خمسة أمتار ، وهو الذي أوصد الطريق أمامنا عندما دخلنا الهرم لأول مرة. وعلى هذا كانت أول مهمة لي هي أن أفرغ هذه البئر من القمة حتى أجد طريقة إلى الدهليز. ولسوء الحظ، وقع في هذه المرحلة من العمل، حدث وفاة أودى بحياة واحد من رجالي، وهو الحدث الذي أثار الكثير من الجزع بين العمال وأدى إلى تعطيل العمل أسبوعين.

كنت أقوم بالعمل، في ذلك الوقت، في الركن الجنوبي الغربي من الوصيد العظيم عندما طرق سمعي صياح مروع من ناحية الهرم، فأسرعت إلى المكان. وعلى قمة البئر العمودية، رأيت مشهداً يجتمع فيه الغضب والرعب. ولقد تجمع رجالي حول حافة الحفرة المظلمة في حالة من التهيج العارم. وكان يوجد سلم في جانب البئر الداخلي وكان الرجال منهمكين في رفع الأحجار الثقيلة التي كانت تسد البئر وقد وصلوا إلى عمق يبلغ نحواً من خمسة عشر قدما.

وتطلعت إلى أسفل ووجدت أنه كان يوجد في قرار الحفرة التي لم

يفرغ إلا نصفها وقب سحيق، وفي أثناء تفريغ البئر انهارت بعض أحجار السد المفككة وقذفت بعدد من العمال إلى الدهليز أسفله.

واندفعنا عائدين إلى مدخل الهرم وشققنا طريقنا جاهدين فوق حائط الوصيد الذي نقض نصفه وعجلنا الخطى إلى قاعدة البئر، وكان ردم ثقيل من الرمل والصخر قد انهال على العمال وقبرهم. وأرسلت طلب للغوث لإرسال نقالة ونفر من رجال المطافئ ومعهم سلم، وفي الوقت نفسه كافحت أنا وعمالي في إزاحة الرمل والصخر لإنقاذ زملائنا، وعالجنا في حماسة رفع الأحجار الثقال، وأخيراً أخرجنا الرجال. وقد لحق اثنين إصابات يسيرة ولكن ثالثهم كان قد اختنق فكان في ذلك حسرتنا.

وفي ذلك الحين كان الخبر قد ذاع في سقارة وأبي صير وغيرهما من القرى القريبة، وقد أتى الرجال والنساء مسرعين إلى المكان وكان الظلام قد بدأ يبسط رواقه. وفي الغسق الذي كان يتجمع رأيت بضع مئات من الناس يتحلقون حول قمة البئر، والنساء يرسلن صرخات النواح وجاهدت في تهدئة مخاوفهن ولكن على غير طائل. ولما جن الليل بدأت السيارات تصل من القاهرة. ونما الخبر إلى الصحافة وسرت الشائعات بأن الهرم انهار بكليته وقبر ثمانين رجلا. وكانت الأنوار المنبعثة من مصابيح السيارات الأمامية ترسل أضواءها إلى الصحراء وتلقي الحفرة التي كانت حدثت فيها المأساة في الظلال. إنها ليلة لن أنساها.

وأجري تحقيق وتعطل العمل كله أسبوعين. ولم يشأ أي عمال محليين أن يقتربوا من الهرم. لقد كانوا مذعورين منه، وقال بعضهم أن الملك الذي

بناه كان غاضباً وإن الهرم كان شراً، وإن له قدرة على أن يبتلعهم ويطويهم. وقد يظهر هذا حديث خرافة للقارئين الذين لم يعملوا في هذه الآثار ولكني أعي هذا تمام الوعي. لقد أحسست أنا نفسي الخوف، ولا أخجل من التصريح بذلك، وحاولت أن أهدىء من روع العمال وأنبأتهم بأننا كنا نسعى إلى أن نجعل هذا الملك النكرة معروفاً كفرعون توت عنخ آمون الذي كان معروفا فقط لفئة قليلة من العمال ثم ذهب صيته في الخائفين عندما كشف لورد كارنارفون **Lord Carnarvon** وهوارد كارتر **Howard Carter** عن قبره منذ ثلاثين عاما بالتمام. وبعد حين من الزمن بدأ الرجال يتسللون عائدين، واستطعنا بعد مضي أربعة عشر يوماً أن نعاود العمل في الهرم.

الفصل الثامن

في الأعماق

لقد كُتب الكثير من اللغو العاطفي عن التنقيب عن مقابر قدماء المصريين، وربما كان رد فعل لهذا، أن بعض علماء الآثار يؤثرون النقيض، ليكونوا أولي علم لا سبيل للعاطفة إليهم.

وكأن الاعتراف بالعاطفة كان غير خليق بالعلماء. ومع هذا فإن بعض الأكبرين من علماء الآثار اعترفوا بأن كشوفهم أثارت مشاعرهم وإن المرء ليجد في صفحات رجال أمثال بتري ورايزنر وفرث وكوبيل فقرات من الكتابة الوصفية التي يشبع فيها البيان جنبا إلى جنب مع أوصاف كتبت في عناية تامة، وقد تكون مضنية لغير الأخصائيين، لشذرات الخزف وغير ذلك من الأشياء الدقاق التي لا يهتم بهن غير العالم.

وإني إذا ما حاولت أن أكتب في منهج أتجرد فيه من العاطفة، فإني لن أكون صادقاً أمام نفسي، وعلى ذلك أقر في صراحة أنه عندما أعدت جمع شمل رجالي، بعد أسبوعين من الحادث، وبدأنا من جديد العمل في دهليز المدخل، اجتاحني قلق غريب. ومن العسير وصف هذا الشعور، أنه لم يكن بالتأكيد الوجل من أي شيء مادي كانقباض سقف أو هوى صخر. إنه كان شيئاً غير ملموس، أبعد من هذا كثيراً. إنه كان مزيجاً من

الفزع وحب الاستطلاع وعدم اليقين. وأي فرد لم يزحف وحيداً عبر دهاليز تقع أسفل هرم، وقد تعني السكون والظلمة، ولا يمكنه أن يقدر على التمام الشعور الذي كان في بعض الأحيان يستبد بي. وقد يظهر أن في هذا جموحا في الخيال ولكني كنت أشعر أن للهرم شخصية هي شخصية الملك الذي أقيم لأجله الهرم، وأنها ما زالت تتلبس في داخله. وأعلم أن رجالي، وبعضهم قد أنفق حياته في مثل هذا العمل، كثيرا ما كانوا يعانون هذا الإحساس. إنك تزحف عبر دهليز مظلم على اليدين والركبتين مارا بصخر يتهاوى ويلتمح ضوء المصباح على بلورات دقاق في الحيطان الطبقية ثم يتوارى الدهليز مستدبرا، في الظلام، وإنك لتنحرف إلى الأركان تتحسس طريقك باليدين وقد تركت العمال إلى الخلف منك وإذا أنت تدرك فجأة أنك وحيد في مكان لم تسمع فيه وقع خطوة منذ قرابة خمسين قرنا ويستوي فوقك ثلاثون مترا ونيف من الصخر الأصم. ومن فوق هذا أيضا يستقر جرم الهرم، لا يوجد إنسان أوتي خيال وتمرس بهذه التجربة، دون أن تؤثر فيه تأثير عميقا.

واستهللنا العمل بتكملة إزاحة الركام، الذي يستقر عند سفح البئر، عن الحائط الذي يبلغ ارتفاعه تسعة أمتار. وقد وجدنا أن الأجزاء السفلى من هذه البئر وقسما عظيما من سقف الممر قد انهار، وربما يرجع سبب ذلك إلى زلازل حدثت في الأزمنة السحيقة أو إلى البلى الطبيعي، لأن الكثير من الصخر كان من نوع رديء. وعندما كان قدماء المصريين يحفرون مثل هذه الآثار والدهاليز فإنهم كانوا يعمقونها تعميقا عظيما لا

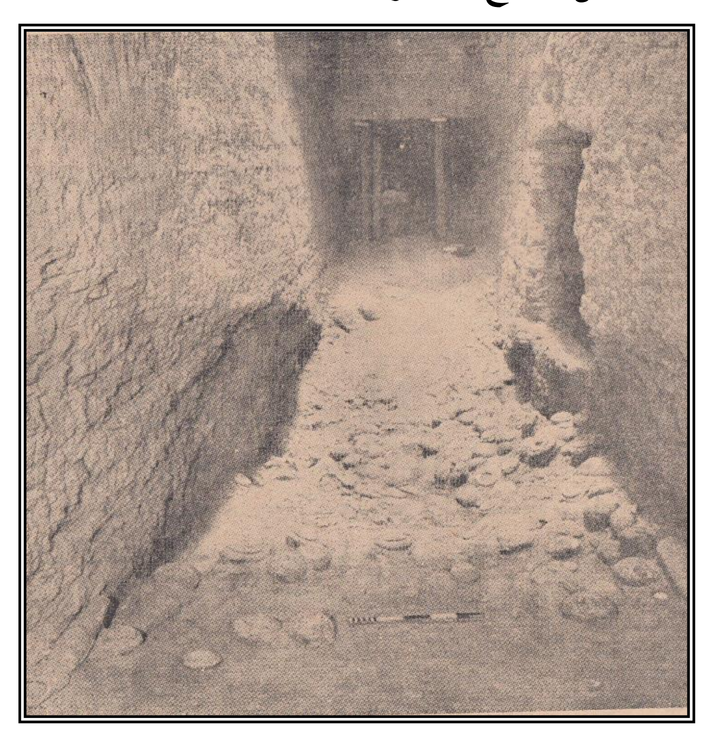
توخي السلامة فحسب، ولكن لكي يجدوا طبقة من الصخر الجيد يمكنهم نحت غرفة الدفن فيها.

وكان يوجد شقوق طوال عديدة عبر السقف وفي جوانب الممر، وقد استدعت هذه قدرا عظيما من أعمال التقوية بالحجر والخشب قبل أن نجسر على التقديم أبعد من ذلك في الدهليز. وعندما أزيلت كومة الأحجار عن سفح البئر، أدركنا أن الطبقة السفلى كانت تقوم على مرقد سميك من الطفل الناعم كان يمتد مسافة تزيد على المتر فيما يلي السد الواقع في الجانب الشمالي. وتحت هذا الطفل وجدنا مئات من الأواني الحجرية من مختلف الأنواع شبيهة بتلك التي وجدت في دهاليز هرم زوسر، الواقعة تحت سطح الأرض.

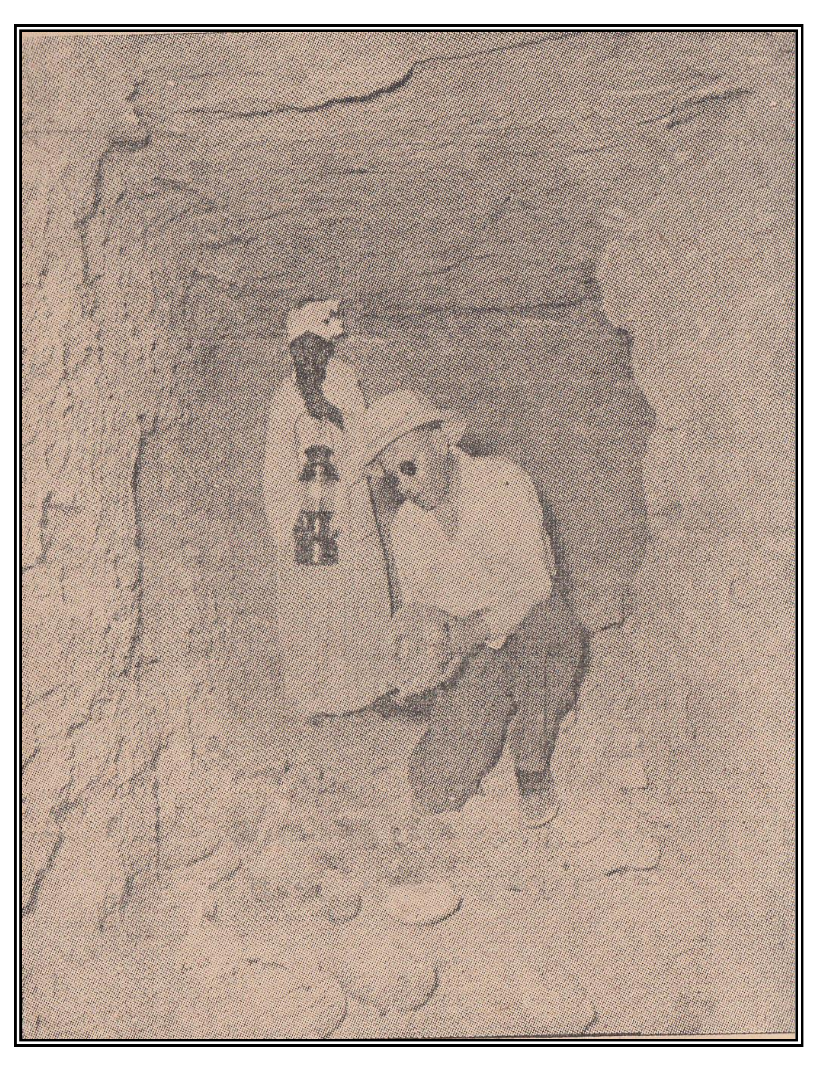
وكانت توجد مئات من القصاع من حجر السماق الإمبراطوري (البورفير) المرقش باللونين الأسود والأبيض، والأكواب والصحفيات من المرمر. ولقد كانت موضوعة في طبقات، ولم تكن القصاع كبيرة ولكنها في الغالب ثقيلة ومفرغة تفريغا يسيرا. وكان من الجلي أنها صنعت لأغراض جنازية فقط. (أنظر الشكل35). وكان لها كلها، على وجه التقريب، مقابض صغيره مثقوبة، وكانت بعض الأواني مكسورة. ولما كانت قد وجدت في هذه الطبقة العليا، فإنه يظهر أن سبب الكسر يرجع إلى الثقل المحطم لحجارة السد التي ألقى بها البئر العمودي.

ولكن لقي مفاجأة رائعو كانت تنتظرنا. فعندما نظفنا أرضية الممر وعكفنا على فحص الطبقة الطفلية التي تستقر أسفلها، لمح واحد من

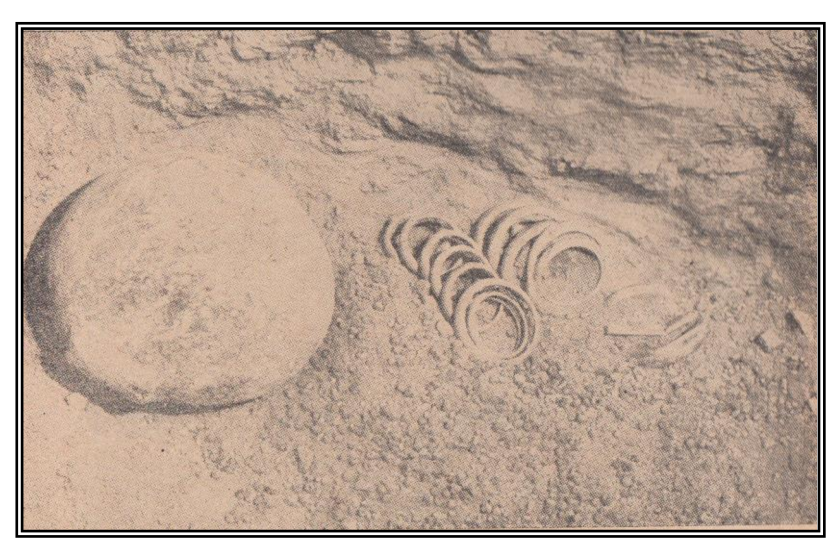
رجالي لمعان ذهب في موضع قريب من حائط الدهليز الشرقي. فجثوت على ركبتي، وبعد أن أزحت الطفل في عناية أخرجت واحدا وعشرين سوارا ودملجا وعصا معقوفة من الذهب تشبه المنجل، وكانت نواتها من الخشب وقد زالت (الشكلين 63 و 38) ولكن جوهرة المجموعة كانت صندوقا صغيرا للطيب مصنوعا من الذهب المجوف في هيئة صدفة ذات شقين من النوع المعروف باسم **coquille st. jacques**. وكان يتكون من ورقتين مقعرتين متماثلتين ومثبتتين معا وفي صناعة رائعة. وفي قمة الغطاء توجد حلقة يمكن بها فتح الصندوق.



(شكل 34) منظر آخر للدخول عند سطح البئر العمودي وفيه تظهر الأواني الحجرية في حفرة من الطفل الدعم وعلى اليمين، مدخل الدهاليز التي تؤدي إلى مخازن



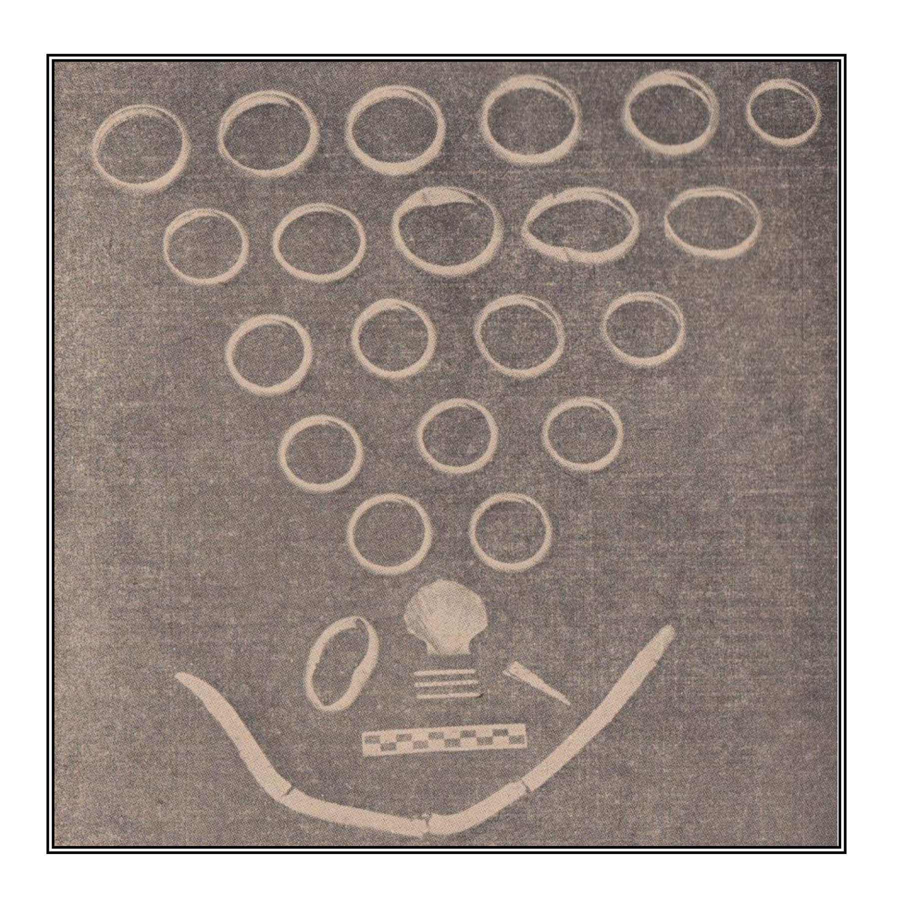
(شكل **35**) زكريا غنيم يفحص بعض الأواني من الديوريت التي وجدت في ممر الدخول



الأرضية على مقبرة من قصعة من الديوريت



(شكل 37) الطرف الآخر من ممر الدخول الذي نظف جزئياً، ويظهر السقف في حالته غير التامة



(شكل 38) أدوات زينة من الذهب، وواحد وعشرون سواراً من الذهب، وصندوق على شكل صدفة ذات شقين للطيب، وعصا من الذهب، و"دبابيس من المكتروم (سبيكة من ذهب وفضة)

وعلاوة على هذا وجدنا زوجا من الملاقط وإبرة وكلاهما من الأكثروم (سبيكة من الذهب والفضة) وعددا عظيما من الخرز من العقيق والقاشاني. ويظهر أن المجموعة كلها كانت قد نضدت في علبة من الخشب أتى عليها البلى. وربما كانت تغشيها رقائق الذهب، وقد جمعنا جذاذت

منها في المكان عينه. ولقد وجدت ثلاثة ألواح من الذهب، صغار، مستطيلة الشكل، في كل منها عشر ثقوب ربما كانت لتثبيت الدسر. ولقد حيرت بعضنا في مبدأ الأمر، ولم تحل المسألة حتى موسم 1954– 1955 عندما كشفنا عن مزيد من الحلي واستبان منها الغرض من ألواح الذهب الصغيرة (أنظر الفصل الثالث عشر والشكل 48). وكانت المقاييس كالآتي: (1) 8ر3 في سنتيمترين، (2) 4 في سنتيمترين (3) 4 في سنتيمترين. ولقد كشفنا كذلك عن جذاذات صغيرة من حجر السماق الإمبراطوري (البورفير) بمقابض وربما لم يعبث بهذه الودائع أبدا منذ أن وضعت.

والرأي الأرجح أنها كانت ملكا لسيدة من حاشية الملك، وعندما يفكر معظم الناس في الآثار الذهبية التي توجد في قبر مصري، فربنا تعود بهم الذكرى إلى الودائع الغالية التي لا يصدقها العقل، تلك التي وجدت في قبر توت عنخ آمون، والتي تضم تابوتا من الذهب الخالص يزن ثلاثمائة رطلا إلى جانب قطع عديدة من الحلي وأدوات الزينة. ولكن توت عنخ آمون عاش بعد الزمن الذي بني فيه هذا الهرم بما يقرب من ألف وخمسمائة سنة. وكان عصر توت عنخ آمون عصر غزوات عظيمة في آسيا وفي السودان، غزوات جلبت غنائم عظيمة، وهو العصر الذي استغلت فيه المناجم والمحاجر في الصحراء الشرقية والنوبة أتم استغلال، وكان الذهب وفيرا.

إننا لا نتوقع أن نجد مثل هذا الثراء في قبر يرجع إلى الأسرة الثالثة، ومع هذا فإن تعدين الذهب وصناعته كانا معروفين في عصور ما قبل التاريخ. ونعلم من الآثار التي وجدت في مقبرة الملكة حتب حرس زوجة سنفور، التي سآتي عليها بالشرح فيما بعد، أنه في زمنها – نهاية الأسرة الثالثة وبداية الرابعة –كان فن صناعة الذهب قد وصل إلى مستوى رفيع. ولكن وجود حلي ترجع إلى هذا العهد نادر ندرة باللغة. وهذا هو السبب في أن كشف هذه الأمثلة من الأسرة الثالثة أثار فينا الكثير من الابتهاج. ولقد أمدنا أيضا بدليل جليل القدر على أن الهرم استخدم للدفن على الرغم من حالته غير التامة.

لقد استخرج المصريون الذهب في أمكنة عديدة ولكن على الأخص في الصحراء الشرقية إلى الجنوب من طريق قنا – القصير حتى تخوم السودان وكانوا يعثرون عليه في عروق تسير خلال صخر المرو (الكوارتز) ويكتب إنجلباخ: "إن مواضع التعدين القديمة هائلة ودهاليزها التي تمتد لمئات من الأمتار في الصخر الأصم [65]، سحقت بقطع مستديرة من حجر الدولريت".

ويذهب بعض زوار الهرم ومن بينهم ليونارد كوترل إلى أن وجود مثل هذه الآثار الثمينة والأواني من الحجر في ممر الدخول قد يدل على أن القبر سرق أو على أقل تقدير، أن محاولة لسرقته قد حدثت. ويتساءلون

([65]) ر. انجلباخ **R. Engelbach** "الأساليب الآلية والصعبة" **Mechanical and Technical Processes** الفصل الخامس من كتاب تراث مصر القديمة **Legacy of Egypt** أكسفورد ، مطبعة كلارندون 1942 **Oxfors, Clacendon Press, 1942.**

لماذا وجدت هذه الآثار في الممر بدلا من وجودها في المقابر أو المخازن التي تتشعب منها، إلا أن يكون اللصوص قد حاولوا نقلها ولكنهم أوقفوا؟

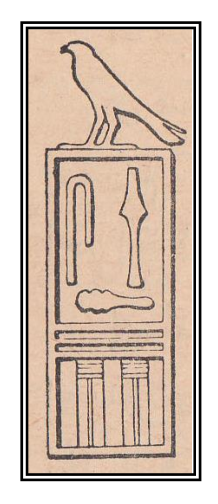
وإجابتي على هؤلاء النقاد هي هذه: لقد وجدت هذه الآثار أسفل طبقة سميكة من الطفل. وكانت القصاع والصحيفات مرتبة في عناية، في طبقات، وعليها الطفل كواق لها. وفوق هذا الطفل كوَّم البناؤون أحجار السد الخام، التي ألقيت في البئر لملئها. وهذا السد، كما أعتقد، لم يعبث به أبداً منذ أن حفر البئر بناة الهرم. وعلى هذا فإن الآثار بما فيها الحلي الذهبية، لا بد أنها تركت هناك عن عمد ولم ينبذها اللصوص. وعلى أية حال، ما الذي كان يضطر اللصوص لأن يتركوا خلفهم مثل هذه الآثار الثمينة التي يمكن حملها في يسر، كالأسرة وما إليها من أدوات الزينة التي كانت موضوعة، في عناية، في علبة من الخشب لا تزال بقاياها موجودة؟

أما سبب وضع صندوق الحلي في مثل هذا المكان، فمن الجائز، على قدر ما نعلم أنه يوجد قبر على مقربة. وفي وقت كتابة هذا الفصل لم يكن الممر قد نظف على الوجه الأنسب، وربما توجد آبار أخرى أحكم إخفاؤها لم تظهر إلى الآن.

إن أدوات الزينة الذهبية (الشكلان 36 ، 38) هذه، هي الحلي الوحدة التي وصلت إلينا من الأسرة الثالثة. ولقد بقي النزر اليسير من الحلي الذهبية التي ترجع إلى الدولة القديمة، حتى إن هذه المجموعة تعد في الواقع فريدة في نوعها. والحلي الأخرى المعروفة لدينا التي ترجع إلى الدولة القديمة، غير هذه، هي خلاخيل الملكة حتب حرس، أم الملك خوفو

وأشياء أخرى كانت لها، وجدها الدكتور ج.أ. رايزنر في بئر عميقة بالقرب من الهرم الأكبر منذ ثلاثين عاماً، ولكنها ترجع إلى زمن لاحق.

ويجب أن أبين في هذه المرحلة أنه ولو أني أكتب هذا الكتاب متتبعاً، بقدر المستطاع، وقوع الأحداث، فإن العمل يسير في نفس الوقت في مواضع مختلفة، وهذا يفسر ما يمكن أن يظهر أنه عدم انسجام في التأريخ، ومثال ذلك أننا كنا قد بدأنا في مايو ارتياد الممر فيما يلي البئر العمودي، ولكننا لم نعثر على الحلي إلا في يونيو، مع أننا كنا قد تجاوزنا هذا الموضع من الممر منذ زمن ولى.



والكشف التالي كان ذا أهمية تفوق من الوجهة الأثرية أهمية العثور على الحلي ولو أن الآثار نفسها لا تسترعي إلى اليسير من اهتمام الرجل العادي.

لقد كانت مجرد جرار خزفية صغار، مخروطية الشكل، رمادية اللون مختومة بالطين المجفف. والخواتيم [66] التي استخدمت كصمامات للجرار، لها عند الأثريين أهمية بالغة لأنها أحيانا تختم باسم صاحب المقبرة.

وكلما كنت أعثر على مثل هذه الخواتيم، كنت أحملها وأفحصها في عناية بمنظار معظم وفي ضوء شديد، لأن الخاتم حيثما وجد، يكون في

[66] الخاتم الطين الذي يختم به (المترجم)

المعتاد غير واضح ويعسر تبينه. وفي خلال الشطر الأول من شهر يونيو، وجدت خمسة خواتيم أسطوانية لاسم ملك غير معروف إلى الآن، وها هي ذي العلامة الهيروغليفية التي تقرأ سخم خت "قوى الجسم"

وكان يجب أن تتناول الأيدي هذه الختوم في رفق عظيم خشية أن تتفتت ويضيع الدليل الحيوي، ولكن عندما عنيت بتنظيفها بفرشة ناعمة عالجتها بمادة تثبيت استطعت أن أقرأ الكتابة وأوازن بينها وبين غيرها.

وقراءة هذا الاسم قراءة أقرب إلى الواضح المعقول هي سخم – خت. ولكن من العجيب أن نجد الحرف الصوتي (س) يسبق علامة سخم في الكتابة. ففي هذا العهد وخاصة في اسم ملكي، يتوقع المرء علامة سخم وحدها.

وقد يتطلع القارئون إلى معرفة كيف تيسر تعرف هذا الاسم بأنه اسم ملك وليس اسم إنسان أقل شأنا. وربما يتاح لهم أن يقرءوا أنه في الكتابات المصرية القديمة، كان الاسم الملكي يدمج داخل إطار في شكل بيضاوي مستطيل يسمى الخرطوش (الإهليلج) ويرسم في الكتابات المفصلة كعروة تتكون من حبل مزدوج يعقد طرفاه معاً ليكونا خطاً مستقيما.

وفي عهد الأسرات الأربع، الأوليات، كان الملك يحمل ثلاثة أسماء: الأول اسم حوريس الذي كان يكتب داخل إطار مستطيل بألواح غائرة

أسفله، ويعلوه صقر[67]. وكان يطلق على هذا، لفظ "سرخ" وكان الإطار يمثل قصر الملك، والنسر يمثل شخصه، كذاتية الإله حوريس الدنيوية والثاني اسم "نبتي" الذي يبرز الملك وهو يتخذ ذاتية الإلهتين اللتين كانتا تمثلان مملكتي مصر العليا ومصر السفلى. والثالث كان اسم "تي سوت بيتي" ومعناه "ملك مصر العليا ومصر السفلى". ومنذ الأسرة الرابعة وما بعدها كان هذان الاسمان الأخيران يكتبان داخل إهليلج، ولكن "السرخ" – الإطار الذي يعلوه الصقر – ظل على شكله الأصلي حتى آخر التاريخ المصري.

ولما كان "اسم حوريس" الذي يطلق على زوسر هو نثري – أر – خت [68] فربما توجد ثمة صلة، بما أن الملك الجديد يستخدم نفس المقطع الذي لزوسر. وربما كان من نفس أسرته ولو أن وجود المقطع – خت لا ينهض بالضرورة برهاناً عليه.

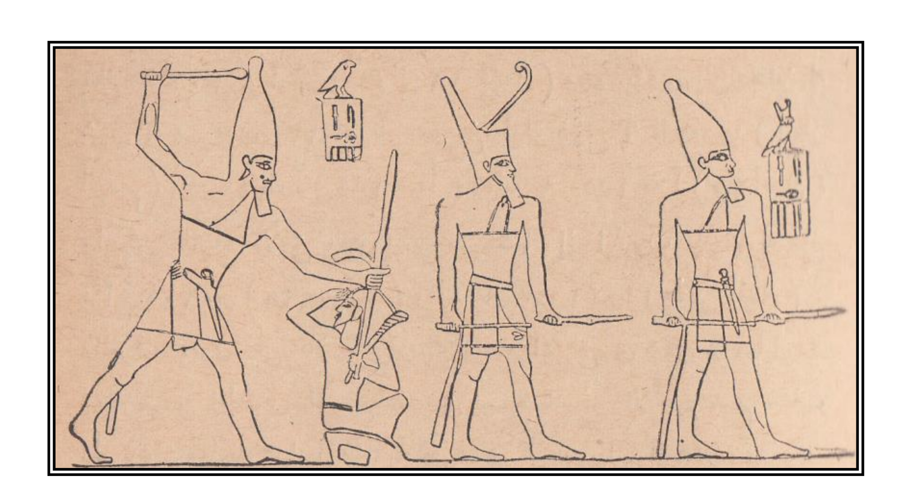
إن هذا الملك غير معروف على الإطلاق، ولا يظهر اسمه في قائمة سقارة المحفوظة في متحف الآثار بالقاهرة أو في قائمة الملوك في معبد سيتي الأول في أبيدوس أو في بردية تورين ولا يذكره مانيثون. وقد يبتسم القارئون من غير علماء الآثار المصرية، ولكن كشف هذا الاسم الملك غير معروف إلى الآن، من هذه الأسرة السحيقة في القدم، كانت أهميته بالنسبة لي تقرب من أهمية العثور على الهرم نفسه.

([67]) أنظر الرسم في صفحة **155**

([68]) يقرأه بعض العلماء، خت نثري: ومعنا الجد الإلهي (المترجم)

وحملت قطع الطفل الثمينة راجعا إلى "الاستراحة" في سقارة وأعدت قراءتها مراراً، ولكن لم يوجد هناك شك في الحقيقة الواقعة، وهي أن هذا كان ملكاً "جديدا".

وكمثال يوضح كيف أن حذقة من الطفل المجفف يمكن أن تلقي شعاعاً من الضوء على تاريخ مصر الباكر، أذكر أنه يوجد في وادي مغارة في سيناء كتابة على الصخر تحوي اسماً قرئ سمر – خت، وهو اسم ملك من الأسرة الأولى، معروف. ولكن الكتابة ليست واضحة على الإطلاق، ويمكن ألا يكون الاسم سمر – خت ولكنه اسم هذا الملك.– من الأسرة الثالثة سخم – خت. وقد يكون ذا مغزى أن الكتابة تظهر بالقرب من كتابة مماثلة تحمل اسم زوسر. ومع هذا فإني سأشرح ذلك في مزيد من الاستفاضة في الفصل التلخيصي في ختام هذا الكتاب.



والشذرة الضئيلة من دليل، التي وجدتها قد لا تظهر في ذاتها، ذات خطر، للقارئ العادي، ولكن ليحاول أن ينظر إليها في هذا الاعتبار. إن علم الآثار المصرية يشبه لغزاً عظيماً من تلك الألغاز التي يطلب فيها إعادة تكوين صورة من قطع متناثرة والتي يشترك فيه لاعبون كثيرون. على مغزى مباشر أكثر من جزء من اللغز يمكن توفيقه مع جزء آخر. ولكن ربما، في ثم تاريخ قادم يمكن لعالم آثار من هذا الجيل أو من جيل لآخر أن يجد فيه دليلا حيوياً في حل شطر أعظم من اللغز. إنه هذا، وليس السعي وراء الكنوز هو الذي يبعث في عالم الآثار أعظم رضى يصبو إليه. إنها الفكرة بأنه يقدم إضافة، مهما ضؤل شأنها، لمعرفتنا بتاريخ الإنسان.

وعلى مسافة 31 متراً (أكثر قليلا من مائة قدم) من مدخل البناء السفلي في الحائط الغربي للمر الأصلي، وعلى ارتفاع متر من أرضية الممر، وجدنا باباً صغيراً يبلغ اتساعه 1.42 متراً ينفتح في ممر جانبي منخفض يبلغ طوله 5.30 أمتار (حوالي 18 قدماً) وهو يؤدي إلى دهليز له شكل T، ويحوي 120 مخزناً. ويبلغ طول ذراع T العمودي (أنظر الرسم) 42.10 متراً (134 قدماً) واتساعه 1.50 متراً (2/1 4 أقدام) ولكن الذراع الأفقي الذي يسير من الشمال إل الجنوب فإن طوله يبلغ قرابة 200 مترا (665 قدماً) واتساعه 1.63 متراً (خمسة أقدام). والغرف محفورة في كلا جانبي ذراع الدهليز الأفقي في شكل "متمايل" وتتفرع من الجانبين على التبادل حتى يسمح للصخر الأصم بدعم سقف المجموعة. وتنتظم مراحل متعادلة الغرف في كل من جانبي الدهليز، وللغرف تقريبا نفس الأبعاد.

ويجد هنا تشابها مع "الهرم الطبقي" في زاوية العريان الذي وصفناه وصفا موجزا في الفصل الثاني، ولكن بينما الغرف في ذلك الهرم نحتت في جانب واحد من الدهليز فإننا نجد هنا أنها نحتت على التبادل في كلا الجانبين. ولقد عثر على بعض الأواني من الخزف ومن الحجر في مدخل الممر الجانبي الذي يتفرع من دهليز الدخول. إن المجموعة كلها ملئت حتى ثلثي ارتفاعها بالأنقاض التي لا تزال تدعو الحال إلى إزالتها. وقد مجد آثاراً أخرى تحت الأنقاض التي تتألف من شظايا الصخر الناتجة من التنقيبات القديمة.

وبعد البئر يدأب الممر الأصلي على الهبوط في الأعماق التي تقع أسفل البئر. ولكن كانت تعترض طريقه شظايا من الصخر هوت من السقف ومن الجوانب. ونظرة إلى (الشكل 37) توضح أكثر من أي وصف حالة هذا الممر. وعندما حفر لأول مرة منذ خمسة آلاف سنة خلت، على التقريب، كان قطاعه مستطيلا على الإجمال بأرضية منحدرة وسقف مقوس، ينحدر هبوطاً في نفس الزاوية. ولكن على مر القرون، سقط الكثير من الصخر من السقف والجوانب وعلى ذلك فإنه، كما نراه اليوم، يشبه كثيراً مغارة من الحجر الجيري، من عمل الطبيعة كالتي يجدها المرء في جبال البرانس أو التلال الكلسية في فرنسا الوسطى.

والكثير من الصخر من نوع رديء جداً. والطبقات لينة وتزخر بالشقوق الطويلة بمائها الجسر المتبلور الذي يشبه النسج والذي كان يقع في ضوء مصابيحنا، وكان الحفر هبوطاً مهمة بطيئة وكنت أدين بالحمد

لرجالي المدربين، من فقط، الذين – ونحن لشق طريقنا هابطين – سندوا جوانب وسقف الدهليز بدعائم من البناء ومن الخشب. وعلى هذا أصبح يبدو منظره وكأنه دهليز منجم.



(شكل 39) زكريا غنيم في مدخل الهرم وعن يمينه حسين إبراهيم وعن يساره حفني إبراهيم

وكنا الآن نقترب من نهاية مايو 1954. وفي المعتاد، ينتهي "موسم" التنقيب في أبريل لأن الحرارة، بعد ذلك الوقت، تشتد إلى حد لا يكون فيه العمل في الآثار مجدياً أو مريحاً. وكذلك لأنه من الضروري تخصيص ستة أو سبعة شهور لدراسة وتدوين كشوفنا، ولكن في حالتنا هذه بلغ من اهتمامنا الذي أثير ومن عزيمتنا على أن نتوغل حتى نهاية ممر الدخول وأن نجد ما يقع بعدها، أمنا ثابرا بضعة أسابيع بعد الوقت الذي كان "الموسم" ينتهي، في المعتاد، فيه.

وخلال مايو، توغلنا إلى مسافة 72 مترا (242 قدما) من مدخل الممر. وكان الحر شديداً في الأعماق التي تقع أسفل الهرم، وكنا نعمل في أحوال قاسية. وأمعن الممر في الهبوط، وكان يظهر، وكأن لا نهاية له. ثم فجأة توقفنا. لقد استوت أمامنا كتلة من الصخر يبدو أن لا سبيل للنفاذ فيها، وهو ما زرع فينا، مبدأ الأمر، الحيرة والأسى لأنه كان يظهر أن الممر لم يكن يؤدي إلى أية جهة وأن لا وجود لغرفة دفن. والحال التي كانت عليها الجوانب العليا من الممر، من خشونة وعدم إنجاز، جعلتنا نعتقد أن البناء السفلي للهرم لم يكمل على الإطلاق. وكان يظهر أنه من المحتمل جداً أنه بعد أن حفر البناؤون القدامى هابطين إلى هذا العمق السحيق فإنهم لسبب ما تخلوا عن العمل.

وكنت على وشك تأجيل أي مزيد من العمل في الممر، إلى الموسم التالي، ولكن رئيس عمالي حفني إبراهيم – ذلك المتمرس القديم بتنقيبات كثيرة – كان يتصوب السير في العمل وقال ونحن في قلب الهرم، يجب ألا

تتوقف، وعلى هذا سرنا في العمل.

وكان من المحتمل القيام بقدر عظيم من عمل الهرم قبل أن نجسر على إزاحة كتلة الصخر في الطرف الأبعد وأنفقنا بضعة أسابيع في العمل الشاق، ثم شرعنا، في حذر شديد في معالجة الكتلة الصخرية، وعند إزاحتها، ظهرت معالم باب منحوت في الصخر ثم سد كبير الحجم من البناء المجفف، وهو ثالث ما صادفنا من سدود، كان يملأ فراغ الباب. وما كان في استطاعتنا أن نخفي فرحنا. كان يوجد شيء فيما يلي الكتلة الصخرية، نهاية الأمر. هل يمكن أن يشك أحد أننا كنا على عتبة غرفة الناووس نفسها؟ وبالنسبة لي كان هذا الفرح يمتزج بالخوف والقلق؛ الخوف من المجهول والقلق لما هو قادم. إن قبوراً مصرية كثيرة وجدت مسروقة، وعلى الرغم من الثلاثة جدران السادة التي وجدت سليمة. كنت أخشى من أن سارقي القبور القدامى، تمكنوا من الولوج عن طريق آخر.

وفي **31** مارس سنة **1954** حفرنا ثقباً في الجزء الأعلى من السد، ووجدنا أن سمكه يبلغ عشر أقدام، وأمضينا وقتا طويلا في إزاحة الأحجار وهو ما تطلب جهداً عظيماً، ثم ردها إلى مواضعها وفي النهاية عندما أزيح آخر حجر زحفت إلى الأمام، مستلقيا، والشملة الكهربية بي يدي. لقد شققنا فجوة في السد بالقرب من سقف قبة واسعة، وإلى أسفل كان يوجد فراغ مظلم. ودون كبير تردد، قذفت بنفسي هابطا شاقاً طريقي، إلى أرضية الغرفة.

الفصل التاسع

غرفه الناووس

> وتبعني حفني، وعندما استجمعنا قوانا واستوينا واقفين، ورفع المصباح، حيانا منظر عجب. في وسط غرفه نحتت نحتا خشناً كان يستقر ناووس رائع من المرمر، الباهت، الذهبي، الشفاف. وأول فكرة طرأت على ذهني هي: "هل هو سليم"؟ وأسرعت بفحص سطح الغطاء وباقي الناووس من قطعة واحدة.

وكان هذا فريداً في نوعه في ضوء تجاربي كالعالم بالآثار المصرية إن النواويس، في المعتاد بوصدها غطاء يتلاءم مع القمة. ولكن هذا الناووس كان مختلفا. ولقد قد من كتلة واحدة من المرمر، ولم تكن فتحته في القمة، ولكن في طرف منه يواجه المدخل إلى الغرفة في جانبها الشمالي. وجثمت وفحصت في عناية هذا الطرف.

لقد كان موصداً بلوح من المرمر يتخذ على الإجمال شكل T بذراع عمودي، جد عريض، وذراعين بارزين قصيرين (الشكل 43) وقد أزلق في موضعه من أعلى، ويغلب على الظن أن ذلك كان من خلال حز عمودي صنع في جانب الصندوق المرمري. ومما أثار عجبي وبهجتي أنه كان سليماً تماماً فيما يظهر. وكانت توجد آثار جص في الفواصل. وعلى

غير شاكلة الكثير من النواويس لم تكن توجد أية آثار تدل على محاولة قبل ذلك لفتحه. لقد وصل إلينا القليل من نواويس الأسرة الثالثة وعثر فرث كوبيل على اثنين منها في هرم زوسر وهما شبيهان في تصميمهما لهذا الناووس إلا أنه كان يوجد لكل منهما غطاء.. إن هذا كان، على ما تيقنت، ناووساً من الأسرة الثالثة معاصراً للهرم ولم يكن دخيلا جاء في عهد لاحق.

وكانت تحجب القمة الملساء شظايا صغيرة هوت من السقف، وكانت قطع أخرى أكبر حجماً تستقر على أرضية الغرفة. وكان يمكن لأية قطعة منها أن تحطم الصندوق المرمري أو تنقله تلفاً خطيراً ولكن الناووس نجا بأعجوبة. وبالقرب من الطرف الشمالي، على القمة، كانت تستقر قطع من نبات أو شجيرة، وقد أتي عليها البلى وتحولت إلى كربون. وكانت منضدة بطريقة مجملة على شكل 7 (انظر الشكل 42). ويظهر أنها بقايا طاقة زهور جنازية تركها على الظن، أولئك الذين وضعوا الناووس في الغرفة منذ 4700 سنة خلت. كان كل هذا عجباً حتى ليظن أنه غير حقيقي. ولبرهة وقفت أنا وحفني نحدق في ذهول في الصندوق المرمري الذي يستقر وحيدا. وكان وقع جماله في الروع أكثر ما يكون شدة بالموازنة بنقيضه: حيطان الغرفة الخشنة غير المنجزة.

ثم تدافع عمالي الآخر، واحداً بعد واحد، ومن خلال الثغرة في السد وشقوا طريقهم هابطين في الغرفة.

لقد جنوا من فرط النهيج، وأصابتني عدوى حماستهم، فأفسحت

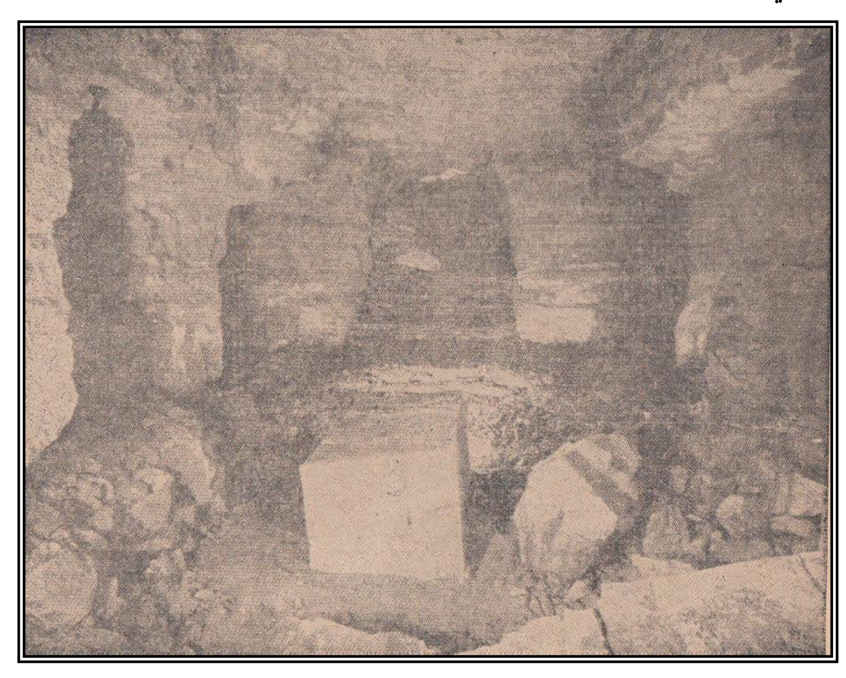
المجال تماماً لمشاعري المكتومة التي احتبستها طويلاً. ولقد تراقصنا حول الناووس وذرفنا الدمع. وعانق كل منا الآخر، وكانت لحظة جد عجيبة في تلك الغرفة المظلمة التي تقع على بعد تسعة وثلاثين متراً أسفل سطح الصحراء. وكما قلت، لقد عمل كثير من هؤلاء الرجال مع العظام من علماء الآثار أمثال رايزنر ويونكر وبتري، وأنبئوني أنهم لم يروا بتاتاً في كل أعمارهم ضريباً لهذا. ولقد استطارت عقولهم من الفرح؛ لأن هذا كان الختام لثلاثة أعوام من العمل الصابر في منطقة لم يكن – لأول وهلة – يظهر أن فيها غناء. ولقد صادفنا الكثير من الصعود والهبوط، ولكن الآن كان النجاح أن يتجلى على مرآى منا.

ثم فجأة، عندما خمد أول تحمس، انتظمنا هدوء عميق، ووقفنا على مسافة من الناووس في احترام عظيم ورهبة، وقدامنا الملك الذي كنا نعتقد كلنا أن مرقده هناك. وقرأنا ما تيسر من آي الذكر الحكيم وطلبنا إلى الله الخير للملك. ولقد أظهر كل أولئك الناس أعظم إجلال.

وبعد ذلك فحصت الغرفة فحصاً دقيقاً. إنها مستطيلة على التقريب بمحور من الشمال إلى الجنوب يبلغ طوله **8.50** من المتر (**30** قدماً تقريباً) ومحور من الشرق إلى الغرب يبلغ طوله **5.22** من المتر (**2/1 17** قدم على التقريب). وكانت الأرضية مغطاة بطبقة سميكة من الطفل الناعم، وفي الأصل ربما كانت تغطي كل الممر والغرفة أيضا. ولقد بلل الطفل بالماء ليتاح إزلاق الناووس في يسر، هبوطاً في الممر المنحدر. وربما كانت الزحافات الخشبية لا تصلح من الوجهة العملية في الهرم، ولكن

على أية حال – حتى لو كانت استخدمت – فإن التشحيم كان ليعود بالنفع، ولما كانت الغرفة لم تنجز أبداً، فإن البنائين لم يزيلوا الطفل – وهذا مثال يدل على أن الأثري يستطيع أن يتعلم من البناء غير التام حقائق ما كان ليحصل عليها من بناء أكمل.

ويتبين من (الشكل 40) الكوات التي نحتت نحتاً خشناً في جانبي الغرفة الشرقي والغربي. إنها تمتد من الأرض إلى السقف ويبلغ عمق الكوات 2.10 من الأمتار وتطل من جانبي الغرفة الواقعين أمام وسط جانبي الناووس الطويلين والغرض منها غير معروف.



(شكل 40) غرفة الناوس كما وجدت، وتطل على الشمال صوب ممر الدخول.

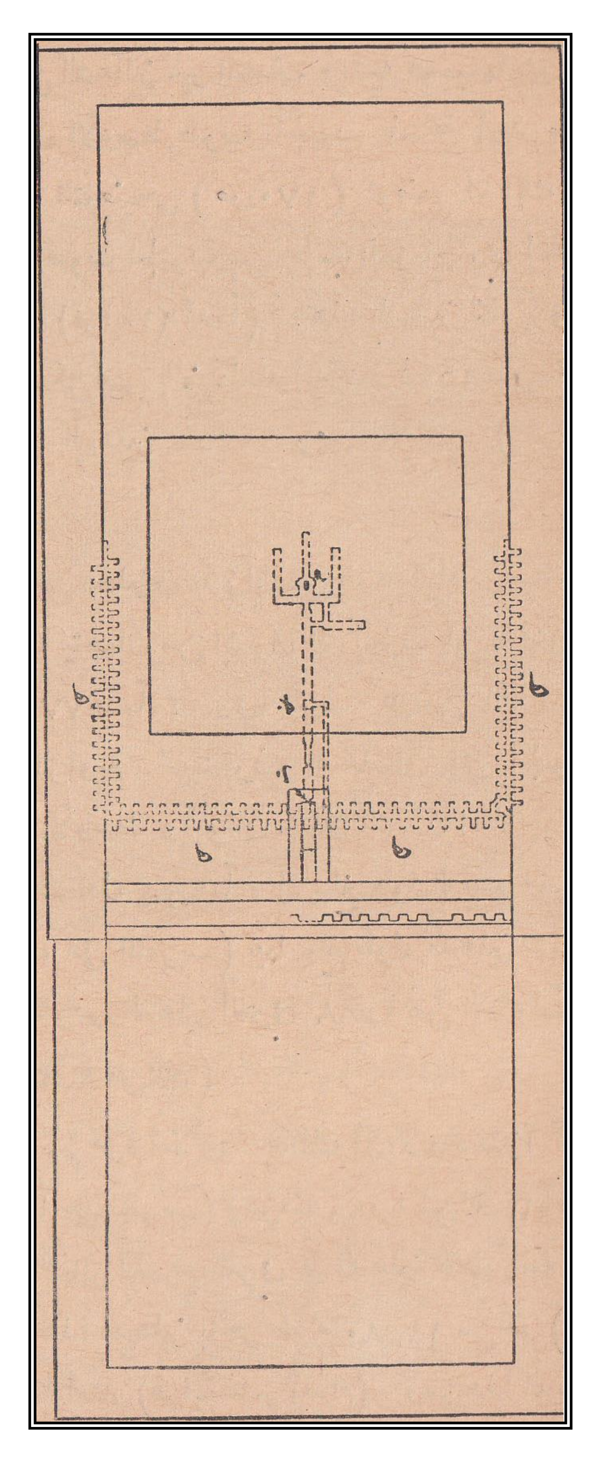
ومن الواضح أن غرفة لم تنجز على الإطلاق، والحيطان منحوتة نحتاً في الصخر تمهيداً لتهيئة شكلها وصقلها، والسقف أفقي وعليه علامات أزميل البناء. ويوجد خط أحمر مرسوم يطول محور السقف الذي يسير من الشمال إلى الجنوب وقد كسي من الحائطين الشرقي والغربي بالبناء الخشن لإصلاح العيوب. وربما كان ينتوي البناؤون صقل الحيطان وتغشيتها بالبلاط القاشاني، كما في بعض ممرات هرم زوسر (أنظر الفصل الأول صفحة **40**).

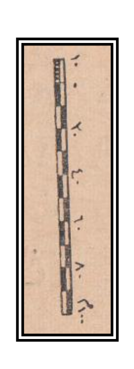
ويحيط بالغرفة مجموعة من الدهاليز غير التامة، ويشبه تصميمها شوكه ذات ثلاث أمنة، يمتد السنان الأوسط صوب الجنوب لمسافة أبعد من الجانبين. ونظرة إلى الرسم التوضيحي (ص **170**) توضح لنا ذلك. ويمتد سنان الشوكة الأوسط صوب الجنوب من جانب لممر الجنوبي لمسافة يبلغ مقدارها **18.50** من المتر (قرابة **61** قدما). وهذا الدهليز يكاد يكون في استقامة ممر الدخول. ولكن ليس بالضبط إذ أنه ينحرف **65** سنتيمتراً إلى الغرب. ويبلغ اتساع الدهليز **1.50** من الأمتار (قرابة **3/1 4** قدم).

وتتكون قاعدة الشوكة من دهليزين يبرزان من غرفة الناووس مباشرة جنوب دهليز الدخول. وهما يتجهان من الشرق إلى الغرب لمسافة شاملة يبلغ مقدارها **23** متراً (**77** قدماً). وفي طرف كل من الذراعين الصغيرين يوجد ركن قائم الزاوية. ثم ينحرف الدهليزان إلى الجنوب ويسيران في موازاة الدهليز الأوسط ويكونان سناني الشوكة الخارجين. وهما يتعادلان

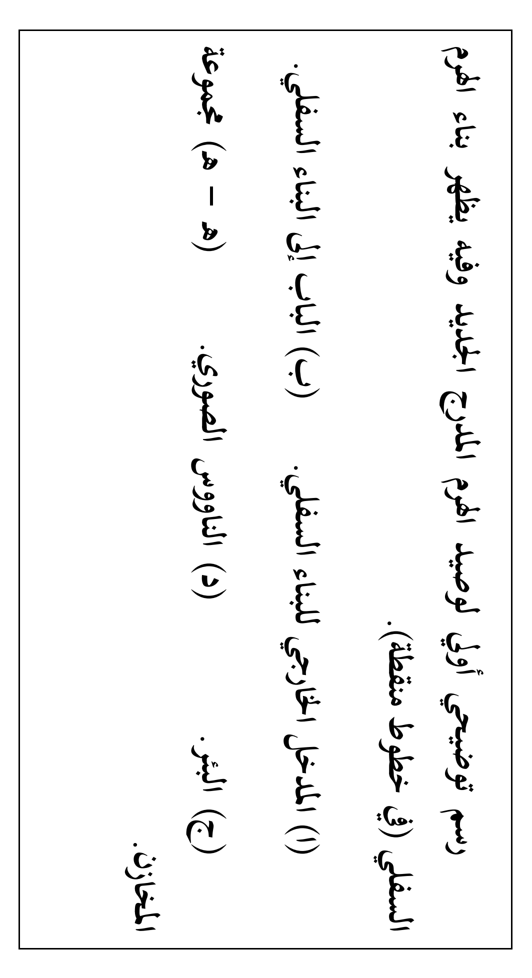
طولا، ولكن التعادل ليس تاماً، إذ يبلغ طول الدهليز الغربي 19.55 من المتر (67 قدماً على التقريب) بينما يبلغ طول الدهليز الشرقي 20.28 من المتر. ويبلغ عرض الدهليز الغربي 1.88 من المتر ولكن الدهليز الشرقي أعرض (2.50 من المتر).

والآن امعن النظر في الرسم مرة أخرى. ويمكنك أن ترى دهليزاً آخر طوله 8.15 من المتر (27 قدماً على التقريب) وعرضه 1.80 من المتر (6 أقدام تقريباً) يسير من الحائط الشمالي للذراع الغربي في الدهليز الذي يتجه من الشرق إلى الغرب. ويتصل هذا الدهليز بآخر طوله 11.80 من المتر (40 قدماً تقريباً) وعرضه ثلاثة أمتار (قرابة عشر أقدام).








رسم توضيحي أولي لوصيد الهرم المدرج الحديد وفيه يظهر بناء الهرم السفلي (في خطوط منقطة).
(ا) المدخل الخارجي للبناء السفلي. (ب) الباب إلى البناء السفلي.
(ج) البئر. (د) الناووس الصوري. (هـ – هـ) مجموعة المخازن.

ومن هذا الدهليز يسير مجاز أكثر ضيقاً صوب الشرق وكأنه يلتحم بممر الدخول ولكن يقصر دونه بواحد وعشرين سنتيمتراً. ويفصله حائط رقيق من الصخر عن الممر. ويظهر أن نية البنائين في البداية كانت تتجه إلى وصل هذين الدهليزين، ولكن ذلك العمل حيل دون إتمامه.

وكانت أرضية هذه الدهاليز مغطاة بأنقاض نتجت عن نحت الصخر، ولم يعن البناؤون بإزالتها، كما كان ليحدث لو أن البناء السفلي أكمل، ولقد أشار كل دليل إلى حدوث توقف فجائي في العمل لسبب لا تزال نجهله، وربما كان لوفاة الملك الذي كان يعد له الأثر قبل الأوان.

ولقد قضينا أياماً كثيرة نرتاد هذه الدهاليز المظلمة. ولكن بعد بحث مضن عجزت عن الوصول إلى دليل على مدخل آخر صنعه سارقو القبور. وكان المدخل الوحيد للهرم من خلال الممر الرئيسي الذي وجدناه موصداً في ثلاثة مواضع. ودليل آخر على أن الغرفة كانت سليمة، هو وجود كومة من الصخر الهاوي أمام حائط السد الثالث لم يصبها عبث وعلى الأقل، استطعت أن أقنع نفسي دون خلخة من شك، أننا كنا أول من ولج غرفة الناووس منذ أن قام عنها صانعوها.

ويظهر أن الدهاليز، كتلك التي تقع أسفل هرم زوسر، كان الغرض منها أن تكون مساكن (لكا) الملك وربما كانت لتحوي الأثاث والمعدات الجنازية. ولم يوجد إلى الآن شيء، ولكن أمامنا الكثير من العمل في إزاحة الأنقاض التي يمكن أن نجد تحتها آثاراً، وكذلك يجب أن أؤكد أن هذه ليست بالضرورة كل الدهاليز التي يمكن أن توجد وعلى المرء أن يمعن الفكر في العدد الجم من الأنفاق والمجازات أسفل بناء زوسر التي بلغ من وفرتها وتعقدها أنه لم يتيسر ليومنا ارتياد الكثير منها، على الوجه الأكمل. وليس من الصائب أن يجول عالم الآثار في مذاهب الحدس ولكن عندما يتم التنظيف حتى أرضية ممر الدخول وغرفة الناووس والدهاليز التي تحيط

بها، فليس من غير المستطاع أننا نجد آباراً تؤدي إلى مجازات أخرى في مستوى مختلف. وتوجد سوابق لهذا في هرم زوسر المدرج.

ومن نفس المثال، يمكننا أن يتوقع العثور على دهاليز أخرى لا تتصل بتلك التي تحيط بغرفة الناوس، ولكن يوصل إليها بمداخل منفصلة ربما تؤدي إلى غرفة أخرى قصد منها أن تكون مقابر لأسرة الملك. وقد توجد غيرها أسفل الوصيد خارج الهرم. ولكن هذا كله مجرد تخمين وسيتطلب الأمر مواسم أخرى كثيرة قبل أن تقول أن الهرم أفضى بكل أسراره.

ولقد حضر مدير عام مصلحة الآثار ليرى الناووس، ولكن بعد هذا لم يصرح لأحد بإرتياد الهرم إلا الزملاء الأثريين في مصلحة الآثار، وأنا وعمالي. ومنذ أن فتحنا بناء الهرم، السفلي، اتخذت احتياطات خاصة لحراسة الأثر من أي احتمال لسرقة. ولقد عهد إلى جنود سودانيين من قوة الحدود المصرية بالحراسة، وهم رجال يعتمد عليهم وموضع ثقة، قاموا بالحراسة، فيما مضى من الزمان، على حفائر الأستاذ مونتيه في صان (تانيس) عندما وجد تابوت الملك بسوستس، الفضي الرائع وغيره من الكنوز. وقد أقيمت ثكنة حراسة في الرابية التي تشرف على مدخل الهرم، وكان الجند يذرعون المنطقة ليلا ونهاراً. وقد وضع باب من حديد متين في مدخل الهرم. وفي نهاية كل يوم، قبل مغادرة الهرم كان كل رجل يعمل في الداخل يفتش. وفي هذه المناسبات كنت أشترط دائماً أن أكون أول من يجرى عليهم التفتيش.

ولما فحصت وفتشت الدهاليز والغرفة، شرعت في دراسة الناووس في تفصيل أعظم. ولقد وازنت بينه وبين الناووسين اللذين وجدهما فرث وكويبل في هرم زوسر، ووجدت أن هناك وجوهاً للشبه، وثيقة، ولو أنه كان لكليهما غطاء، بينما هذا أعد فيه اللوح المنزلق. ولقد وجدا في النهاية القصوى لأحد الدهاليز التي تسير في اتجاه يميل إلى الغرب، أسفل مصطبة زوسر (أنظر الفصل الأول، صفحة **41**) وقد وصفهما كاشفاهما كما يأتي:

"إن التابوت الأول خلو من الكتابة والزينة، له سقف مقبب بطرفين مربعين. وفي كل من هذين الطرفين أنفذ ثقبان وأوصل بينهما من أسفل بأخاديد على شكل شبه دائري، وكان يمرر في الثقوب الحبال التي يحرك بها الغطاء لإقراره في موضعه، ثم كانت تسحب الحبال وتسد الثوب بسدادات من المرمر. ولقد وجدت هذه السدادات.. وقد أصاب الركنين الشمالي الشرقي والجنوبي الغربي عطب وأصلحا برقعات مقتطعة في حذق".

والناووس الثاني أكثر تشويقاً، ولقد كان يستقر داخل آخر غرفة ويصنع زوايا قوائم مع الأول على قاعدة من الحجر الجيري بارزة في جانبيها ولكن ليس في طرفيها، على مثال حجر وجدناه مقلوبا في النهاية الشرقية في غرفة أخرى[(69)] ".

وفي الناووس الثاني وجدت فرث وكويبل بقايا متناثرة من تابوت

[(69)] س. م. فرث **C.M. Firh**، ي. أ. كويبل **Y.E Quibell** "الهرم المدرج" الجزء الاول الصفحتان **41 – 3** **The Step Pyramid**

خشبي كانت تكسوه قشرة من الذهب، ولكن القبر سرق في الزمن القديم،كالمعتاد، ولم يبق إلا قطع دقاق من خشب التكسية (الأبلاكاش) ذي الطبقات الست أصابه البلى وجذاذات صغيرة من ذهب التكسية مختلط بالركام. ولقد كان هذا، أول مثال لخشب التكسية (الأبلاكاش) وجد حتى الآن. ولكن بين الأنقاض وجد المنقبون الهيكل العظمي لطفل يبلغ من العمر، ثماني أو تسع سنوات. ومسألة شيقة تتصل مباشرة بما تبين لنا بعد ذلك فيما يختص بداخل الناووس الجديد، هي أن هذا المثال الذي وجده فرث وكوبيل "كانت مساحات عظيمة منه ملطخة بخطوط عمودية متوازنة باللون الأسود، سببها الالتصاق الطويل بال... الطلقة الخارجية من التابوت.

وناووس مسطح القمة وليس مقبب السقف، والأبعاد الخارجية هي:

الطول : **2.37** من المتر

العرض : **1.14** "

الارتفاع :**1.08** "

وهو أطول كثيراً من الناووس الأول الذي وجده فرث وكوبيل (ولم يذكرا أبعاد الثاني ولكنه صغير أيضا إذ صنع لأجل طفل).

و"الثقوب... التي تتصل من أسفل بأخاديد شبة دائرية" لها نظائر في الناووس الذي كشف عنه حديثاً، ولكن في هذه الحالة يقع الثقبان في قمة اللوح المنزلق، ومن الجلي أن الغرض منهما أيضا أن يدخل فيهما

الحبال التي يرفع اللوح بها وينل (تبلغ زنته **500** رطل).

وناووسنا خال من الكتابة، كذينك اللذين وجدا في هرم زوسر وفي الشكل والصناعة يشبهان شبهاً وثيقاً [(70)].

والمرمات التي لحظها فرث وكوبيل في ركني أحد الناووسين اللذين كشفا عنهما لهن نظريات تكاد تتشابه في الناووس الجديد. لقد كسر الركن الشمالي الغربي الأعلى في الأزمنة القديمة ورمم بإدخال قطعتين جديدتين من المرمر من نفس النوع، وقد كسر أيضاً الركن الشمالي الشرقي الأعلى والركن الشمالي الشرقي الأسفل. ولكن القطع الأصلية استعيض عنها بقطع أخرى وثبتت في موضعها بالجص. وقد مليء عيب في قمة الناووس في الجانب الغربي قريباً من طرفه الجنوبي، بجص عمل على صقله وتلوينه ليضارع المرمر. والمرمر مادة محدودة الصلابة، وربما أصاب الناووس عطب عندما كان يجر منحدراً في الممر ثم بعد ذلك في موضع وفي هذا السياق، نذكر أن هذا هو أول استخدام معروف للجص كمادة تثبيت في تاريخ مصر القديمة.

وقد صنع الناووس من قطعة واحدة من المرمر، تحمل في قمة الطرف الجنوبي علامات من أثر منشار في شكل أشرطة. وقد صقلت جميع الجوانب، ولكن الصناع لم يعنوا بإزالة هذا العيب في الجانب الأعلى.

([70]) يوجد أيضاً ناووسان ناووسان وجدهما دي مورجان في دهشور، وهما في جميع التفصيلات وفي الأبعاد يعادلان ذينك اللذين وجدا في هرم زوسر ويشبهان الناووس الذي وجدته. وقد نسبهما دي مورجان إلى الدولة الوسطى، ويعتقد الآن أنهما يرجعان إلى الأسرة الثالثة أو الرابعة.

وفي تكوين مادته الرقيقة الشفافة والعروق الدقيقة التي تكون أحيانا ذهبية وأحياناً وردية اللون تبعاً للضوء، يعد هذا الناووس من أقدم الأمثلة التي وجدت إطلاقاً لناووس مصري ملكي، ومن أعظمها جمالا.

ولا يخالجني شك في أن الغرض منه هو أن يحوي جثمان ملك. والناووسان الصغيران اللذان وجدا في الهرم المدرج كانا في واحد من الدهاليز الفرعية الكثيرة، وربما أعدا لأفراد الأسرة الملكية. ولقد وجد هذا الناوس بالضبط في وسط غرفة فسيحة تقع – كما تحققنا بعد ذلك بالقياس – تماما تحت المكان الذي تكون فيه قمة الهرم.

كان المرمى، كالحجر الجيري يستخرج من أماكن كثيرة في مصر، وأحسن منجم معروف كان في موضع يعرف باسم حت – نوب في النقوش القديمة. وهو يقع في الصحراء الشرقية على بعد ما يقرب من خمسة وعشرين كيلو متراً جنوب شرقي العمارية في مصر الوسطى. وهناك لا يزال المرء يستطيع أن يرى الحفرة الهائلة التي احتفرت في الصخر إلى عمق يربو على ستين قدما ويوصل إليها بثقب ضيق، ولا يزال في الاستطاعة أن يرى المرء أسماء المشرفين والملوك الذين أرسلوها على مقربة من ممر الدخول. ويرجع بعضها إلى الأسرة الرابعة. ولما كان المرمر محدود الصلابة، كان من السهل نسبياً استخراجه من المحاجر. ولكن اختيار أحسن أنواع الحجر، وصناعته وصقله، لا بد أنها كانت تتطلب مهارة صناعية عظيمة وزخرفاً فنياً.

وبعد ملاحظة أوجه الشبه بين أبنية هرم ووصيد زوسر وأبنية الهرم

الجديد، أو بعبارة أخرى: طراز تماثل لسور الوصيد بدعامات وأجزاء بارزة وغائرة وحيطان إضافية تميل مسافاتها للداخل إلخ، فمن الشيق أن نذكر أوجه الاختلاف أيضا، لأنه بينما شيدت غرفة دفن زوسر – ولو أنها تقع أسفل الهرم – بكتل من الجرانيت في قرار حفرة مكشوفة ملئت بعد ذلك بالأبنية، فإن هذه الغرفة نحتت في الصخور الصم، وكان الوصول إليهما بممر طويل منحدر وأيضاً، فإن جثمان زوسر، إذا كان قد دفن في غرفته (ولا يوجد إلا قليل من الشك في هذا) لم يضمه ناووس على ما يكاد يكون محققاً. وأما هنا فيوجد ناووس مختوم في الغرفة الوسطى في الهرم الجديد، وهو فيما يظهر بوضوح، مكان دفن ملك.

ونقطة ثالثة: إن دهليز الدخول الذي يؤدي إلى غرفة دفن زوسر كان موصدا تماماً بالبناء والركام. أما هنا فإن الممر أوصد في ثلاثة مواضع فقط: في المدخل، وبالقرب من البئر العمودي، وعند مدخل غرفة الناووس نفسها. ويشبه الهرم الجديد في بعض النواحي، الهرم الجنوبي أو الهرم "الطبقي" في زاوية العريان شبهاً وثيقاً، وخاصة في تنضيد الدهاليز التي تتخذ شكل T إلى الشمال ولو أنه في ذلك الهرم تقع مخازن على جانب واحد من الدهليز، فقط، بينما في هذا البناء تقع على الجانبين على التبادل.

ويقول رايزنر: "وهناك، يشبه شكل المدخل وتصميم الغرف الواقعة تحت الأرض نظيريهما في قبور الأسرة الثالثة، ذات الدرج التي كانت تعد للأفراد. إن المدخل يهبط في ممر منحدر من الغرب ثم ينحرف في زوايا

قوائم إلى الجنوب ويهبط خمسة وأربعين مترا إلى غرفة منحوتة في الصخر تحت البناء" .

والتخلي عن بناء الحفرة وتفضيل غرفة نحتت في الصخر، يمكن أن يدل كما يدل استخدام أحجار أكبر في تشييد الهرم الجديد على تاريخ لاحق لعهد زوسر، ولكن سيمضي ردح من الزمن قبل أن تقرر على التحقيق موضع الملك سخم – خت الزمني في سلسلة ملوك الأسرة الثالثة.

الفصل العاشر

الاستعداد للفتح

دخلنا غرفة الناووس في الحادي والثلاثين من مايو سنة 1954، ولكن لم نفتح الناووس إلا في السابع والعشرين من يونيو.

وقد يتساءل لماذا سمحنا بمرور ما يقرب من شهر قبل أن نحصل على جواب عن السؤال الذي كان يراود عقولنا جميعها وهو: "هل كان الناووس يضم جثمان ملك؟".

والجواب هو أن علم الآثار لا يجري وراء الكنوز، ولكنه يسعى وراء المعرفة. وكانت توجد مهام كثيرة يجب قضاؤها قبل أن نخطو الخطوة التالية: كأخذ الصور الشمسية، وعمل المقاييس وإجراء التحاليل الكيميائية. وفضلا عن هذه الاعتبارات لم نكن بعد راضين تماماً عن حال ممر الدخول، وكان يجب القيام بالكثير من أعمال التقوية، قبل أن تتحقق السلامة للصحافة والجمهور لولوج الهرم.

وفي غصون تلك الأسابيع الأربعة القلقة، وبينما كان عمالي يقيمون الأبنية والدعامات الخشبية لتلك الأجزاء من الحيطان والسقف التي كانت في حاجة إليهما، كنت أنفق الساعات الطوال داخل الهرم أفحص كل بوصة من البناء السفلي وأدون التذكيرات وأشرف على التصوير وأحضر

الرسوم الهندسية، وفي الأمسيات عندما ينتهي عمل اليوم أعكف على دراسة الإلقاء، وأتناقش فيها مع غيري من الأقربين وأكون النظريات أو أنبذها.

كان يؤدى كل ذلك، تحت ضوء شديد من العلانية، ويدور في خلدي أن الأثريين منذ خمسين سنة خلت أو أكثر، من أمثال بورخاردت وكوبيل لم يكن يشغلهم عن مهمتهم الأصلية إلا اليسير من الشواغل، ولكن منذ أن كشف عن قبر توت عنخ آمون، منذ ثلاثين سنة، ثار في العالم أجمع حب الاستطلاع عن مصر القديمة ومنذ الكشف عن دهليز الدخول أظهرت صحف العالم اهتماماً بعملنا، يبعث على الزهو. وكان يصل إلى استراحتي كل يوم، على التقريب، صحفيون من أقطار شتى، يحدوهم الشوق للحصول على آخر أنباء لقرائهم. ولقد قدمت المجلة الأمريكية، ذائعة الصيت "لايف" (**Life**)، في سخاء ستة آلاف من الدولارات للمضي في العمل، وكان مندوباها، كاتب ومصور، إلى جانبي أحيانا كثيرة. ثم كان مندوبون عن التيمس (**The Time**) في لندن الذين كانوا على الدوام يظهرون اهتماماً عارفاً بالحفائر المصرية، وصحفيون غيرهم يمثلون صحفاً عن صيتها العالم مثل آل تمبو **Al Tampo** في إيطاليا وباري ماتش (**Paris – Match**) في فرنسا ونيويورك تيمز **New York Times** والمجلات الدورية والصحف الألمانية الرئيسية وكذلك الإسكنديناوية ومن بلاد تنأى عن هذه مثل الأرجنتين والبرازيل.

وفي معظم الأيام، كنت لا أكاد أتحين وقتاً لارتداء ملابسي وتناول طعام الفطور حتى تعلن جعجعة إطارات سيارة على الحصباء خارج منزلي وصول فوج آخر من الزائرين. ولم يكن هذا كل ما هناك. ولقد كانت نداءات المسرة (التليفون) والبرقيات تنهال من أنحاء كثيرة في العالم. ولقد رفع عامل مكتب بريد القرية في البدرشين، وقد آلت به الحيرة – وهو الذي لا يستلم نداء من أي مكان بعيد عن القاهرة، إلا نادراً – السماعة ذات صباح ليسمع صوتاً يتحدث إليه من مكان يدعونه نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية.

ولقد سمعت بعض الأثريين ينعون كل هذا. ولكن ولو أني أقرر أن هذا قد يكون، أحياناً أخرى يضيف وقراً ثقيل الحمل إلى أعمال الأثري، إلا أني أرى أن هذا الاهتمام يجب أن يقابل بالترحاب وأن يشجع، لقد ولت، منذ أمد بعيد، تلك الأزمنة التي كان فيها علم الآثار المصرية ترويجاً لنفر من ذوي الثراء، يستخدمون علماء متخصصين في الآثار المصرية. وكلما أصبح الاهتمام بعملنا والإلمام به أكثر عمقا وأعظم ذيوعاً بين جمهرة الناس، فإن هذا سيعود على عالمنا بالنفع. وفي هذه المرحلة، يجب أن أضيف أني أقدر تقديرا عظيما ما أولتني أنا وغيري من الأثريين المصريين، حكومتنا من تشجيع جعل عملنا ممكناً.

وبما أني أفصحت عن هذا، فيجب على أن أعترف أنه كانت توجد أوقات كنت أشعر فيها بعطف عل مستر هوارد كارتر، كاشف قبر توت

عنخ آمون الذي وصف في بيان واضح، في كتابه [71] ما لاقى من صعاب سببها اهتمام صحافة زمنه اهتماماً فيه غاية في التحمس. ولقد كتب مراسل معاصر: "كان يثير المشهد عند القبر ذكريات يوم سابق دربي، وكان الطريق المؤدي إلى الوادي الذي تكتنفه الصخور يزخر بالمركبات والحيوان من كل ضرب، والأدلاء والمكاريون من الغلمان وبائعو العاديات والمنادون على شراب الليمون يروجون سلعهم في صخب وعجيج. وعندما نقلت اليوم آخر الآثار من الدهليز، بدأ مراسلو الصحف يندفعون في نشاط عبر الصحراء، إلى شاطئ النيل على متون الحمير والخيول والجمال وعلى كارات رمل، تشبه المركبات وهم يتسابقون ليكونوا أول من يصل إلى مكتب البرق..."

وكتب كارتر نفسه:

"حلت أيام كثيرة في الموسم الأخير كنا نستقبل فيها عشرة جماعات من الزائرين، ولو أننا أجبنا كل مطلب، لما كان هناك يوم لا تتجاوز فيه العشرة. وفي عبارة أخرى لترادفت أسابيع دون أن ينجز فيها عمل على الإطلاق".

عندما كنت كبيراً لمفتشي الآثار في الأقصر وأعيش عيشاً ناعماً إلى حد ما، كنت أحيانا أقرأ هذه السطور في شيء من الحسد، ولكن بعد ما مارسته في سنة **1953** وسنة **1954**، عندما كانت صحف العالم تصل

([71]) هوارد كارتر "قبر توت عنخ آمون" كاسل ، لندن.

The Tomb of Tutankhamun – Cassell, London.

كل يوم إلى باب منزلي الموحش في سقارة، بدأت أدرك وجهة نظر كارتر. إذا طلب إليك أن تقوم بعمل علمي خطير، يستلزم رعاية عظيمة وفكراً مع قدوم زائرين باستمرار، فإن هذا يشبه الحال التي يطلب فيها إليك أن تباشر عملية جراحية دقيقة مع حشد من المتفرجين المتحمسين يزاحمونك بالمناكب. فعلى ذلك هل يسمح لي بأن أنتهز هذه الفرصة لأبين في رفق لأصدقائي الذي يعملون في الصحافة ولغيرهم من الزائرين الذين يهتمون بالموضوع، أن علم الآثار هو مهمة بطيئة وعسيرة، وأنه ليس على الدوام بمستطاع، وليس من الحكمة إطلاقا الإدلاء "بأجوبة خاطفة" على أسئلة، يمكن فقط تقديم أجوبة عنها بعد إعمال الفكر طويلا وفي صبر. وكذلك يجبر أن تتاح للمنقب، إذا كان عليه أن ننجز عمله على الوجه الصائب، الوقت الكافي للدراسة والتأمل.

ويوجد فرع من "العلاقات العامة"، لم يكن لكارتر شأن به في زمنه، ولكنه الآن يقوم كأمر مشكل آخر أمام علماء الآثار، وهو المذياع (الراديو) والتليفزيون. وكان يقدم إلينا مندوبون عن عدة شركات من شركات الإذاعة الكبرى في الشرق شركات من شركات الإذاعة الكبرى في الشرق الأوسط وأوروبا وأمريكا مع ما لديهم من آلات التسجيل، وكانت تذاع معلومات من يوم إلى يوم عن تقدم أعمال التنقيب بلغات شتى. ومعظم رجال الإذاعة هؤلاء كانوا يعنون على الأخص بإذاعة الأخبار في أثناء سير العمل، ولو أن إذاعة الحكومة المصرية أصدرت برنامجاً إخبارياً عن الحفائر في جملتها. وينسب الفضل كذلك إلى هيئة الإذاعة البريطانية، لأنه بالإضافة إلى مراسلهم المقيم مستر برنارد فوربس

فإنهم أرسلوا واحداً من أحسن كتاب Mr. Bernard Forbes التسجيلات عندهم، مستر ليونارد كوترل، الذي أمضى شهراً معي، وأنجز برنامجاً مكتوباً كاملاً عن العمل، وقد أذيع في النهاية على الموجات المحلية في بريطانيا وفي أقطاع كثيرة في الكومنولث البريطاني. هذا هو الاهتمام الذي يوجهه إلى علم الآثار، اليوم، عامة الجمهور في كل أرجاء العالم. وكان هناك أيضا وحدات التلفزيون وآلات تصوير الأفلام.

في هذه المرحلة من عملنا، كنت أعتقد اعتقاداً راسخاً أن الناووس كان يحوي جثماناً وقد أيدني في هذا الاعتقاد بعض النهابين من علماء الآثار. ولنفحص الأدلة حتى هذا التاريخ: كان لدينا هنا هرم غير تام، ومن أدلة استمدت من مدافن لاحقة له في الزمن، ظل دون أن يمس، وربما دون أن يعرف مدة لا تقل عن ثلاثة آلاف سنة. وكان المدخل موصداً بحائط ضخم من البناء، لم يمس كذلك منذ اليوم الذي بني فيه. وفي داخل الهرم كان ممر الدخول موصداً في موضعين آخرين. وكان حائطا الوصيد سليمين، في الحالتين. وفي قلب الهرم كانت توجد غرفة لم تنجز، لا يوجد لها مخلص إلا الممر الموصد، تضم ناووساً اتضح من شكله وتصميمه أنه صنع في الأسرة الثالثة، وأنه معاصر للهرم نفسه وكان هذا الناووس مغلقاً بلوح ينزلق ثبت بالجص في موضعه. ما هي النتيجة التي يمكن للمرء أن يصل إليها وتكون أكثر انسجاماً مع المنطق سوى أن الناووس كان يحوي جثماناً وأن الاحتمال الغالب أن ذلك الجثمان هو جثمان الملك الذي أقيم من أجله الأثر، الملك الذي كشفنا عن اسمه.

والموضوع المهم الذي كان يقلقني بادئ الأمر هو أنه كانت توجد في قمة بر البناء العمودية بقايا حيوانية تصحبها أدراج بردي من العهد الصاوي الذي جاء بعد ألفي سنة من التاريخ المزعوم لبناء الهرم. ولكن الحفرة التي تحوي العظام الحيوانية كانت مجرد نقرة في قمة الردم، أما بقيته فلم تمس، وعلى هذا استبان لي أنه حتى لو أن الصاويين كان لهم علم بوجود الهرم فإنهم لم يتوغلوا في الداخل.

واعتراض آخر آثاره في ذلك الوقت قلة من الناس وهو أن الناووس قد يضم ما نطلق عليه "الدفن الدخيل" أي دفن حدث في الهرم في تاريخ لاحق لبنائه. وإنا نعرف أن قدماء المصريين لم يتورعوا عن اغتصاب آثار أسلافهم إذا أتيحت الفرصة، وتوجد أمثلة كثيرة لمثل هذا الدفن الدخيل ولكن كل المعلومات الموجودة لدينا كانت تناقض هذه النظرية. كان هناك الناووس، الذي كان كما ألمعت عند الإشارة إلى الناووسين اللذين وجدا في هرم زوسر، من طراز ينسب إلى الأسرة الثالثة. وكذلك كان يوجد أيضاً دليل مماثل في قوة إقناعه لرفض هذا الاعتراض. إذ عندما ما كان يغتصب قدماء المصريين قبراً قديما، فإنهم كانوا أولا يشعلون ناراً في غرفة الدفن لطرد روح صاحبه السابق. وفي تجاربي كأثري كنت على الدوام أجد شواهد على هذه العادة كما وجدها غيري من المنقبين.

ومن الجلي أن غرفة الناووس هذه، في الهرم الذي كشف عنه حديثاً، لم يدخل فيها أحد منذ اليوم الذي فيه قام عنها صانعوها. كانت

الحيطان خشنة غير منجزة، ولا تزال تحمل علامات الدهان وخطوط التسوية التي تركها عمال المناجم الأقدمين. ولا توجد على الحيطان أية آثار للسناج، التي كانت لتظل باقية لو أن الغرفة اغتصابها دخيل في زمن لاحق. وبعد تدبر الأمر في أعظم عناية، وبعد فحص ورفض كل نظرية أخرى كالسرقة أو الاغتصاب إلخ – كانت النتيجة التي انتهيت إليها أن الناووس كان سليماً وأنه على ما يقرب من اليقين، يحوي جثماناً. وكان يوجد أيضا الدليل ذو المغزى طاقة الزهور الجنازية التي توحي بأنه بعد إجراء آخر شعائر فإن أولئك الذين شيعوا تابوت توت عنخ آمون بعد ذلك بثلاث عشر قرناً، في ترك طاقات من الزهور والأغصان في المقبرة.

وفي أثناء هذه الفترة العصيبة عندما كان يطلب مني رجال الصحافة مراراً كثيرة أن أدلي بإجابات محددة على أسئلة، لم يكن بالمستطاع على الدوام الإجابة عنها إجابة حاسمة، كان يشد عزيمتي ويشجعني الاهتمام بالحفائر الذي كان يظهره الأفذاذ من علماء الآثار في أوروبا وفي العالم الجديد. ولقد قدم إلى مصر دكتور هانز شتوك من جامعة ميونخ ودكتور إلمار إيدل .Dr. Elmar – Edel من جامعة هايدلبرج خصيصاً لمعاينة الكشف.



(شكل **41**) زكريا غنيم يفحص "طاقة الزهر الجنازية" فوق سطح الناوس المرمري

ولقد اتفقا معي على قراءة اسم الملك وعلى أن كل الدلائل تشير إلى أن الملك قد دفن داخل الوصيد، ولقد أيدا أيضا القول إن غرفة الناووس لم يدخلها أحد بتاتاً منذ أن أجريت الشعائر الأخيرة للملك، ولقد كان لي الشرف أيضا بزيارة دكتور وليم ك هيز أمين القسم المصري بمتحف متروبوليتان للفن في نيويورك الذي دعم آراء زملائه من العلماء الأوربيين.

"إن الملاحظة الدقيقة والتسجيل الأمين، يمهدان لإعادة تكوين أية صورة، وإن واجب الأثري الأول، هو أن يجمع وينظم مواد لا يمكنه النهوض بها كلها بنفسه لأول وهلة، والكلمة الأخيرة على أية حال لا تكون له، وإنه لهذا السبب على التحقيق يجب أن يكون نشره المواد مفصلا تفصيلا دقيقاً حتى يمكن لآخرين أن يتوصلوا منه، لا لمجرد تأييد ورائه فحسب، ولكن لنتائج جدد وضوء أعظم" [72].

ولقد حاولت دائما أن أسير على هدى هذا المبدأ الحكيم، الذي وضعه ذلك العالم الأثري العظيم سر ليونارد وولي **Sir Leonard Woolly** منذ سنين كثيرة. وعلى ذلك ولو أن الشوق كان يحفزني كأي صحفي أو زائر لفتح الصندوق المرمري، فإنه كان لزاماً عليّ أن أتثبت من أن كل حقيقة أمكن الوصول إليها قد دونت، وكل مقاس وكل صورة شمسية قد أخذناها، وكل استعداد قد أنجز، للملاحظة العلمية وتسجيل فتح الناووس في اليوم الموعود..

إن علم الآثار كله تحطيم، في أحوال معينة، حتى عندما يكون تحطيم الأدلة، وهذا أول صدفة في حالة بناء متين الدعائم كهرم، منه، على سبيل المثال، في منطقة حفائر فيها أبنية باللبن التي وجدت. ومع هذا فإنه حتى في بناء كهذا لم يتم فيه إلا نصفهم، وفي الظاهر يخلو من آثار جنازية كبيرة، كان يوجد الكثير مما يجعل أخصائيين ينهمكون في العمل. وفي كل

([72]) سر أيونارد وولي، التنقيب عن الماضي صفحة **118** لندن **1940**.

Sit Leonard Woolley, **Digging up the Past**,

مرحلة، كانت الصور الشمسية يأخذها السيد حسب الله الطيب المصور الرسمي لمصلحة الآثار في سقارة. وكانت تؤخذ المقاييس في عناية للممر وللدهاليز المجاورة. وقد فحص الجيولوجيون طبقة الصخر التي يجتازها الممر وأخذت من البلورات، وأرسلت عظام حيوان الأضحية، التي وجدت في البئر العمودي إلى العلماء بالحيوان لفحصها وقد نزعت في عناية قسما صغيراً من بقايا طاقة الزهور الجنازية التي تحولت إلى كربون وأرسلته إلى مشرف لوران تاكهولم **Mrs.V. Learent Tackholm** للفحص المؤقت. وكان تقريرها الأولي هو أنه يمكن أن تكون من نوع **Ferula**[73] وموطنة ليبيا. وكانت هذه، شجيرة طيبة الرائحة تستورد إلى مصر القديمة لاستخراج الراتينج ويظهر أن النبات المعين كان **Asafoetida**. وقد أرسلت عينة أخرى للأستاذ جومان **Perfcssor Gaumann** في زيورخ للفحص الدقيق والتصنيف.

ولقد بعث بعينة أخرى من البقايا التي تحولت إلى كربون من هذا النبات إلى أمريكا للوصول إلى تاريخها بمذهب الإشعاع الذري الكربوني وهذا منهج استخدام منذ عهد قريب لتقدير عمر المواد التي كانت فيما سبق جزءًا من مادة حية، ولقد جاء بنتائج شيقة فيما يتعلق بالتاريخ المصري، وبالإيجاز يسير المنهج كالآتي:

إن الأرض تتعرض باستمرار إلى نسف الأشعة الكونية الذي يحول

([73]) **Ferula Asafoeti da** شجرة الحلتيت – محروث (أصله وجذوره) وهو عود الرقة النكران . هنك (فارسية) – الكبير (بمصر أبو كبير) دمعة. دمعة زيتون الحبش (صمغة) زنجبيل العجم. زنجبيل فارس عن معجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى – المترجم.

الكربون العادي (وزنه الذري 12) أو ثاني أكسيد الكربون إلى شكل آخر من الكربون (وزنه الذري 14) ولهذا نشاط إشعاعي ويتحلل على التدرج. وكمية الكربون الإشعاعي الموجودة في الغلاف الغازي تعادل على الإجمال الكمية المتوقعة إذا امتزجت بكل مادة حية واستغرقتها وإذا كانت الأشعة الكونية في شدة ثابتة خلال بضعة آلاف السنين الأخيرة، وعندما يموت متعض **Organism** لا يضاف إليه مزيد من الكربون الإشعاعي، والكمية الموجودة في المتعضي الميت تصل على التدرج طبقا لنواميس معروفة. وبعد قرابة خمسة آلاف سنة (مدة نصف الحياة) تنقص الكمية إلى النصف. وعلى هذا فإنه بالوقوف على نسبة الكربون الإشعاعي الموجود في عينة من الخشب، مثلا يكون من المستطاع تقدير المدة التي انقضت منذ أن ماتت الشجرة التي كانت قطعة الخشب جزءًا منها والمادة النباتية والخشب والفحم الحجري والعظم المحروق والروث وفحم البيت **Peat** (بقايا نباتية قديمة) وجدت مفيدة. ومن الضروري توجيههم أعظم عناية لمنع عدوى مواد يحتمل أنها تؤثر على النتائج.

ويطبق المنهج على تأريخ مواقع ما قبل التاريخ كالمغارة التي كشف عنها حديثاً في لاسكو **Lazcaux** في فرنسا حيث وجد أن كربوناً من المستوى السكني كان له من العمر 15.510 سنوات بفارق 900 سنة زيادة أو نقصانا.

وهنا بعض النتائج التي حصل عليها من عينات من الخشب أخذت من مقابر مصرية قديمة:

العمر بمقتضى الإشعاع الذري الكربوني	عمرها التقريبي	مصدرها	المادة
3679 – 350 سنة زيادة أو نقصا	4650	قبر زوسر	(1) خشب السنط
4802 – 210 سنوات زيادة أو نقصا	4575	قبر سنفرو	(2) خشب السرو
4883 – 200 سنة زيادة أو نقصا	4905	قبر الوزير حماكا	(3) خشب من كتل السقف

وفيما عدا العينة التي أخذت من قبر زوسر، يمكن أن يرى أن النتائج تنفق اتفاقاً قريباً مع التواريخ المقبولة على وجه عام.

والعينة من طاقة الزهور الجنازية تأخذ سيرها في الفحص على منهج الإشعاع الكربوني، حتى يتبين عما إذا كانت تتفق مع التاريخ الذي قدرته للهرم. وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذا يدل على أن الطاقة وضعت على الناوس في الوقت الذي وضع فيه لأول مرة في غرفة الدفن وليس في تاريخ لاحق.

ولقد أرسلت عينات من الجص الذي استخدم في ترميم ووصد الناووس، ومن الملاط الذي استخدم في حائط الوصيد الكيميائي وها هو ذا ملخص تقريره:

1) الجص من الجانب الأمامي.. ناصع البياض واستخدم لتثبيت الأجزاء المكسورة من الناوس متماسكا جداً وله مظهر الجص الصناعي. وقد تبين أن العينة هي دقات فوسفات الكالسيوم من الضرب النقي وتحوي آثار فوسفات الكالسيوم ممتزجة الغراء كلاصق.

2) الجص من مرمة الناووس وردية اللون. إنه لاصق جص عادي يحوي قليلا من كربونات الكالسيوم وفوسفات الكالسيوم وبعض السلكا وأكسيد الحديد والألومنيوم.

3) الجص من حائط الوصيد الشمالي، غير التام. تتكون غالبيته من دقاق الحجر الجيري ومادة لاصقة، لا يوجد إلا آثار قليلة جداً ولم يكن معرفته بصفة قاطعة.

وفي السابع عشر من شهر يونيو سمح لرجال الصحافة بدخول الهرم لأول مرة. وقبل الساعة التاسعة صباحاً كان يمكن رؤية السيارات التي تحمل الصحفيين ورجال التصوير الشمسي ومراسلي الإذاعة ترسل أضواءها في طريق الوادي، ثم تنحرف لتصمد في النقب الحجري المنحدر، إلى الجبانة. وقبيل منتصف الساعة العاشرة كان قد تجمع أكثر من مائة شخص حول الحفرة المستطيلة العميقة التي تؤدي إلى باب الدخول:

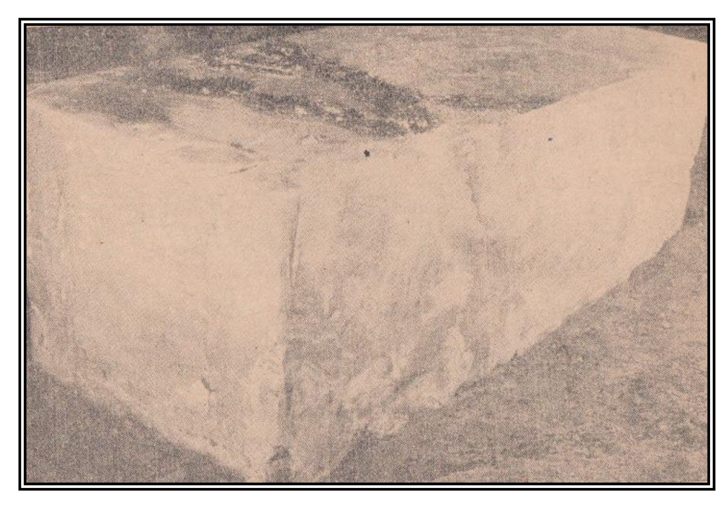
مصريون وأمريكيون وإنجليز وفرنسيون وإيطاليون وسوريون من الرجال والنساء. وكان بعضهم يحمل آلات التصوير، وغيرهم آلات التسجيل، وآخرون يجرون الأسلاك. وكانت حيطان الحفرة تردد أصداء عجيجهم وهم يتدافعون إلى الحاجز الحديدي الذي كان يقوم بالحراسة عليه جنود سودانيون باسمو الوجوه.

وهبطنا في الهرم مع حسين وحفني، ثم أشرت بإدخال أول فريق، والخطة الأصلية كانت أن يسمح لعشرة أشخاص فقط بالدخول في وقت واحد. ولكن سرعان ما تبين أن الصحفيين ما إن يحتويهم الهرم حتى يصبحوا غير متعجلين الخروج. ولو كنا التزمنا الخطة الأصلية ما كان يكفي يوم كامل للسماح لكل واحد برؤية غرفة الناووس. وعندما خرج نفر قليل منهم صاعدين في الممر شديد الانحدار تدفق عدد أعظم، حتى اكتظت الغرفة قبل مضي زمن طويل. ولقد طلبت إلى صديق بأن يسمح لي بأن أقتبس عبارة من خطاب كتبه في ذلك الوقت يصف المشهد:

"لا بد أنه كان يوجد على الأقل ستون شخصاً في تلك الغرفة عندما وقع عليها نظري لأول مرة... وفي وسط الأرضية كان يستقر الناووس، قطعة بسيطة مستطيلة من المرمر تشيع فيها عروق جميلة دقيقة، وتتباين ألوانه من الذهبي إلى الوردي. وحول هذا الأثر المنفرد الجميل احتشد الصحفيون، والعرق يتصبب من وجوههم لأن الحر كان شديدا جداً، في غرفة تقع على عمق 39 متراً من سطح الصحراء. ولقد انحنى البعض على الناووس وحاول غيرهم أن يحدق النظر تحته، وطائفة منهم رابطت في الدهاليز التي تنفرج في الجوانب الأربعة وأحكموا وضع آلات

التصوير التي لديهم. وكان يوجد الكثير من ومضات النور الكشاف وأزيز آلات التصوير السينمائية، خليط متنافر من الأصوات تتحدث بلغات عدة: الفرنسية والإنجليزية والعربية، وكان غنيم يقف بالقرب من نهاية الناووس، يرتدي قميصه الكاكي وقبعة للوقاية من الشمس، وهو يحاول أن يسمع صوته في ذلك الطنين".

وكان هذا كله جد مغاير لليوم الذي تعثرت فيه خطانا، أنا وحفني إلى الغرفة، اليوم الذي وقفنا فيه في خشوع حول الناووس وعكفنا على التلاوة من كتاب الله. وألم بي زهو لما أصابه كشفي من ذيوع صيت بعد ثلاث سنوات من كدح لا يكاد يلمح إلا من الأثريين زملائي المثقفين والصحفيين، ولكن عندما قام عنا آخر زائر ليكتب تقريره وأوصدت باب الهرم إلى الخلف مني، رجعت بالسيارة إلى المنزل، وقد انزاح حمل، اغتسلت، ثم استسلمت للسبات.



(شكل 42) الناووس المرمري، ويظهر فيه اللوح الذي ينزلق في الطرف الشمالي و"طاقة الزهر الجنازية" في موضعها.

وقبل آخر أسبوع في يونيو كانت كل الاستعدادات لفتح الناووس قد اكتملت، وتباحثت مع الأستاذ مصطفى عامر في إمكان إجراء الفتح على مشهد من الصحافة، كما اقترح. وكان الوجه الصائب في رأيي أنه تقرر فتحه أولاً على مشهد من كبار موظفي المصلحة.. لقد كان من الصعب بمكان عظيم أن تجري هذه المهمة الدقيقة، حين تحدق بنا آلات التصوير وآلات المذياع والمراسلون المتحمسون. ولم تكن لدينا أية فكرة عن حالة التابوت والمومياء لو أنهما وجدا. ولقد اتخذت الاحتياطات الشديدة بتصوير داخل الناووس، لحظة فتحه، خشية أن يكون اندفاع الهواء سبباً في تفكيك البقايا.

وكانت الأيام الأخيرة ترهق الأعصاب، إذا بدأت الصحف تظهر بعناوين ضخمة مثل: "قبر فرعون ينبعث بريق ذهب" و"اللغز الذهبي للهرم غير التام".

وكنت في شوق إلى اليوم الذي ينكشف فيه السر بطريقة أو بغيرها.

الفصل الحادي عشر

سر الناوس الخاوي

سيكون من العسير أن يكتب هذا الفصل دون الظهور بمظهر من يغلو في الوصف الفاجعي، ولكن يجب أن أحاول تصور إذن بضعة نفر من الرجال يجتمعون عند المدخل المؤدي إلى الهرم في صباح السادس والعشرين من شهر يوليو،

وكان بينهم: الأستاذ مصطفى عامر مدير عام مصلحة الآثار، والسيد زكي سعد، والسيد محمد مهدي، والدكتور زكي إسكندر من المصلحة، وعاملي: حفني إبراهيم وحسين إبراهيم اللذين عملا معي ثلاث سنوات طوال، وربما كان هذا ذروة جهودنا كلها. وعندما كنت أسير هبوطاً في الممر الطويل الذي جزته مراراً كثيرة، وكانت مشاعري خليطاً متمازجاً من الطمأنينة والتوتر، إلا أن التوتر ستجيء نهايته سريعاً، والأمل في كشف عظيم، والقلق من أنه، بعد هذا كله، سيكون الإخفاق نصيبي.

وتبادلنا اليسير جداً من الحديث إلى أن دخلنا الغرفة التي يستقر فيها الناووس، ومرة أخرى وقفت لأتملى جمال صندوق المرمر البسيط الذي كانت جوانبه تعكس ضوء المصابيح الكهربية اللامع، التي وضعناها داخل الغرفة. وكنا قد أقمنا في الطرف الشمالي، القريب من باب الدخول

صقالة تتدلى منها بكرة عظيمة، وقد وضع عليها حبل في طرفه خطافان من الصلب كنت قد أشرت بصنعهما خصيصاً لإدخالهما في الثقبين اللذين يقعان في قمة اللوح المنزلق. وقد نضد عمالي الأضواء في عناية، ووضعت آلات التصوير في أمكنتها. وقد وقف بعض رجال المصلحة إلى جانب ومعهم المواد الكيميائية الواقعية لاستخدامها عند الضرورة.

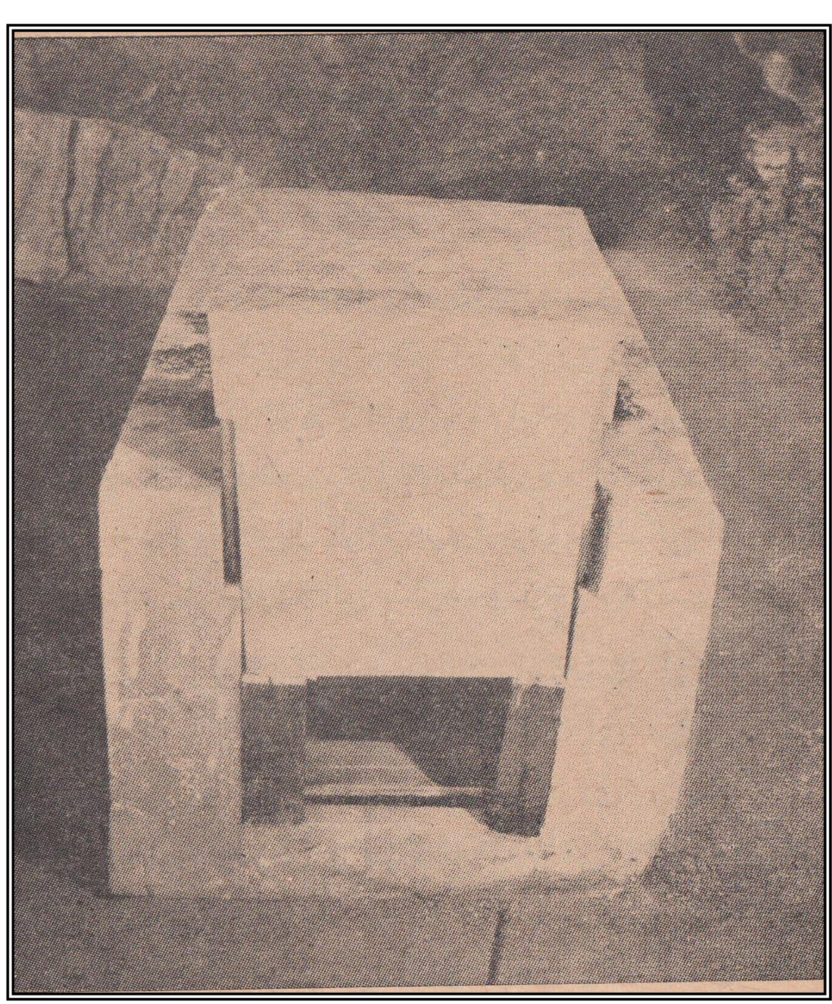
وذهبت خواطري إلى الأثريين الآخرين الذين وقفوا على قرب من كشوف عظام: كارتر عندما فتح القاعة الأمامية المختومة في قبر توت عنخ آمون، ورايزنر عندما وجد مخبأ دفن الملكة حتب حرس الذي أخفى على بعد سحيق، وتبادلت النظرات مع حفني وحسين وعرفت ما كانا هما أيضا يشعران به.

وأخيراً أصبح كل شيء جاهزاً وأمرت بالبدء في العملية. وشرع اثنان من عمالي في رفع الحبل بينما وضع آخرون عتلات في الشق الذي يقع بين الجزء الأسفل من اللوح والناووس. واستجمع الرجال كل قواهم وسمعت صلصلة المعدن على الحجر. ولم يحدث شيء، إذ كان اللوح موطنا في إحكام في مكانه. وعالج العمال الرفع مرة أخرى، ولكن اللوح الثقيل قاوم، مدة طويلة، كل جهودنا التي بذلناها في زحزحته.

ثم أخيراً بدأ يتحرك سنتيمترات قليلة، وأنفذت أوتاد في الفتحة وفحصت اللوح في عناية لأتأكد من عدم حدوث أي عطب. وكنت على صواب في حدسي من أنه كان يوجد إفريز عمودي يسير هبوطاً، في كل من جانبي اللوح وينزلق في حذر وأمرت بالمضي. وكانوا ستة من الرجال

يعملون في رفع اللوح، ولكن بلغ من ثقله (قرابة خمسمائة رطل) والإحكام الذي ختم به بمزيج من لصاق الجص والغراء أن ساعتين تقريباً انقضتا حتى بدأ أخيرا في الصعود وهويت جاثماً على ركبتي ونظرت إلى الداخل. لقد كان الناووس خاويا

* * *



(شكل **43**) الناووس واللوح الذي ينزلق وقد رفع. إن زنته خمسمائة رطل

ونهضت على قدمي، وقد استبدت بي حيرة، ووقفت حيناً من الزمن أتطلع إلى الناووس في صمت. ولم يحر زملائي، أيضاً، كلمة وكان الأمر في بدايته يتجاوز إدراكي. أكانت سرقة؟ كيف يحتمل سرقة الناووس بينما الحيطان الثلاثة الواصدة كانت سليمة وصندوق المرمر مختوماً؟.. لم يكن هذا مما نفقه له معنى، ومرة أخرى ركعت وتطلعت إلى الداخل بمعاونة مصباح شديد الضوء وكان الداخل نظيفاً نظافة تامة، لا لطخة فيه. ولم يكن قد صقل كما صقل الجانب الخارجي، وكان لا يزال يحمل علامات المثاقيب الأنبوبية التي استخدمت في صناعته. ولو كان قد ضم تابوتاً على الإطلاق، فعلى التحقيق كان سيحمل بعض العلامات كما في الناووس الذي كشف عنه فرث في هرم زوسر (أنظر الفصل التاسع ص **173**)

وكلما تعمقت في فحص هذا الناوس الخاوي أصبحت على يقين من أنه لم يحو أبداً جثماناً، ومع هذا كانت هناك طاقة الزهور الجنازية فوق ذروته. كيف يفسر المرء ذلك؟

ولكن في تلك الآونة، لم يكن هناك شيء يمكن عمله. وقد أخذت صورة شمسية، وأخذ الدكتور زكي إسكندر، من المعمل الكيميائي، عينات من التراب الذي يستقر في أسفل الجانب الداخلي من الناووس في ركنه الأيمن. ثم صعدنا الممر في تأن وتفكير راجعين إلى الخارج، إلى ضوء الشمس اللافح.

وبطبيعة الحال، أنبئ السيد الرئيس جمال عبد الناصر بأن الناووس كان خاوياً، وأن كنزاً لم يوجد داخله وقد تفضل بالإجابة: "إننا لا نهتم

بكنز. إننا قادمون إلى سقارة لرؤية الناووس، ولرفع شأن البحث العلمي ولتشجيع الأثريين المصريين".

ولقد أتى ومعه معاونوه، وقضى بعض الوقت معي في غرفة الناووس بينما كنت أشرح نظرياتي. وهذا التشجيع من زعيمنا كان له أثر عظيم في تقوية عزيمتنا جميعاً، وأزاح شيئاً من الشعور بالخيبة وأصبحنا الآن أكثر تصميماً لسبر غور السر.

وأحيطت الصحافة علماً، وأعلنت بعض الخطوط العريضة الأخبار التي تبعث على القنوط للعالم. ولقد جعلت إحدى الصحف عنواناً لبلاغها "فرعون زائف" وأخرى "ينقبون ثلاثة أعوام ولا يجدون شيئاً". أما الصحف التي تتمسك برزانة أعظم مثل التيمس (The Times) في لندن فقد كانت أكثر عطفاً والتمست العثور على جواب عن المسألة التي لم تصل إلى حل ولكن الصحف الأكثر شعبية، على وجه عام، غدت ، بطبيعة الحال، عديمة الاهتمام بالهرم منذ اللحظة التي اتضح فيها أن الناوس لم يكن يحوي "كنز فرعون الذهبي".

أما أنا فإني أقر أنها كانت ضربة مريرة، في البداية. ولكن من المسلم به أني كنت قرير العين لكشف هرم جديد، واسم ملك من الأسرة الثالثة غير معروف إلى الآن. ومن الناحية الأثرية، كان هذا في ذاته نصراً، وكذلك كنت أعلم أن العمل لم يكد يبدأ وأنه لابد أن توجد دهاليز صفلية تتطلب الارتياد. وعلى الرغم من هذا أجد لزاماً عليّ أن أعترف بشعور بالخيبة، عظيم، لعدم وجود جثمان الملك في المكان الذي كان ينتظر وجوده فيه.

في المكان المنتظر وجوده فيه... ولكن هل للمرء الحق أبداً في أن يتوقع أي شيء محدد عندما يكون له شأن بآثار قدماء المصريين؟ لقد كانوا ناسا داهين [74]، مهروا في أساليب الخديعة وتاريخ الحفائر يزخر بأمثلة عن مسالك ليس لهن مخلص [75] إلى مكان، وأبواب كاذبة وشراك وخطط موضوعة للمكر بلصوص القبور. وربما لم ينتووا أبداً دفن الملك في الهرم؟ ولكن كان هناك ممر الدخول الموصد، وما حدث من أن الغرفة كانت لتقع على التحقيق تحت ذروة البناء لو كانت قد أكملت. وكان هناك مثال بناء هرم زوسر الذي يشبهه شبهاً تاماً والذي دفن فيه الملك، بما يقرب أن يكون محققاً في غرفة الدفن أسفل الهرم استخدامه، بصفة قاطعة، للدفن. كيف يمكن للمرء أن يدلي بسبب ذلك؟

هذه، وغيرها من أفكار كثيرة تواردت بخاطري خلال الأيام والأسابيع التي أعقبت الفتح. وكان الموسم الآن قد انتهى، ولا يوجد مزيد من التنقيب حتى الخريف القادم. ولكن عندما كنت أعني بالاستعدادات النهائية لغلق الهرم كان من النادر ألا تراود عقلي مسألة الناووس الخاوي. وعلى أي سبيل، عقدت النية على الوصول إلى قرار السير.

وكان من الجلي أن فكرة السرقة كانت سخيفة، ولو كان القبر سرق، فهل كان اللصوص ليعنوا بغلق وإعادة ختم الناووس وإعادة بناء الحيطان الثلاثة الواصدة؟ كان هذا مما لا يمكن تصوره. فالقبر المنهوب

([74]) يقال رجل داه، أي ذو حيلة ومكر

([75]) منقذ.

عبارة عن مشهد تخريب، يفتح فيه الناوس كسراً، وتتبعثر هنا وهناك قطع الأثاث الجنازي، والغرفة في الغالب تنقب بثقوب صنعها اللصوص للتوصل إلى دخول غير المشروع. لا، لم يكن ذلك هو الحل، ولكن الهرم لم ينجز بناؤه، كما هو جلي. هل يحتمل أن البنائين حملوا الناووس إلى الغرفة ثم تركوه هناك وبعد ذلك أعادوا وصد الممر انتظاراً لموت الملك وعند ذاك يعيدون فتحة لدخول المومياء؟ ولسبب، أو لغيره، دفن الملك في قبر آخر؟

ولكن إذا كانت الحال كذلك، فلماذا زلقوا اللوح في مكانه وختموه بالجص وجعلوا من العسير، إلى حد بالغ، فتحه؟ لماذا لم يتركوا اللوح جانباً إلى أن تستدعي الحاجة إليه؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلأي غرض وضع تصميم الغرفة.

ثم كانت هناك بقايا النبات التي كانت في مظهرها تشبه طاقة زهور جنازية.. هل كان قدماء المصريين يضعون طاقة زهور على الناووس إلا إذا كانت شعائر الدفن المناسبة قد أديت؟ ومع هذا فمن الواضح أن الناووس لم يحو أبدا جثماناً. وهنا يكمن سر آخر!

ثم ذهب تفكيري إلى أول حائط وصاد وقد بنى، كما نذكر، على أن سبب هذا يرجع إلى أنه بعد حمل الناووس إلى الغرفة أغلق البناءون، بصفة جزئية المدخل تاركين فراغاً كافياً لإدخال المومياء عندما يحين موعد الدفن الحقيقي، وكان يخال في ذلك الوقت أنه التفسير الأكثر احتمالاً. ولكن لماذا يحملون أنفسهم عناء القيام بهذا إذا لم يكن في النية إطلاقاً دفن الملك أسفل الهرم؟ ولكن ربما كانت النية معقودة على النهوض بهذا ثم

حدث تغيير في التصميم؟ هل كان ذلك حلا جزئياً؟ إننا نعلم من آثار مصرية أخرى أن البنائين كثيراً ما كانوا يغيرون تصميماتهم في أثناء البناء. هل من المحتمل أن النية الأصلية كانت أن يدفن الملك سخم خت تحت الهرم، ولكن لسبب ما تغير التصميم ودفن في النهاية في مكان آخر ربما أسفل الوصيد الخارجي؟

ثم تذكرت الحائط الأبيض الذي كان في الأصل في نهاية الطرف الشمالي من وصيد الهرم، ولكن غطي بعد ذلك وبني امتداد له في الجانب الشمالي، وهذا – مرة أخرى – دليل واضح على تغيير في التصميم قام به البناءون الأصليون (أنظر الفصل الرابع صفحة 87). ألا يمكن ربط هذا، بطريقة بالتغيير الظاهر في ترتيبات الدفن؟

وكان مما تضيق به النفس أن نضطر إلى وقف الحفر في مرحلة كانت توجد فيها أسئلة كثيرة تتطلب جواباً، ومشكلات قد يعاون مزيد من البحث على حلها. لكن في تلك الآونة كانت هذه غير ذات موضوع، وكان على أن أرتضي وضع نظرية تقوم على ما عرف من حقائق. ومرة أخرى، عدت إلى هرم زوسر العظيم، وبينما كنت أسير متفيئاً ظلاله وأتطلع صوب هرم أوسر كاف الذي يقع غير بعيد،م تذكرت كيف قلت لصديق قبل فتح الناوس، مازحاً: "إن زوسر وأوسر كاف، يتحدث الواحد مع الآخر، ويقولان إن صديقهما القديم سيولد من جديد"، وفي إشفاق فكرت أنهما إذا كان يتحدثان الآن فإنهما مستغرقان في ضحكة طيبة مني!

ولكن لا بد أن يكون هناك أثر يستدل منه على السر لو استطاع

المرء أن يجده! وتوارد في خاطري احتفال السد أو المهرجان الذي يرتبط بفرعون في حياته وبعد موته. والغرض الأصلي من هذا العيد كان أن يجدد في شخص الملك القوة الإلهية التي أضفتها على احتفالات التتويج والقوة الإلهية هي الملك.

ذكرت آنفا في هذا الكتاب أنه إذا كنا لنفهم معنى الآثار المصرية القديمة والغرض منها؛ فيجب أن نبذل جهدا جديا في أن ننفذ إلى عقول قدماء المصريين، ويحتاج هذا إلى إفساح المجال للخيال ليسرح في مدى بعيد وخاصة لمن لا يكونون من عداد علماء الآثار المصرية. وسيجد أولئك الذين ينزعون إلى تقدير الأمور من وجهة نظر ثقافتنا وديننا المعاصرين أن في شرحي المؤقت الذي سأقدمه عن سبب أن الناووس الخاوي، تعسفا وإسرافا في الخيال، ومثل هؤلاء يمكنني فقط أن أوصيهم بأن يقرأوا كتابا علميا عن ديانة قدماء المصريين، وسيجدون شعائر وعادات أشد غرابة. ومعظم ما سأذكره سيكون مألوفا لدى علماء الآثار المصرية، ولو أن الكل لن يكونوا على استعداد لقبول نتائجي.

وكمثل من ارتباط عيد السد ارتباطا وثيقا بالملك بعد موته، لدينا الأبنية الصورية في وصيد زوسر التي لها صلة بالعيد الذي أتيت عليه بالوصف في الفصل الأول. ويظهر أن الغرض منها أن تستخدمها روح الملك في الحياة الآخرة. وتوحي بأنه حتى بعد الموت يكون في حاجة إلى تجديد حيويته في فترات منتظمة وبهذا يمارس دورة دائمة من الشعائر يعاد فيها توطيد نشاطه وتكرر إجراءات تتويجه.

إن الغرض من عدة أبنية داخل وصيد زوسر العظيم لا يزال غامضا. ومن بين أمعنها في الغرابة هو ما يطلق عليه القبر الجنوبي الذي وصف وصفا موجزا في الفصل الأول، الصفحة 47. وأنتوي الآن وصفه في استفاضة أعظم، لأن هذا قد يلقي ضوءًا على الغرض من الناووس، في الهرم الذي كشف عنه حديثا.

لا يعلم أحد الغرض من إقامة هذا القبر، ولو أن عددا من الاقتراحات قدم أنه على شكل حفرة منحوتة في الصخر، عميقة لها نفس أبعاد الحفرة التي تقع أسفل هرم زوسر، والتي يوصل إليها بمنحدر جانبي. وفى قرار الحفرة توجد غرفة من الجرانيت وردي اللون،كذلك كما في هرم زوسر، وموصدة بنفس الطريقة من الجرانيت يتلاءم مع ثقب صنع في السقف المستوي. وفوق غرفة الدفن هذه، مباشرة،كانت توجد غرفة أخرى، استخدمت كما يتضح، ليودع فيها السداد قبل الدفن ولا تزال توجد الكتلة الخشبية الثقيلة تمتد من حائط إلى حائط فيها، وهى التي كان يمر عليها الحبل الذي استخدم في رفع وخفض السد.

وكان سقف الغرفة يدعم الركام الذي ملئت به الحفرة، وقد بنيت فوق هذه الغرفة مصطبة حجرية، تسير من الشرق إلى الغرب، وقد استخفى معظمها داخل سور الوصيد العظيم.

والصفة التي يختص بها هذا القبر الجنوبي هي هذه: أن مساحة غرفة الدفن الجرانيتية تبلغ مترا وستين سنتيمترا مربعا فقط، وهي أضيق من أن تحوي جثمان شخص عادي القامة، إلا إذا دفن في وضع القرفصاء وهو

احتمال بعيد في قبر ملكي في هذا العهد ومع هذا فإن "القبر" كان قبر زوسر، والدهاليز التي تقع على مقربة إلى الشرق من غرفة الدفن، منقوش عليها اسمه وفي أحدها توجد ثلاثة أنصاب يظهر فيها الملك، وهو يقوم بتأدية احتفالات دينية، ومن بينها احتفال يؤدي فيه،كما يظهر "الحرية القصيرة" التي جاء وصفها في الفصل الأول صفحة 38. ويظهر أن كل هذه الأنصاب كانت تتصل بعيد السد. وفى النصب الجنوبي يقف وهو يتجه إلى الجنوب كالمعتاد، واضعا تاج مصر العليا الطويل ولحية عظيمة مستعارة ربطت بشريط. وفي مواجهة التاج يوجد إطار (سرخ) ويحوي اسم نثري – إر – خت، والصقر الحامي يحلق فوقه يحمل علامة "عنخ" رمز الحياة، بين مخالبه. وفي النصب الأوسط يحمل التاج الشمالي ونفس الملابس والأسلحة. وفي النصب الشمالي يعتمر مرة أخرى تاج الجنوب الطويل، ولكنه كان قد خلع رداءه، وأصبح يتمنطق بحزام فقط. وإنه ليجري أو يرقص وهو يكاد يكون عاريا، ويحمل في يده اليمنى السوط، كثيرا من العلامات تظهر بانتظام في مناظر السد. ومناظر مماثلة تجئ في الغرف المزدانة، أسفل الهرم نفسه.

ويذكر كويبل وهو يكتب عن هذا القبر الجنوبي العجيب:

"من الصعب الاعتقاد أن هذه غرفة قصد منها استقبال جثمان ميت على الإطلاق. من الممكن إدخال جثمان من خلال ثقب السقف ولكن ليس بالمستطاع أن يودع محدودا إلى أقصى طوله، إن الغرفة بالغة الصغر (متر وستون سنتيمترا مربعا). ما الذي كان عزيزا على زوسر إلى

درجة تجعله جديرا بهذا القبر عظيم الكلفة، ولكن في نفس الوقت لا حاجة إليه في الهرم؟ هل كانت مشيمته؟ أم كان قلبه؟ أم الكبد؟ إلخ، وهي محتويات أواني الكانوب المعتادة؟ أو شيئا لا يخطر الآن على بال؟" [76]

والرأي الذي يقول إن هذا ربما كان قبر مشيمة الملكية رأي شيق. إن مشيمة الملك كانت على الدوام ترتبط في عقول قدماء المصريين "بكاه"

ويقول هـ. فرنكفورت في كتابه الرائع "الملك والآلهة"[77]

"إن كا الملك هي الكا الوحيدة التي تظهر على الآثار إطلاقا.إنها تولد معه كتوأم وتصحبه خلال الحياة كملاكه الحارس، وتقوم بدور التوأم ودور حاميته في الممات. وهي تحتفظ بصفة القوة الحيوية، ولكن تضفي عليها شخصية بطريقة لا تلحظ أبدا في عامة الناس.. يخال أن كل فرعون كان يعد توأما، ومع هذا فإن "أخاه" قد ولد ساكنا وولى فورا إلى الآخرة بالمشيمة التي جاء مولدها أخرا".

ولقد استمرت عادة دفن المشيمة الملكية حتى زمن قريب في يوغندا، والرأي القائل إن هذه العادة ربما تكون قد روعيت في مصر القديمة جاء في بحث نشره س ج سليجمان C. G. seligeman ، م

([76]) س . م . فرث **C. M. firth**، ج.أ. كويبل **J.E. Quibell** الهرم المدرج "**1933** صفحة **57** **The. step pyramid**

([77]) هـ. فرنكفورت **H.Frankfort** – مطبعة جامعة شيكاغو شيكاغو **1948** الصفحتان **69 – 70** **kingship and the gods**

ا مرى M. A. Murray في صحيفة "مان" Man في سنة 1911. ومع هذا لا توجد أدلة مستمدة من وثائق تدعمه. ويستطرد كوييل قائلا:

"لدينا دليل واضح على أن الهرم لم يكن قد تم، عندما مات زوسر بينما كان القبر الجنوبي مغلقاً، ودرجه موصد في عناية، والبناء الأعلى مبني وقد وضعت تكسيته"

وحل آخر لهذه المسألة هو أن القبر الجنوبي كان قبراً صورياً الغرض منه دفن الملك دفناً رمزياً في أثناء عيد السد. وموجز القول، إن الغرض منه لم يكن أن يحوي جثماناً، ولكن كان مقراً "لكا" الملك أو روحه وبما أن يكاد يكون مؤكداً أن الأبنية الصورية في فناء السد، لم يكن الغرض منها أن تستخدم في هذه الحياة ولكن بعد الموت، فلا يوجد شيء يخالف المنطق في هذا الرأي.

وتوجد أمثلة معروفة لهذه "القبور الفرضية"، ففي جبانة طيبة يوجد "ضريح" نب – حبت – رع منتوحتب في فناء معبد هرمه في الدير البحري. هنا وجد هوارد كارتر في سنة 1900 ناووساً من الخشب مختوماً ولكنه كان خاوياً، مع تمثال لذلك الملك وهو يرتدي رداء السد. أما القبر الحقيقي فإنه يقع على مسافة أبعد إلى الغرب تحت الأكمة.

ولو أنه لم يحن الوقت بعد، لأن نستخلص نتائج محددة، فإني أشعر في شيء يقرب من اليقين أن الغرفة التي كشفت عنها أسفل الهرم الجديد
في شيء يقرب من اليقين أن الغرفة التي كشفت عنها أسفل الهرم الجديد

هي مثال آخر "لقبر صوري" أو دفن "فرضي"، ولا يتلاءم أي تفسير آخر مع الحقائق الواقعة. وإذا لم تبرز دلائل أخرى لنقضه فسأظل متمسكا به. وإذا كان هذا الرأي صحيحاً فيمكن أن يفسر لماذا بنى ملوك آخرون في هذه الحقبة السحيقة قبرا، وعلى سبيل المثال سنفرو.

ويمكن أيضاً أن يفسر وجود أكثر من غرفة في أهرام كثيرة. فمثلا يضم هرم خوفو الأكبر ثلاثاً منها فبجانب الغرفة السفلية غير التامة، توجد ما يسمى "غرفة الملكة" وكذلك "غرفة الملك". ولقد عرف منذ زمن بعيد أن الأولى كانت لتسميتها خاطئة، إذ أن الملكات لم يكن يدفن داخل أهرام أزواجهن، ولكن في أهرام أقل حجماً أقيمت خارجها. وإذا كانت إحدى الغرفتين قد أعدت خصصاً لجثمان الملك والأخرى "لكائه" فإن وجود الغرفتين يمكن تفسيره. ولقد تركت الغرفة السفلية غير تامة نظراً لتغيير في التصميم قام به المهندس المعماري. وتوجد أمثلة أخرى لأهرام وضع تصميمها من البداية لتحوي غرفتين، لماذا؟

لا يزال يوجد سؤلان في حاجة إلى إجابة أولهما: لماذا لم يدفن الملك سخم خت أسفل الغرفة، بينما دفن زوسر سالفه، على ما يقرب أن يكون محققاً، في غرفة الدفن الجرانيتية أسفل هرمه، والثاني بما أن سخم خت لم يعثر عليه أسفل هرمه.. فأين كان دفنه؟

وسأحاول الإدلاء بأجوبة محتملة عن هذه الأسئلة في الفصل الأخير.

الفصل الثاني عشر

سر آخر... خفي

قبل أن ألخص الأدلة التي لدينا حتى الآن، أريد أن أوجه نظر القارئ إلى كشف آخر، عظيم قام به منذ ثلاثين عاماً دكتور رايزنر على مقربة من الهرم الأكبر بالجيزة.

الدكتور رايزنر عالم آثار أمريكي، وكان يدير عام **1924** بعثة هارفرد بوسطن **Harvard Boston Expedition** عندما كانت تقوم بالتنقيب في المنطقة التي تحيط بها خوفو الأكبر.

ولقد بدأت البعثة العمل في عام **1902**، وفي عام **1924**، كان امتيازها يضم ثلثي الجبانة العظيمة التي تقع إلى الغرب من هرم خوفو ومنطقة هرم من منكاورع (منقرع) والمنطقة التي تقع إلى الشرق من هرم خوفو وتمتد جنوباً حتى أبي الهول.

وفي اليوم الأول من شهر نوفمبر عام **1924** استهل معاونو رايزنر العمل في الركن الجنوبي الغربي من الجبانة. لقد كانت مهمة شاقة تبدأ بنقل الرمل والحجر والأنقاض حتى مستوى أول أرضية ومنه إلى أرضية أكثر عمقاً وأخيراً يهبط التعميق حتى الصخر نفسه. وكان يجب أن ينظف كل متر مربع بهذه الوسيلة ويغربل الحفر [78] في عناية. وخلال عملية الإزاحة

([78]) الحفر بفتح الحاء والفاء – ما يخرج من الشيء المحفور (المترجم).

هذه، لحظ القائمون على التنظيف حافة نحت في الصخر يسير أسفل الأنقاض.

وفي الثاني عشر من ديسمبر عام **1924** كشف تماماً عن هذا النحت، ووجد أنه بداية هرم غير تام. وكان الصخر إلى الشمال من الهرم يكون رابية وطيئة. وعلى بعد ستة عشر متراً، كانت توجد الحافة التي تتجه صوب الشرق، لحجر كانت تستخرج الأحجار منه في عهد خوفو، وفي الجزء الغربي سوى السطح بحفر ما بلي من الصخر، إلى عمق يتراوح بين ثلاثين وخمسين سنتيمتراً تمهيداً لقطع كتل عظيمة من الحجر، ولكن استخراج الحجر وقف عند هذا الحد.

وفي آخر يناير عام **1925** كان على رايزنر أن يعود إلى أمريكا ليعاود القيام بواجباته الدورية في جامعة هارفارد. وذات صباح من فبراير عندما كان الدكتور على بعد سبعة آلاف كيلو متراً، حدث أن واحداً من معاونيه في الجيزة (مصور مصري يدعى عبده) كان ينصب حامل آلة التصوير على الأنقاض إلى الشمال تماماً من الشارع الرئيسي لمقابر المصاطب، تحت ظل الهرم الأكبر، ولقد ضاق من أنه لا يستطيع تثبيت الحامل الذي دأب على الانزلاق على الصخر الصليد. ثم غير موضعه فوجد، وقد استولت عليه الدهشة، أن ساق الحامل غاصت فيما ظهر أنه جص. واستدعى مستر الن رو **Mr. Alan Rowe** عضو البعثة وفحصا معاً السطح، فوجدا قطعة من الجص الأبيض تغطي نحتاً مستطيلا في الصخر كان يظهر أن يؤدي إلى باب في الجنوب.

وكان النحت محشواً بكتل صغار من حجر طره الجيري المنحوتة مبنية في جص أبيض. وسرعان ما تبينا أنهما كشفا عن قبر سليم، من نوع ما وقد نقلت أحجار الحشو طبقة بعد طبقة إلى أن ظهرت في الثالث والعشرين من شهر فبراير سلالم من اثنتي عشرة درجة كانت تسير من طرف الحجر الجنوبي إلى نفق منحوت في الصخر، قصير وينفذ في الحائط الشمالي لبئر عمودي.

وبحثوا عن قمة هذه البئر ووجدوا أنها كانت أيضاً قد أخفيت في دهاء. وكانت موصدة بأحجار تركت خشنة عن عمد حتى يكون لها مظهر سطح الصخر الطبيعي وقد قام كل شاهد عل أنها مدفن سري.

وخلال فبراير ومارس سنة **1925** سار تفريغ البئر قدماً وفي مبدأ الأمر ظن المنقبون أنها ستكون شبيهة تماماً بغيرها من الآبار الدفن أي تقع أسفل "مقابر المصطبة"، وأن عمقها يتراوح بين ستة وتسعة أمتار. ولقد وجدوا على هذا العمق لوحاً عظيماً من الحجر ملصقاً في حائط البئر الغربي، ظنوا لأول وهلة أنه يؤدي إلى غرفة الدفن. ولكنه لم يكن كذلك. لقد كان ببساطة يخفي كرة تضم بقايا جمجمة وثلاث سيقان لثور. ولكن أسفل هذا، كانت البئر تمعن في الهبوط ويوماً بعد يوم كان رئيس العمال سعيد أحمد، سعيدا ورجاله يكدحون في وقدات شمس لافحة عاكفين على جذب الأحجار التي كانت تملأ البئر وإرسالها إلى السطح في سلة رافعة.

اثنى عشر متراً ... خمسة عشر متراً ... ثمانية عشر متراً ... واحد وعشرون، ولا تزال البئر تسير هبوطاً في الصخر وأخيراً على عمق خمسة

وعشرين متراً جذب أحد العمال حجراً ورأى خلفه غرفة. وأحضرت مرآة لتعكس ضوء الشمس من قمة البئر إلى أسفل. وهناك وجد الكاشفون الذين أخذت منهم الحماسة، بقايا قضيب مكسوة بالذهب آثاراً من الذهب وزهريات من المرمر وناووساً جميلا من المرمر، وعلى ذروته استقرت شرط من الذهب، يستطيع المرء أن يقرأ عليها اسم سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة وأبي خوفو نفسه.

وعندما شرعوا في تفريغ الغرفة وجد الأثريون أن القضب المغلفة بالذهب استخدمت لدعم ظله يمكن حملها، كانت ترفع فوق سرير صاحبة القبر وكان الأثاث محطماً. ولقد أتى البلى على الخشب ورقائق الذهب التي كانت تغشيه يوماً، وتناثرت على الأرضية في آلاف من الشذرات الصغيرة، ولكن استطاع الأثريون في صبر بالغ، أن يعيدوا تركيب الأثاث الثمينة قطعه. وكان يشتمل على سرير رائع يحمل اسم سنفرو وكرسيين بمساند يكسوها الذهب وصندوق مرصع بالذهب ربما كانت تحفظ فيه ستائر السرير، وصندوق خشبي مغلف كذلك بالذهب يحوي ثماني عتائد [79] من المرمر يحمل كل منها نقشاً باسم الزيت أو الطيب الذي كانت تحتويه، مثلا "عطر العيد" و"كحل للعين، أخضر" و"زيت ليبي من أجود نوع". وكانت توجد أيضا مجموعة من خلاخيل من فضة مرصعة برسوم فراشات من اللازورد. وكان من الجلي أن القبر كان لسيدة، ولكن من كانت السيدة؟ وأخيراً تم ضم نقش هيروغليفي بعضه إلى البعض الآخر وإذا هو يقرأ:

([79]) العتيدة: وعاء الطيب. (المترجم)

أم ملك مصر العليا ومصر السفلى، تابعة حوريس رائدة الوالي..
حتب حرس.

كان القبر للملكة حتب حرس، زوجة سنفرو، وأم خوفو نفسه. وربما كان السرير الذي يجعل اسم سنفرو هدية الملك إلى زوجته، ولقد كانت هذه، أول أمثلة عثر عليها حتى ذلك التاريخ (1925) لأثاث جنازي وحلي يرجع تاريخها إلى الأسرة الرابعة (والأسورة التي كشف عنها حديثاً في الهرم الجديد من الأسرة الثالثة أي أنها سابقة لتلك):

ولكن بعض مظاهر الدفن بعثت الحيرة في رايزنر ومعاونيه، وإنها لا تزال مبعثاً للحيرة. فعلى سبيل المثال ترك العمال الذين صنعوا الغرفة أدواتهم إلى الخلف منهم. ويكتب رايزنر.

"في محاذاة الحائط الغربي كانت توجد قصعة من المرمر ومخرز من النحاس ثقيل، في حالة سليمة، وبالقرب من وسط السرير، أداة نحاسية ضخمة ربما صلابة، وإلى الغرب من الصلابة تماماً، تصل سكين من النحاس مثبت فيه نصاب من الخشب وكانت الصلابة والمخزن أداتي قطع ثقيلتين، عمليتين ولا يمكن تفسيرهما كبعض معدات جنازية للملكة".

كانت القضبان التي تدعم الظلة موضوعة في غير عناية على الناووس. وكان من المستحيل إقامة الظلة في الرقعة المحدودة من الغرفة الصغيرة. وكذلك كان يختلط بالصناديق والأثاث أنقاض كثيرة وجص، كان يظهر أنهما لم يكونا من حفر الغرفة التي وجدت فيها الآثار، وفي صندوق

وجدت شظية من المرمر كان من الواضح أنها كسرت من الناووس. ولقد وجدوا الموضع الذي كسرت منه.

ومع هذا، فقد ظهر أن الناووس سليم، وكان يخيل لرايزنر أنه مما لا يمكن تصوره أنه لا يضم جثمان الملكة. ولم يكن القبر قد سرق، وبناء حشو البئر العميقة لم يعبث به، ولم يكن هناك مدخل آخر.

وفي اليوم الثالث من مارس عام **1927**، على مشهد من ثمانية شهود أجريت الاستعدادات الأخيرة لفتح الناووس، ويكتب رايزنر يصف الفتح:

"أخذ مستر هويلر **Mr. Wheelecr** الذي كان يدير العمليات موقفه عند الرافعة الشمالية ومستر دنهام **M.Dunham** مع رئيس عمالنا المصري محمود أحمد سعيد عند الرافعتين الجنوبيتين. وكانت كل عين تشرئب إلى الناووس، وقد تزحزح الغطاء عن موضعه، وكان يرتفع في بطء، سنتيمترات في كل مرحلة، ورأينا جدران الناووس الداخلية تتكشف أمام أبصارنا. وكنا نعمق النظر لحظة بعد لحظة إلى عمق أعظم في الداخل، وسرعان ما تبين أنه لم يكن يوجد صندوق داخلي. وأخيراً بعد عشر دقائق، تحققنا كلنا أن الناووس كان خاوياً".

وعلى هذا فإن ما مارسته في غرفة ناووس سخم خت قد سبقني إليه دكتور رايزنر منذ سبع وعشرين سنة خلت، ولكن – مع هذا – كانت توجد فروق معينة. كان قبر حتب حرس يحوي أثاثا ومعدات الملكة

الجنازية، وكذلك وجد رايزنر في كوة مختومة تطل فتحتها بعيداً عن الغرفة، جرار "الكانوب" التي تضم الأحشاء التي انتزعت في أثناء التحنيط. وعلى هذا يكون من الجلي في هذه الحالة كانت النية معقودة لوضع جثمان الملكة في الناووس، ولكن لسبب ما نقل منه.

ومع هذا، فليس من المحتمل أن الجثمان قد نقل من الناووس وهو مستقر في الغرفة. ومن الحقيقة التي استبانت في أن الحيطان كانت خشنة وغير منجزة وأن المحتويات قد كدست في عجلة في غرفة تكاد لا تتسع لاحتوائها، استنتج رايزنر أن هذا كان دفناً معاداً، وأن الملكة كان مثواها في الأصل في قبر آخر، في مقبرة أكثر اتساعاً ربما تقع عن كثب من هرم زوجها في دهشور، وآيات العجلة الظاهرة، عدم إنجاز الغرفة.

والأدوات التي تركها العمال إلى الخلف منهم.. إلخ، كانت توحي أن المهمة أديت في عجل لماذا؟ إن نظرية رايزنر في إيجاز هي هذه. بعد أن دفنت أم خوفو بفترة قصيرة من هرم زوجها، دخل اللصوص القبر وحملوا الجثمان لما كان عليه من حلي ذهبية يزدان بها وربما كانوا ليأخذون الأثاث أيضاً، ولكن يحتمل أنهم أزعجوا وكان على شخص أن يخبر الملك أن مقبرة أمه قد سرقت أوجسوا خيفة من يأتيه بنبأ تواري جثمان أمه ويذهب رايزنر إلى أن الملك، الذي كان ينهض في ذلك الوقت ببناء هرمه الأكبر في الجيزة أنفذ أوامره لإحضار جثمان أمه بمعداتها الجنازية إلى الجيزة وإعادة دفنها في مخبأ دفن بتلك العناية في إخفائه، بالقرب من هرمه وبدأ العمال في مهمتهم، ولكن عندما وصلوا إلى عمق تسعة أمتار، العمق الذي كانوا في

المعتاد يهيئون غرفة الدفن فيه، وقعوا على رقعة من الصخر اللين، وكان لزاماً عليهم أن يبعدوا الغور. وأمعنوا في الهبوط جاعلين البئر أكثر ضيقاً ولكن لم يكن إلا بعد أن وصلوا إلى عمق غير عادي يبلغ أربعة وعشرين متراً أن أتيح لهم أن يجدوا حجراً يمكن أن تنحت فيه الغرفة.

ولكن الوقت كان يمضي سراعاً وربما كان قد حل الهلع بالموظفين المسئولين لئلا يتسرب السر، أو أن الرغبة حفزت خوفو لأن يرى جثمان أمه. وصدرت أوامر جدد لوقف المزيد من العمل وختم فجوات الحائط، فقذف العمال بالأنقاض المتجمعة في الحفرة، وأنزل الناووس الخاوي في البئر وأعيد وضع الغطاء، وغطي بقضب المظلة المنتزعة. ثم كدس في باقي الغرفة بقية أثاث الملكة وهي تختلط بالأنقاض والجص اللذين جاءا من القبر الأصلي. ثم شرعوا في إعادة ردم البئر بالأحجار، وكانوا في عجل من أمرهم حتى إنهم تركوا أدواتهم إلى الخلف منهم. وأخيراً بالقرب من قمة البئر احتفروا كوة في الحائط وضحوا بثور من أجل "كا" الملكة ودفنوا البقايا في الكوة.

وفي أثناء سير هذه الأعمال، هوت شظيتان من البازلت من معبد خوفو في البئر، وغاصتا في الكوة، وبهذا قام الدليل لدى رايزنر أنه عندما احتفرت البئر كان المعبد موجوداً أو أنه كان يبنى. وأخيراً أخفوا المدخل بأحجار خشنة ليكون له مظهر شبيه بسطح الصخر الطبيعي وانتهت المهمة.

وقد وضع رايزنر هذه النظرية البارعة، التي تستأثر باللب على الضوء الأدلة الأثرية التي وجدها في المخبأ ولا يوجد ما يؤديها من أدلة تقوم على وثائق. وموضع دفن حتب حرس الأصلي، إذا كان له وجود، لم يعثر عليه أبداً. وفي ظاهرها، تستبين أنها أعظم تفسير ملموس ومعظم الأثريين يقبلونه.

ومع هذا فإنه بالنظر إلى كشف ناووس خاو آخر، لم يكن قد سرق، فإني أرى أنه يجب إعادة النظر في النظرية بعناية. هل من المحقق أن ناووس حتب حرس كان القصد منه أن يحوي جثماناً على الإطلاق؟ إن وجود جرار الكالوب تحوي أحشاءها الداخلية يوحي بأن الأمر كان كذلك، ومع هذا فإن داخل صندوق المرمر كان نظيفاً تماماً لا لطخة فيه، كما كانت عليه حال الناوس الذي كنا نأمل أنه يحوي جثمان الملك سخم خت.

ربما لم يكن هذا دفناً معاداً، وأنه منذ البداية كانت النية معقودة على دفن الملكة بالقرب من هرم خوفو، ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا كان الناوس خاوياً؟ لقد اقترح بعض الثقاة أن الجثمان ربما كان قد سرق من حانوت المحنطين، وهذا من الجائز. ومن الجهة الأخرى لماذا، إذا كان هذا هو الدفن الأصلي، قد أكمل في مثل هذا العجل وكدست معدات الملكة في غرفة تكاد لا تتسع لاحتوائه؟

أو هل كان، بعد كل هذا، مثلا آخر "لدفن صوري" لم تكن النية أبداً أن يحوي جثمان الملكة الحقيقي؟ إنها لمسألة محيرة شاغلة [80].

([80]) على أولئك الذين يرغبون دراسة هذا الموضوع أن يقرأوا ما يسرده دكتور رايزنر خاصة، في نشرة متحف الفنون الجميلة، الأعداد الخامس والعشرين (ملحق خاص)، والسادس والعشرين والثلاثين بوسطن 32 – 1927.

Bulletin of he Museum of Fine Arts, **Vols**, **XXV** (**Special Supplement**), **XXVI and XXX Boston**, **1927 – 32**.

الفصل الثالث عشر

نتائج مؤقتة

لقد مر أكثر من عام منذ أن دونت آخر كلمات في الفصل السابق، وكان ذلك في يونيو سنة 1954، والآن أشرفت سنة 1955على نهايتها وإلى الخلف مني موسم من التنقيب جديد.

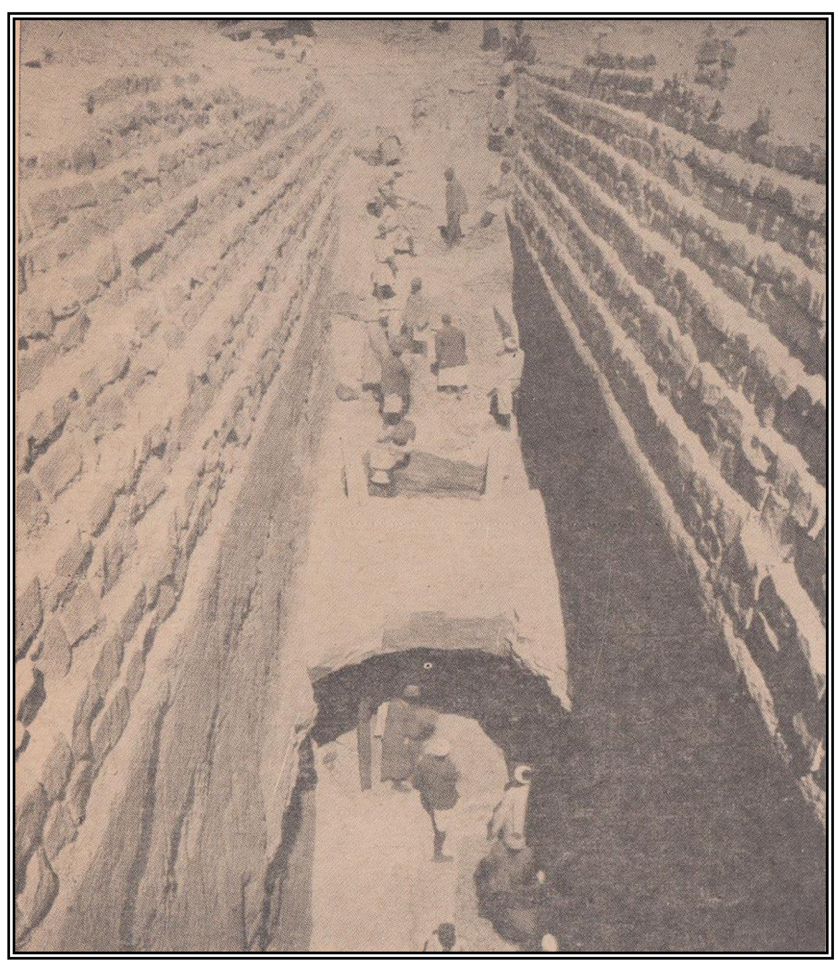
وفي أكتوبر سنة 1954 يممت شطر الولايات المتحدة الأمريكية في جولة محاضرات، ولم يكن حتى نوفمبر أن عدت إلى سقارة وعاودت العمل في الحفائر. وخلال ذلك الوقت، كانت لديَّ فرصة كافية لأن أمعن الفكر في هرم سخم خت وأتحدث عنه إلى زملائي الأثريين في أمريكا الذين حبوني بالتشجيع والأمل.

وعندما عدت إلى سقارة في عام 1954 استهللت عملي في نشاط موفور، وقد ذهب الصحفيون ورجال الإذاعة والتلفزيون وخبا الذيوع الذي لازم كشف غرفة الناووس، وكان فقط عاملاي الأمينان حفني إبراهيم وأخوة حسين يرحبان بقدومي، وبالطبع يفعمهما نظريات جدد وحماسة لأن أبدأ هجماتي على هذا الأثر الذي تكتنفه الأسرار.

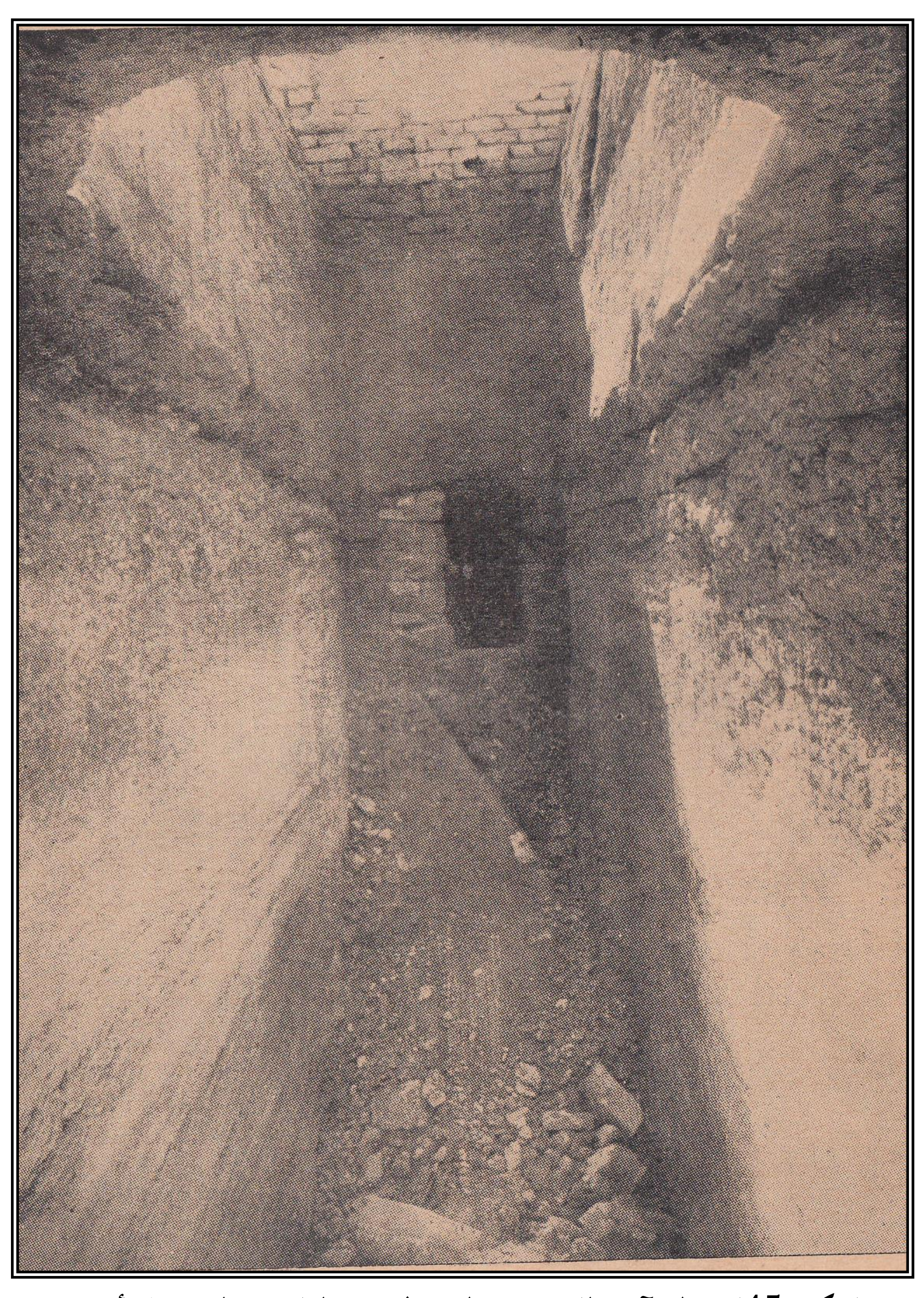
ذكرت أن مدخل الهرم يقع في الطرف الجنوبي لحفرة مستطيلة هائلة نحتت في الصخر الأصم في الجانب الشمالي من الهرم. ويؤدي هذا المدخل إلى ممر منحدر يغوص في الصخر ويقع منتهاه في غرفة غير منجزة، في وسط الهرم على ما يقرب من ثلاثين مترا أسفل سطح الصحراء. ولكن ظاهرة في حفرة الدخول هذه، أوقعتني في حيرة عظيمة. إن الحفرة نفسها كانت منحوتة في الصخر نحتا نظيفا ولكن عندما وجدنا المدخل المختوم (أنظر الشكل 28) لم نكن قد وصلنا إلى قرار الحفرة، وكنت في هذا على يقين لأن الأرض التي كنت أطأها لم تكن من الصخر الصلد ولكن كانت ركاما. وكانت البئر تسير هبوطا تحت مستوى المدخل الذي كشفت عنه، وكان حفني وحسين يحضانني على أن أتابع الحفر هبوطا وهما مقتنعان أن المدخل إلى غرفة الدفن الحقيقة يقع إلى أسفل..

وكان مائة وخمسون من العمال، أو نحو ذلك العدد، يكدحون طوال الشهر بفئوس وجرار، وهم ينقلون الركام الذي يملأ البئر. وعلى عمق اثنى عشر مترا، تحت سطح الصخر، اصطدمت معاولنا بباب آخر ينفذ في سور النفق الجنوبي ويؤدي إلى ممر أوطى يبلغ طوله تسعة أمتار فقط ولم ينجز نحته إطلاقا. ويرجع السبب، دون ريب، إلى الحال الرديئة التي كان عليها الصخر (أنظر الأشكال 44، 45، 46،). وربما كان لدينا انحدار المدخل الخارجي حتى يسير في صخر أكثر صلابة، ثم لما كان تحت الدهليز الأعلى يتطلب القيام به، التعمق في غور بعيد خلال طبقات من صخر الردئ حتى يمكن الوصول إلى غرفة القبر، فقد أخذت الاحتياطات لنحت سقف الدهليز في الشكل عقد من نصف دائرة ليتاح له أعظم مقاومة.

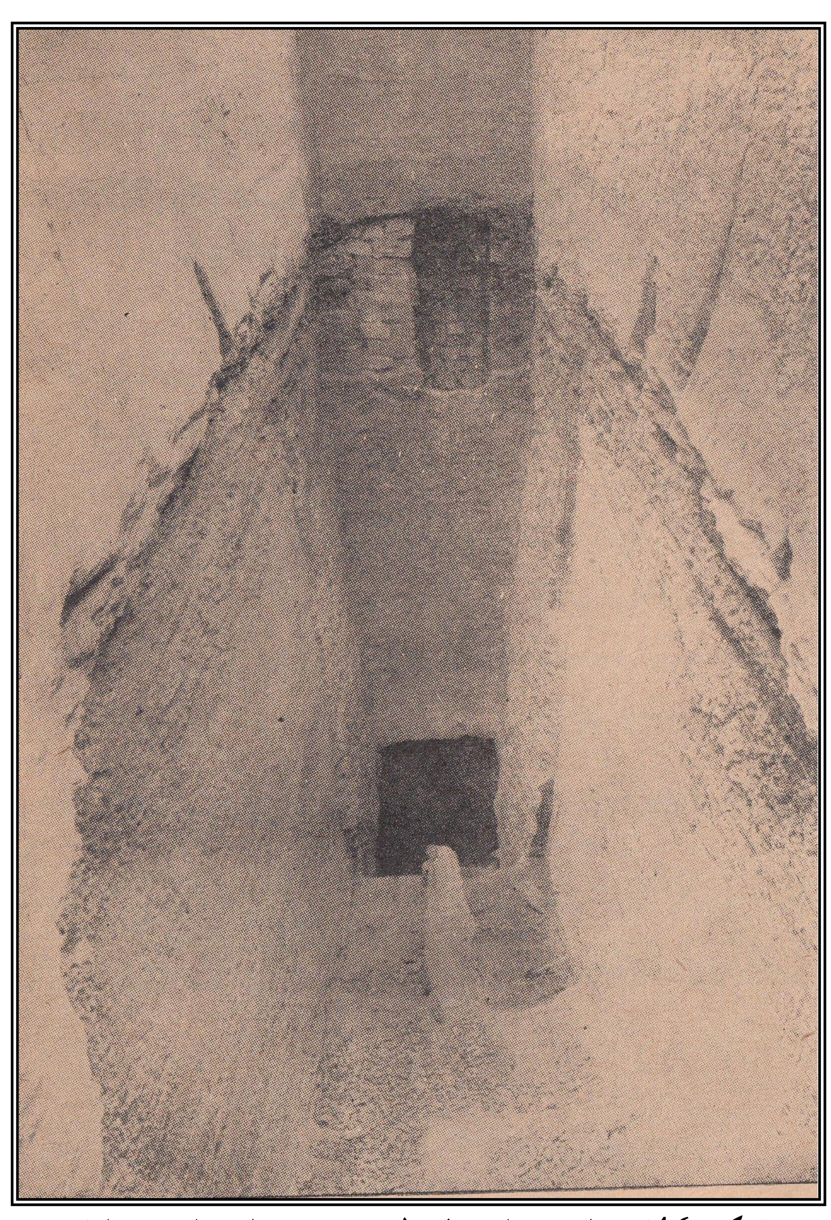
ولما تحققت من ذلك كان علينا أن نضع جسرا من الخشب للمرور بالقدم، لنظفر بالوصول إلى دهليز المدخل العلوي، ولم يكن حتى مارس سنة **1955** أننا تمكنا من ارتياد ممر الهرم الأصلي. والحاجة التي كانت أعظم إلحاحا هي إتمام تنقيب الأمتار الأربعين الأخيرة من هذا الممر وهي التي تقع بين البئر وغرفة الدفن.



(شكل **44**) منظر المدخل إلى الجنوب "بجسر" من الصخر.

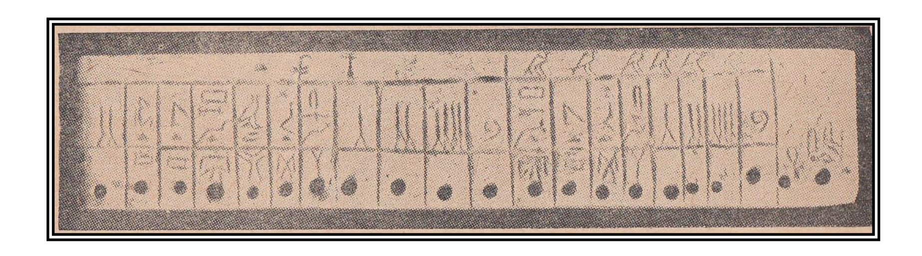


(شكل 45) منظر آخر للممر، ويظهر المدخل العلوي والثقب في أرضية الصخر أعلاه



(شكل 46) منظر ممر الدخول المحفور، وفيه يظهر النفقان العلوي والسفلي

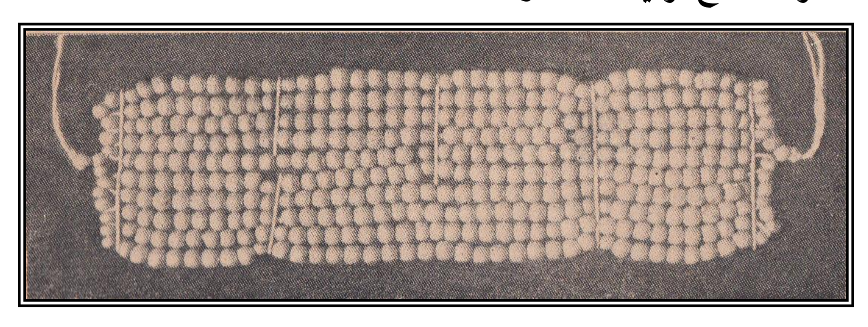
في الموسم الأخير، كنا نمر فوق كومة عظيمة من الأنقاض التي كانت تغطي أرضية الممر، ويمكن أنها كانت تخفي آثاراً كثيرة. وفي الواقع بمجرد أن أزيلت بضعة الأمتار الأولى من الركام، عثر على عدد وفير من الأواني الحجرية على الأرضية. وكانت تستقر في الممر مئات من القصاع جميلة الشكل، والصحاف والأطباق والموائد الصغيرة والأكواب المصنوعة من صخور المرمر والشست والديوريت والبرشيا والسماق الإمبراطوري (البورفير). وكان بعضها سليما والبعض الآخر شظايا. ولم يكن في هذه الأواني أي طعام أو غير ذلك من الأشياء، وكان من الواضح أن غالبيتها صنع لأغراض جنازية فحسب، وبين الأواني الحجرية عثر على بعض الجرار من الخوف بخواتيم من الطين تحمل اسم سخم – خت، وبهذا تؤيد بطريقة إيجابية نسبة الهرم إلى هذا الملك. وكذلك عاوننا غربلة الأنقاض على الظفر بخرز من الذهب صغار، وقضب فواصل من الذهب كانت جزءًا من سوار واحد عريض، ولقد أكملت هذه مجموعة الحلي التي وجدناها على مقربة منها في أثناء الفصل الأخير (أنظر الشكل **47**).



(شكل **47**) لوح من العاج محفور عليه قائمة بمنسوجات النيل وفي أقصى اليمين اسم جسرتي عنخ أو نبنيم – جسرتي – عنخ

ولكن أكوام الصخر المنهار والأنقاض ارتفعت إلى علو يبعث على الفزع، وكان يزداد على التدرج كلما اتسع الدهليز. وفي مثل هذه الأحوال كان يجب القيام بأعمال تقوية على نطاق واسع ولما كان الصخر في حالة خطرة، لم تكن المساند الخشبية البسيطة بكافية، وكان لزاماً علينا أن نقيم دعامات من الحجر. وكلما ازداد الدهليز هبوطاً كان يتحتم زيادة ارتفاع حيطان التقوية تلك. وبالقرب من الوسط وصل ارتفاع الدهليز في حالته الراهنة إلى أكثر من عشرة أمتار.

ولقد ساعدنا التنقيب على الظفر بمزيد من الأواني الحجرية. وكان بعضها يحمل كتابات بالخط السريع رقشت بالمداد. وكان يقرأ في إحداها اسم شخص يدعى أي ن خنوم، وهو موظف كنا نعلم أنه خدم في عهد الملك زوسر. وقد ذكر اسمه بمناسبة عيد السد للملك سخم – خت. وقد وجد أيضاً لوح على درجة عظيمة من الجمال (أنظر الشكل **48**). وهذا اللوح يحوي قائمة بأنسجة الكتان وقد نقش عليه اسم جسرتي – عنخ أو نبتي – جسرتي عنخ. هل كان هذا اسم "نبتي" الملك نفسه ويكون بذلك جسر الثاني الذي جاء في قوائم المملوك أو اسم ملكته أو مجرد اسم أميرة؟ لا يزال القطع برأي سابقاً لأوانه.



(شكل **48**) سوار من خرزات من ذهب بقضبان فواصل ذهبية

ولقد نجم عن مزيد من العمل في الممر كشف مجموعة من الأدوات النحاسية تشتمل على سكاكين ومخارز وأزاميل ورؤوس فئوس. وكانت توجد أيضاً أطباق من النحاس وجذاذات من أوان نحاسية وعن كثب من هذه الآثار، وجحدت سكين من الظران عظيمة.

وقد اتضح أن المخازن المنضدة على شكل T التي عثر عليها في الموسم الأخير كانت أعظم مما كان يذهب ظنا إليه. ووجد أنها تتألف من 132 قسماً. ويبلغ طول ذراع T الأفقي 151 متراً. ويتفرع من هذا الدهليز، دهليزان آخران طول كل منهما 106 من الأمتار ويسيران من الشمال إلى الجنوب على كل من طرفيه. وقد نحتت الأقسام في جانبي كل من هذه الدهاليز. ويظهر أن المجموعة كلها لم ينته العمل فيها على الإطلاق، ووجدت أنقاض الحفر الأصلي تملأ الدهاليز ومعظم الأقسام إلى ما يقرب من ثلثي ارتفاعها.

وقد تم تنظيف الزاويتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية من بناء الهرم. وفي المعبد الجنازي ظهر مزيد من الحيطان. وهي حيطان ضخام مشيدة بنفس الطريقة التي شيد بها بناء الهرم أي بمداميك مائلة ولا تزال بعض أجزاء المعبد تحتفظ بأرضيتها الأصلية ولكن تصميم المعبد العام لا يزال غير محدد.

وقد ظهر اسم إيمحوتب على إحدى دعامات سور الوصيد (الحائط الأبيض)، وقد رقش بالمداد الأحمر. ولكن ليس من المحقق أنه اسم مهندس

زوسر المعماري، ذائع الصيت مع هذا، لدينا الآن السبب الكافي للاعتقاد أن سخم – خت كان خلف زوسر المباشر.

إن حقيقة واحدة مؤكدة، لقد بدأنا خدش السطح فقط، والأثر نفسه في مساحته الكلية يبلغ رقعة ميدانين لكرة القدم وضعا جنباً إلى جنب. والوصيد الخارجي يبلغ طوله أكثر من ستمائة مترا. لا يزال كل هذا يتطلب التنقيب وفي الوقت الحاضر يقع معظم هذا الصرح الهائل دفينا تحت الرمل، وتحت أي جزء منه، قد نعثر على دهاليز سفلية كتلك التي وجدت أسفل الهرم المدرج، وأي واحد منها قد يسير بنا إلى غرفة دفن، إما لملك أو لأفراد الأسرة الملكية. وقد تستدعي الحال عشرين سنة أخرى ليرتاد هذا الأثر ارتياداً تاماً، وهو الذي أقيم منذ قرابة خمسين قرناً خلت عندما كان تسعة أعشار تاريخ الإنسان المتحضر لم يكتب بعد.

قائمة تاريخية بالأسرات المصرية

عهد ما قبل التاريخ:

قبل **4000** سنة ق.م: مستعمرات في مواقع مختلفة في مصر العليا ومصر السفلى.

عهد ما قبل الأسرات: **4000 – 3200** ق.م

فترة انتقال من العصر الحجري إلى استخدام النحاس الصلب

العهد العتيق:

الأسرة الأولى: **3200 – 2980** ق.م.

الأسرة الثانية: **2980 – 2780** ق.م.

الدولة القديمة (**عصر الأهرام**):

الأسرة الثالثة: **2780 – 2680** ق.م.

الأسرة الرابعة: **2680 – 2565** ق.م.

الأسرة الخامسة: **2565 – 2420** ق.م.

الأسرة السادسة: **2420 – 2258** ق.م.

العصر المتوسط الأول:

الأسرة السابعة: 2258 ق.م (انفصام بين عهدين)

الأسرة الثامنة: 2258 – 2232 ق.م.

الأسرة التاسعة: 2232 – 2180 ق.م

الأسرة العاشرة: 2180 – 2052 ق.م

يعاصر الأسرتين التاسعة والعاشرة من يدعون انتف، أمراء طيبة 2232 – 2134 ق.م

الدولة الوسطى:

الأسرة الحادية عشرة: 2134 – 1191 ق.م.

الأسرة الثانية عشرة: 1191 – 1786 ق.م.

العهد المتوسط الثاني:

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة: 1786 – 1680 ق.م.

الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشر (عصر الهكسوس): 1720 – 1570 ق.م. (حكام محليون في طيبة)

الأسرة السابعة عشرة: 1600 – 1570 ق.م.

الدولة الحديثة:

الأسرة الثامنة عشرة: 1570 – 1349 ق.م.

الأسرة التاسعة عشرة: 1349 – 1197 ق.م.

الأسرة العشرون: 1197 – 1085 ق.م.

عهد الأسرات المتأخرة:

الأسرة الحادية والعشرون: 1085 – 950 ق.م.

الأسرة الثانية والعشرون: 950 – 730 ق.م.

الأسرة الثالثة والعشرون: 817 – 730 ق.م.

(معاصرة للأسرة الثانية والعشرين، زمناً)

الأسرة الرابعة والعشرون: 730 – 715 ق.م.

الأسرة الخامسة والعشرون: 751 – 656 ق.م.

(عاصرت الأسرتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين زمناً)

الحكم الآشوري: 671 – 663ق.م.

الأسرة السادسة والعشرون (العصر الصاوي): 663 – 525 ق.م.

الأسرة السابعة والعشرون (أول حكم فارسي): 525 – 404 ق.م.

الأسرة الثامنة والعشرون: **404 – 398** ق.م.

الأسرة التاسعة والعشرون: **398 – 378** ق.م.

الأسرة الثلاثون: **378 – 341** ق.م.

الأسرة الحادية والثلاثون (ثاني حكم فارس): **341 – 332** ق.م.

غزو الإسكندر الأعظم لمصر: **332** ق.م.

العهد اليوناني الروماني:

الإسكندر الأكبر والبطالة: **332 – 30** ق.م.

العهد البيزنطي أو القبطي: **324 – 640**م.

غزو العرب لمصر: **640**م.

مراجع

- بارسانتي، ا.: "حفائر زاوية العريان (1904 – 6" في حوليات مصلحة الآثار المجلد الثامن ، الصفحات 201 – 10، القاهرة سنة 1907.
  - **Barsanti. A: "Fouilles de Zaouoiet el- Aryan (1904 -6)"**
- بارسانتي، ا.: "فتح هرم زاوية العريان" في حوليات مصلحة الآثار المجلد الثاني، الصفحات 92 – 4، القاهرة سنة 1901.
  - **Barsanti A: "ouverture de la Pyramide de Zaouiet el – Aryan"**
- بسنج، ف.و فون وكيز هـ: "روثورس" مجلة الآثار المصرية المجلد 20 ، 1922
  - **Bissing F.W. Von, and Kees, H: "Rathnres" Journal of Egyptian Archaeology, Vol, 20, 1922.**
- بلاكمان . أ. م. "شعيرة فتح الفم" في مصر القديمة وبابلونيا في مجلة الآثار المصرية المجلد العاشر لندن 1924.
  - **Blackman, A.M: "The Rite of Opening the mouth in Ancient Egypt and Babylonia, " in J.E. A. Vol X, London, 1924.**
- برستد، ج.هـ "تطور الدين والفكر" في مصر القديمة لندن 1923
  - **Breasted J.H: The development of Religion and thought in Ancient Egypt, London, 1923.**

- برنتون، ج: اللاهون ،1 – المنز – لندن 1920
- Brunton, G: Lahum, 1 – The Treassure, London, 1920.
- كارتر، هـ: قبر توت عنخ آمون، لندن، ثلاثة مجلدات 1923 – 1933.
- Carter, H.: The Tomp of Tutankhamen, London, 3 Vols, 1923 – 33.
- كلارك، س. وانجلباخ، ر. : البناء المصري القديم أكسفورد سنة 1930.
- Clarke, S. and Engelbach, R.: Anient Egyptian Masonry, Oxford, 1930.
- كوترل، ل: الفراعنة المفقودون ، لندن 1950.
- Cottrell, L.: the Lost Pharaohs, London, 1950.
- دريتوت، أ. ولويز، ج. ف: سقارة، آثار جسر القاهرة سنة 1939.
- Drioton, E. and lauer, J.P: Sakkarah, The Monuments of Zoser, Cairo, 1939.
- إدواردز، ا. 1. س: أهرام مصر ، لندن 1954
- Edwards I.E.S. :The Pyramids of Egypt, London, 1954.
- إمري، و.ب: قبر حماكا القاهرة 1938
- Emery, W.B. : The Tomb of Hemaka, Cairo 1938.

- إمري، و.ب: قبر حر – عها، القاهرة 1939
- Emery, W, B.: the Tomb of her – Aha, Cairo 1939.

- إنجلباخ، ر.: "الوسائل الآلية والصنعية" الفصل الخامس من كتاب "تراث مصر" مطبعة جامعة أكسفورد ، 1952
- Engelbach, R.: "Mechanical and Technical Processes." Capter 5 of The Legacy of Egypt, Oxford University Press, 1952.

- إرمان، أ.: كتاب عن الديانة المصرية (ترجمة إلى الإنجليزية أ. س جرفت) لندن سنة 1907
- Erman A.: A Handbook of Egyptian Reilogion)English tranclation by A.S Griffith), London, 1907.

- إرمان ، ا: الديانة المصرية برلين 1934
- Erman, A.: Die Religion der Agypter, Berlin, 1934

- إرمان ، ا. : آداب المصريين (ترجمها ا. م. بلا كمان) لندن 1907
- Erman, A.: The literature of the Egyptians (Translated by A.M. Blackman), London, 1927.

- فرث، س. م وكوبيل ، ج أ. ولويز، ج. ف: الهرم المدرج القاهرة 1935.
- Firth, G,M., Quibell, J. E. and laucer, J.P.: The Step Pyramid Cairo, 1935.

- جاردنر، أز هـ: موقف قدماء المصريين من الموت والموتى كمبردج 1935
- Gardiner, A. H.: The Aitiude of the Ancient Egyptians to Death and Dead, Cambridge, 1935.
- جاردنر، أ. هـ، وبيت، ت. أ: "نقوش سيناء" لندن 1952
- Gardiner, A.H., and Peet, T.E.: Inscriptions of Sinai, London, 1952.
- جرفث، ف. ل : "نقوش هرم ميدوم" في "ميدوم" الذي وضعه و.م. ف بتري – لندن 1892
- Griffith, F. Li: "the Inscription of the Pyramid of Mesum" in W.M.F. Petrie, Medum, London, 1892.
- جن، ب: مراجعة ت.أ. بيت "بردية رند الرياضية". مجلة الآثار المصرية المجلد الثاني عشر الصفحات 123 – 37 لندن سنة 1926.
- Gunn, B.: Review of T.E: Peet, "The Rhind Mathematical Papyrus", in the J. E. A., Vol. Xll, PP. 123 – 37, London, 1926.
- هري، ج.ب. أم حتب (امحوتب) أكسفورد سنة 1926
- Hurry, J.B.: Imhotep, Oxford, 1926.
- جاكيه، ج: "مطبعة فرعون" القاهرة 1928
- Jwquier, G.: Le Mastabat Faraoun, Cairo, 1928.

- يونكر، هـ. "جيزة" الحفر في وصيد الدولة القديمة بجوار أهرام الجيزة المجلدات من 1 5 فينا 1929 – 41.

- **Junker, H.: "Giza" Graubünden auf dcm Fricdhof des Alton Reiches bei den Pyramids yon Giza Vol. 1 – V. Vienna, 1929 41.**

- لويز ، ج.ف.: "الهرم المدرج" فن العمارة، القاهرة 1936 في سلسلة حفائر سقارة، مصلحة الآثار المصرية.

- **Lauer, J.P. "La Pyramide a Degrs '. L. Architec. Ture, Cairo, 1936. in the series, Fouills a Saqqara S.A.E.**

- لوير ، ج. ف: مسألة أهرام مصر ، باريس 1952

- **Lauer, J. P.: Le Problem des Pyramildes de L' Egypte, Paris 1952.**

- لوير، ج. ف: " دراسات تكميلية عن آثار الملك زوسر في سقارة " في سلسلة ملاحق حوليات مصلحه الآثار:

- **Lauer, J.P.: "Etudes Complementaires sur les monuments du Roi Zoser a Saqqara". In the Series, Sup., A.S.A.**

- لوكاس،م أ. : المواد والصناعات المصرية القديمة (الطبعة الثالثة) لندن 1947

- **Lucas, A,: Ancient Egyptian Materials and Industries (3rd edition), London, 1947.**

- لثجو ، أ. م.: "كنز اللاهون" في نشرة متحف متروبليتان للفن ديسمبر سنة 1919 (الجزء الثاني) نيويورك 1919.

- **Lythgoe, A.M.: "The Treasure of Lahun" in the B., M.M.A., Dec. 1919 (Part 11) N.W., 1919.**

- **ماسبرو، جا. وبارسانتي، ا.: "حفائر زاوية العريان 1904 – 5" في حوليات مصلحة الآثار المجلد السابع الصفحات 257 – 86 القاهرة 1906.**

- **Maspero, G., and Barasanti, A.: "Fouoilles de Zaouiet el – Aryan, 1904 – 5". In A.S.A. Vol. Vll, PP. 257 – 86, Cairo, 1906.**

- **بتري، و.م.ف.: موسم في مصر 1887 لندن 1883.**

- **Petrie, W.M.F.: The Pyramids and Temples of Gizeh London, 1883.**

- **بتري، و.م.ف.: بناء هرم في مصر القديمة، الجزء الثاني الصفحات 33 – 39 لندن 1930.**

- **Petrie, W.M.F.: The Bulding of a Pyramid in Ancient Egypt, Part II. Pp. 33-9, London, 1930.**

- **بتري ، و. م.ف: ميدوم – جمعية ارتياد مصر، لندن**

- **Petrie W.M.F.: Medum, E. Ex.S., London.**

- **كويبل ، ج. أ: قبر حسي، القاهرة 1935.**

- **Quibell, j.E.: The Tomb of Hesy, Cairo, 1935.**

- **رولنسون ، ج.: تاريخ هيردوطس (مكتبة كل رد، تحرير أ.هـ. بلانكي لندن 1912.**

- **Rawlinson, G.: History of Herodotus (Everyman Library, editrd by E. II. Blakeney), London, 1912.**

▪ رايزنر، ج.أ: تطور القبر المصري حتى اعتلاء خوفو العرش ، كمبردج مساسا شوست سنة 1935.

- **Reisener G.A.: The Development of the Egyptian Tomb Down to the Accession of Cheops, Cambridge. Massachusetts, 1935.**

▪ رايزنر، ج.أ.: "حتب حرس، أم خوفو" في نشرة متحف الفنون الجميلة، المجلد 25(ملحق خاص) و 26 و 30 بوسطن 1927 – 32.

- **Reisener, G.A.: "Hetep. Heres, Mother of Cheops" B., M.F.A, Vols XXV (S.S.) XXVL, and XXX, Boston, 1927 – 32.**

▪ رايزنر، ج.ا، وفشر ث.س: "عمل متحف جامعة هارفرد" في نشرة متحف الفنون الجمليلة نمرة 54، بوسطن 1911

- **Reisener, G.A. and Fisher, C.S.: The Work of the Haravrd University Museum", in the B, M.F.A. No. 54. Boston. 1911.**

▪ ركي. هـ: ملاحظات عن الفن المعماري المصري في الدولة القديمة 2

- **Ricke, H.: Bemerkungen Zur Aegyptischen Baukunst des Alten Reiches, II.**

▪ فيس، هـ. وبرنج. ج.س: عمليات أجريت في هرم الجيزة لندن 1840 – 2

- **Vyse, H., and Perring J.S.: Operations Carried on at the Pyramid of Gizeh, London, 1840 – 2.**

▪ وينريث، ج.أ. : "عبادة السماء في مصر"كمبردج 1938

- **Wainwright, G.A., The Sky Religion in Egypt, Cambridge, 1938.**

▪ هويلز، ن.ف.: "الأهرام والغرض منها" في مجلة الأزمنة القديمة" المجلد التاسع الصفحات 172 – 85 جلوستر 1935

- **Wheeler N.F.: "Pyramids and their Purposes" in Antiquite Vol Ix, PP. 172 – 85, Glouocester, 1935.**

▪ ونلوك، هـ. أ. "كنز اللاهون" نيويورك 1934

- **Winlock, H.E.: The Treasure of El- Lahun, New York, 1934.**

بيان أشكال الكتاب

المرحوم السيد محمد زكريا غنيم:

1. هرم زوسر المدرج
2. إعادة بناء مدخل وصيد هرم "زوسر" الخارجي.
3. هرم زوسر المدرج – وفيه يظهر الوصيد الخارجي وحائط الوصيد الجنوبي.
4. تمثال الملك زوسر من السرداب.
5. نصب بيت الملك زوسر في وضعه جرئ، من أحد الدهاليز أسفل الهرم.
6. أواني من المرمر وجدت أسفل هرم زوسر (مضاءة من الداخل).
7. أواني من الديوريت والمرمر، من هرم زوسر
8. الحفرة المنحوتة في الصخر في زراية العريان جزء من الهرم غير التام الذي ينسب إلى نفر–كا
9. هرم سنفور في ميدوم.
10. منظر أخذ من الطائرة لوصيد هرم زوسر.
11. استهلال لعمل، وعلى بعد، أهرام سنفرو في دهشور.
12. صورة أخذت عن قرب لسير العمل وفي خلفية الصورة "الديكوفيل".
13. "الحائط الأبيض" وقد كشف عنه جزئياً.

14. "الحائط الأبيض" وقد كشف عنه تماماً.

15. رسوم العمال على إحدى دعامات "الحائط الأبيض".

16. رسم عامل، لرجل ليبي يشتمل برداء طويل.

17. المنظر الداخلي لأحد المحاجر المصرية القديمة في المعصرة في آكام النيل الشرقية.

18. كتلة من الحجر الجيري فصلت جزئية من المحجر.

19. فتحة لصوص المقابر التي وجدت على مقربة من "الحائط الأبيض".

20. تكشف حائط الهرم الشمالي.

21. كشفت الزاوية الجنوبية الشرقية للهرم.

22. دفن "الحصير" لسيدة ليبية" كا – نفر – نفر.

23. "دفين الحصير" الطرازي كما وجد على حالته.

24. قناع وجه وحلي كا – نفر – نفر.

25. المنحدر الأصلي من الركام الذي استخدم في بناء الهرم.

26. البحث عن دهليز الدخول إلى الشمال من بقايا المعبد الجنازي.

27. مدخل الهرم، خندق منحوت في الصخر، عميق بحيطان داعمة في القمة، كشف عنه جزئياً.

28. المدخل وقد كشف تماماً، وفي النهاية القصوى الباب المختوم الموصل لدهليز الدخول.

29. باب الدخول لبناء الهرم السفلي والسد في مكانه.

30. منظر من داخل ممر الدخول يتجه صوب الشمال وقد أزيل جزء من السد.
31. عقد نصف دائري على بعد أحد عشر متراً من مدخل بناء الهرم السفلي، ويظهر الركام الذي يكون السد الثاني.
32. حفرة احتفرت في ردم البئر العمودي وفيها تظهر عظام حيوان الأضحية.
33. منظر من داخل المر يتجه إلى أعلى من خلال البئر التي أفرغت.
34. منظر لممر الدخول عند سفح البئر العمودي وفيه تظهر الأواني الحجرية في حفرة الطفل الناعم.
35. زكريا غنيم يفحص بعض الأواني من الديوريت التي وجدت في ممر الدخول.
36. أسورة من الذهب وغيرها من الحلي كما وجدت على الأرضية مقربة من القصعة من الديوريت.
37. الطرف الآخر من ممر الدخول الذي نظف جزئياً ويظهر السقف في حالته غير التامة.
38. أدوات زينة من الذهب.
39. زكريا غنيم في مدخل الهرم وعن يمينه حسين إبراهيم وعن شماله حفني إبراهيم.
40. غرفة الناووس كما وجدت تطل على الشمال صوب ممر الدخول.
41. زكريا غنيم يفحص "طاقة الزهر الجنازية" فوق سطح الناوس المرمري.

42. الناووس المرمري، ويظهر فيه اللوح الذي ينزلق في الطرف الشمالي و"طاقة الزهر الجنازية" وقد رفع.
43. الناووس اللوح الذي ينزلق وقد رفع.
44. منظر المدخل إلى الجنوب "بجسر" من الصخر.
45. منظر آخر للممر ويظهر المدخل العلوي والثقب في أرضية الصخر أعلاه.
46. منظر ممر الدخول المحفور، وفيه يظهر النفقان، العلوي والسفلي.
47. لوح من العاج محفور عليه قائمة بمنسوجات النيل، وفي أقصى اليمين اسم جسرتي عنخ أو نبتي جسرتي – عنخ.
48. سوار من خرزات من ذهب بقضب فواصل ذهبية.

الفهرس